أفقٌ يضيعُ بين ماءٍ وسماء

ملامح من سيرة حياة

عاطف عطيّه

أفقٌ يضيعُ بين ماءٍ وسماء

ملامح من سيرة حياة



جرّوس برس ناشرون

Jarrous Press Publishers

الكتاب: أفق يضيع بين ماء وسماء

الكاتب: عاطف عطيّه

الموضوع: مذكرات

القياس: 22×15

الصفحات: 244

© جرّوس برّس ناشرون

Jarrous Press Puplishers

شارع جميل عدرة، باسل سنتر

ص.ب. : 189، طرابلس، لبنان

تلفاكس: 208205 6 961+

jarrous.press@gmail.com

info@jarrouspress.com

www.jarrouspress.com

الإخراج الفني: وسام عطية

ISBN: 978-614-481-025-5

إلى عاطف الثاني، حفيدي

من أجل أن يعرف شيئاً عن أحوال أهله

تقديم

تنهض هذه الصفحات من خزان الذاكرة لتقدّم ملامح من سيرة حياة شخص عادي استخلص من تجاربه، ومن معاناته، ما يمكن أن يكون مفيداً لمن يطّلع عليها، لما فيها من أحداث ومحطات دمغت حياته ووجّهته وجهات ما كانت لتوصله إلى ما وصل إليه، إلا بالإرادة والتصميم، على ما تمليه من وقائع أثبتت جدواها في التعاطي مع شؤون الحياة، بما يمكن ان يسهّل بناء المستقبل على قدّ الحال، وعلى قدّ المطمح وأزوَد.

لا تطمح هذه الملامح لأن تكون مذكرات بالمعنى المتعارف عليه، باعتبارها نشاطاً حياتياً لشخصية مهمة وجدت نفسها في حيّز الشان العام، أو في موقع قيادي، سياسي أو فكري أو عسكري.. ليشرح فيها تفاصيل حياته وانجازاته وتأثيره في مسرى التاريخ العام، أو في تغيير على قدر ما كان يأمل أو يطمح.. إنها بكل بساطة محطات من سيرة حياة شخص عادي عاش في حالة فقر مع توفّر العاطفة والحنان من أهل ما أرادوا له إلا الخير، إن كانا من الوالدين، أو من الأخوة.. ولكن قُصر اليد أعاقتهم عن تقديم كل ما يلزم ليعيش الطفل، ومن ثم الفتى، أقرب إلى البحبوحة والرفاه. وقد أظهرت هذه الملامح مسيرة طفل ذاق طعم الفقر، وعرف قيمة الأشياء من خلال ما كان يراه منها في أيدي الآخرين. فأحسّ بالحسرة اللازمة هنا، أو بالقناعة التي تتكئ على معرفة أحوال الأهل وضائقتهم، هناك.. ومن جملة ما كان يحس به، الحرمان من الترفيه، كما يراه في وجوه الأطفال، وفي ألعابهم وثيابهم الجديدة يوم العيد، وصليب الشعنينة المزيّن بالورود وحبّات الكرميل، والأحذية اللماعة، في الوقت الذي لا يملك منها شيئاً، مع ما يلبس مما هو موجود، ولو كان بنطالاً

قصيراً في عز الشتاء، أو طويلاً في عز الصيف. يلبس ما هو متوفّر فحسب.

ما كان يعزّي صاحب هذه الملامح أنه كان مميّزاً بين رفاقه في بداية تفتّحه على الدنيا، فقط لأن أباه يعلّم الأولاد في مدرسة الضيعة، وهو معهم أحد أولادها.. وفّر له هذا الموقع قيمة معتبرة بين أقرانه. أما غير ذلك فلم يكن له أي اعتبار في نظر نفسه، قبل نظر الآخرين.

حاولت هذه الملامح إظهار دقائق اللحظات التي ما زالت عالقة في ذهنه.. وأهميتها هي أنها كذلك.. تذكّرُها دليلٌ على تأثيرها في صاحبها، إلى الدرجة التي يعرف أنها رسمت المفاصل الأساسية في حياته، من الطفولة إلى الشيخوخة. وما فاجأه في لحظات التذكر والتدوين، أن تسلسل الوقائع جاءت سلسة هينة ومتتالية كشريط سينمائي، تسجّلت فيه أوهى اللحظات التي خلا أنها اندثرت ولا إمكان لرجعتها.

من المهم القول إن لكل إنسان ذكرياته، وقائع محزنة ومفرحة. جوانب سوداء وجوانب بيضاء.. فشل هنا ونجاح هناك.. خيبة في العلاقات، وفرح في غيرها.. أمل وثقة في الغد، يأس وإحباط في غد آخر. حاجة ملحّة إلى المال، وبحبوحة في العيش تكاد تُنسي عذابات الفقر.. هذا كلّه في مسيرة كل إنسان مهما كان موقعه، ومهما كان شأنه في هذه الدنيا.. وكل تجربة مهما صغرت، معلَم من معالم الفعل الانساني، ونتيجة من نتائج مختبر الحياة.. والتجربة هذه، يمكن أن تفيد الآخر، على بساطتها أو تعقّدها، حسب ما جناه هذا أو ذاك من تجارب الحياة، في أفراحها ومآسيها، في نجاحاتها وخيباتها. والتجربة هي التي تعطي لمن سيأتي الدلائل العملية التي يمكن أن تواجه أي إنسان في حلوها ومرّها، فيستفيد منها، ويجعل من نفسه مريداً لهذا التوجه أو

ذاك، أو مبتعداً عن هذا السلوك أو ذاك، حسب ما يرى من نتائج أفادته، فيحاول أن يقتدي بها ويحاكيها، أو يحاول أن يبتعد عنها، إذا لمس أنها أضرّت من سبق، يحذّر من تمثّلها أو الاقتراب منها.

من المهم جداً، باعتقادي، تسجيل تجارب أي إنسان، إذا كان، فعلاً، قادراً على ذلك.. فالسيرة الذاتية، مهما كان شأن صاحبها، مفيدة لغيره، وتقدم على الأقل لأبنائه وأحفاده وأقاربه خلاصة ما مرّ به في الحياة.. ومن المهم القول أيضاً، أن لكل منا محطات أساسية في الحياة؛ محطات ساهمت في تحويل حياته من حال إلى حال. وليس بالضرورة أن يكون هذا التحوّل ارتقاء، وتحسّناً في أحوال صاحب السيرة؛ بل يمكن أن يكون العكس، التحول من الرفعة إلى الوضاعة، ومن الغنى إلى الفقر، من النجاح والشهرة إلى الفشل والعزلة.. مذكرات هذا شأنها، تفيد في إيجابياتها وسلبياتها، لتكون دليلاً للمطلعين من أجل تجنّب ما يوصل إلى الفشل، والاقتداء بما يمكن أن يوصل إلى النجاح.

تحمل هذه الملامح في طياتها، ذكريات طفولة مرّة، وفتوّة أخفّ وطأة على قلة في امتلاك وسائل العيش العادية إن كان في الأكل أو اللباس، أو الحصول على الحد الأدنى من اللوازم المدرسية، وغيرها الكثير من وسائل الراحة. كل ذلك ما كان يهم.. المهم كان الاستمرار في الدرس والتحصيل، والتأكيد على الذات، قبل الآخرين، أن لا شيء يمكن أن يعرقل ذلك. وصل الأمر في قمة المعاناة، إلى التفكير بترك المدرسة في المرحلة الثانوية.. ولم يحصل، فقط لأن الارادة مصممة. ولم يحصل الأحساس بطعم الراحة في حدّها الأدنى إلا في نهاية هذه المرحلة بعد مرافقة العمل للدرس، ومن ثم الوصول إلى المرحلة الجامعية.

إن أهم ما يمكن أن تقدمه السيرة الذاتية، بالاضافة إلى ما سبق،

العفويـة في عـرض الوقائـع، وبسـاطة هـذا العـرض، مـع الصـدق الـذي لا تسـتقيم أي سـيرة بدونـه.. ومـن المعـروف والبديهـي أن في شريـط حيـاة كل إنسـان مـا هـو سـلبي ومـا هـو إيجـابي.. فيـه الأخطـاء وفيـه الانجـازات، فيـه مـا يمكـن أن يـدلّ عـلى أنانيـة وحقـارة، ومـا يـدل عـلى شـهامة ورفعـة في التعامـل. ومـن الطبيعـي أن لا يلتفـت صاحـب السـيرة إلى مـا يمكـن أن يـضرّ بالآخريـن، أو ينـشر سـترهم أو يفضـح سـلوكهم.. فهـذا ليـس مـن شـأن سـيرته، إلا مـا طالـه منهـا مـن ضرر أو نفـع، فيذكـر بالمختـصر الـذي لا يـضر، ولا يبالـغ في مديـح هـذا أو نقـد ذاك.

حاولـت في تقديـم هـذه الملامـح أن أكـون دقيقـاً في سردهـا مـع إظهـار مـا كانـت تعنيـه لي في زمـن حصولهـا؛ وهـي التـي لا تـزال ماثلـة في ذهنـي، مـع الصـدق الـلازم لإضفـاء الأهميـة عـلى الواقعـة كـما حصلـت بالضبـط.. هـذا كان جـلّ المبتغـى. ولا أريـد مـن وراء ذلـك إلا تقديـم مـا حصـل معـي في كل مفاصـل حيـاتي. ربمـا في ذلـك أعطـي خلاصـة تجربـة، أظـن بأنهـا ناجحـة، لا لـشيء، إلا لأنهـا تُظهـر، بمـا لا يقبـل اللبـس، مـا كنـت عليـه في صغـري وفي نشـأتي المبكـرة، ومـا أنـا عليـه اليـوم وقـد بلغـت السـبعين.. لا تبجّـح في هـذا الـكلام ولا غـرور.. بـل واقـع عشـته، وعاشـت معـي فيـه أسرتي، وأهـلي وأصدقـائي ومعـارفي.. لقـد بنيـت مسـتقبلي مدمـاكاً تلـو مدمـاك مـع مرافقـة مسـتمرة وصـبر قـلّ مثيلـه مـن زوجتـي التـي اسـتمرت معـي سـنوات طويلـة قبـل أن أحظـى بهـا زوجـة لي. وكثـيراً مـا سـمعت جهـراً، وضمنـاً، أننـي أمثّـل العصاميـة الصافيـة، ولا أحـد سـبقني عـلى مـا فعلـت.

لا يـدل هـذا الـكلام عـلى أننـي أبخـس حـق أهـلي عـليّ. لقـد فعـل أبي مـا بوسـعه لتربيتنـا التربيـة الصالحـة، وإن عـلى فقـر.. وأكسـبَنا محبـة النـاس بنوعيـة علاقاتـه وصفـاء سـيرته.. وعانـت أمـي مـا

عانيناه بصبر الزوجة وحنان الأم. ولولا ما قام به شقيقاي ملحم ونافذ من ضروب الرعاية لما وصلت إلى ما أنا عليه اليوم. كانا بمثابة الدينمو الذي ساعدني على إنبات ريش جناحيّ للتحليق فيما بعد، والسواعد التي دفعتني للانطلاق بمفردي. وبعد ذلك، رسمت نفسي بنفسي، وحقّقت ما حققته بجهدي وتعبي.. وكان من جملة ذلك ما أرويه في هذه اللمحات.

حاولت جاهداً لأنجح ونجحت.. وما أقدّمه في هذه الصفحات ما هو إلا ملامح من سيرة حياة، للتدليل على هذا النجاح. وما يهمني وأنا أحرّر ما أشعر به في اللحظات هذه، أن أكون قد قدّمت ما يمكن أن يفيد المطّلع.. هي مذكرات بسيطة مخصّصة أولاً لحفيدي عاطف الثاني، ليعرف ما كنا عليه، ولأحفادي القادمين ليطّلعوا على سيرة جدّهم ومن سبقه، ومن لحقه.. ولتكون، من بعد، إلى من يريدون التعرّف على نمط حياة السابقين ودورهم في بناء نجاحات مَن لحق، إن كان على صعيد الأفراد، أو كان بالمقارنة بين أحوال الضيعة في الماضي، وما هي عليه اليوم.

أرجو أن أكون قد بلّغت.

السامرية، الكورة، 24 نيسان 2020.

عاطف عطيّه

1

السقف والمطر والمدرسة

قوموا.. قوموا..

كان علينا أن نقوم.. ونتكوّم في زاوية الغرفة، بمجرد سماعنا هذا النداء الآمر.. لا فرق في ذلك، إن كان في منتصف الليل، أو في الساعات الأولى من انبثاق الفجر حتى الصباح..

أول ما كنّا نسمعه بوضوح تام، وأعيننا مغمضة.. أنا وأخي الصغير بداعي الرمد، صوت طرقات الماء على الأوعية المعدنية.. كل طرقة بنغمة مختلفة.. ذكّرتني بها دروس الموسيقى في المرحلة المتوسطة، بعد ذلك بسنوات، نغمات ملخبطة عرفت فيما بعد أنها مندرجة على سلّم موسيقي.

تأتي أمي لتمسح عيوننا بالماء والصابون للتتفتّح، ونرى ما كنا نسمع.. فإذا طناجر وصحون معدنية تستقبل المياه الدالفة من السقف الترابي، تتوافد بتواتر متداخل تنمّ عنها هذه الأصوات المتنافرة، كما مَن يلعب على أصابع بيانو، وهو لا يفقه من الموسيقى شيئاً. لم أحظَ بهذه المقارنة، إلا بعد أن داهمتني الذكرى، وأنا أحاول إخراج نغمات الـ دو.. ري.. مي.. من آلة نفخيّة تدرّبت عليها إلى حين..

ما كان يخيفنا، أنا وأخي الصغير، شيء في الدنيا، إلا هذا الماء المتساقط من السقف أيام المطر، وفي بداياته على الأخص.. وإذا كان هذا يتوقف، فهو في محاولات رأب الشقوق الترابية على السطح لمنع تسرّب المياه.. وهذا ما كان يحصل في الغالب.. بعد حدل السطح وسدّ الثغرات.. أو هذا ما كان يتهيّأ لنا، لنتأكد، من بعد، أن الأمر نجح، بعد الشتوة التي تجيء وانحباس المطر.. إلا أن هذا غالباً ما ينجح، ولكن.. ليس في كل الاوقات.. فيعود أبي

لممارسة مهامه على السطح لنبقى بمأمن من الدلف، أو التهيئة للقيام مذعورين من نوم عميق.

أعطاني الدلف النازل من السطح درساً بليغاً مذ كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري، وما زال يفعل في مخيّلتي إلى اليوم.. وسيبقى ما حييت. فكّر في عمل اليوم، وفي تجاوز همومه، على أنه آخر يوم في العمر..

ما كان يهمّني في بداية تفتّحي على العالم إلا الخروج من تحت الدلف، إلى سقف لا يدلف، وإلى نوم هنيء لا يهجسه احتمال قيام، ولا تعكّره أصوات النغمات النشاز.

بدأ أبي ببناء بيتنا الجديد على أرض ليست لنا بعد استئذان مالك الأرض الطرابلسي وموافقته؛ وهو المالك النبيل الذي طلب منا تسجيل البيت، ولو على نفقته الخاصة بعد ثلاثين سنة، لأن الدنيا فيها موت وحياة. هذا ما فعله أبي بإلحاح مني، تبعه زيارة شكر لمالك الأرض.. وتمنيات بطول العمر. طيّب الله ثرى أنور المغربي.

قام بناء بيتنا الجديد على سواعد أهالي القرية، عرفاناً بخدمات أبي، وممارسةً لعونة خفّفت وتخفّف أعباء أعمال يعجز عن القيام بها فرد بحاله.. ليس هذا فحسب؛ بل العونة وصلت إلى فلاحة أرضنا بثيران فلاحي القرية في يوم يخصصونه لها، كذلك باسم العونة، وباسم الوفاء، لِما كان يقوم به من خدمات دون مقابل.

صار لدينا بيت لا دلف فيه، ولا قيام من النوم على رعب وعجل، ولا على نغمات تطلقها الطناجر والصحون المعدنية.. أحسست حينها، والإحساس هذا ما زال يتملكني إلى اليوم، وأستذكره كلما هطل مطر.. بأنني ملكت الأرض والسماء.

من محاسن الصدف أن بيتاً قديماً كان مُقاماً أمام منزلنا، مبنياً

مـن ألـواح التوتيـا المعدنيـة بكليّتـه. وكان المطـر يعطينـا صوتـاً بنغمـة واحـدة يشـنّف آذاننـا، في الليـل والنهـار.. نحـسّ بجـمال الصـوت، وبهطـول المطـر.. فيضفـي ذلـك علينـا نوعـاً مـن الأمـان المحبّـب والشـعور العميـق بالسـعادة. وقـد ارتبـط هطـول المطـر بصـوت ارتطامـه عـلى السـطح المعـدني إلى سـنوات وسـنوات، ولا يـزال راسـخاً إلى اليـوم في الذاكـرة.

إنتقلنـا إلى بيتنـا الجديـد، إلا جـدتي لأبي؛ المـرأة التـي تركهـا زوجهـا هربـاً مـن الفقـر الـذي تعانيـه أسرتـه الصغـيرة المؤلفـة مـن أبي وعمتـي التـي كانـت لا تـزال في أحشـاء جـدتي، بالإضافـة إلى كونـه البكـر في عائلـة مؤلفـة مـن سـبعة شـباب وفتـاة واحـدة، بالإضافـة إلى الأبويـن، ومَـن كان في البيـت مـن الأعـمام والعـمّات. هاجـر، دون أن يـدري إلى أيـن، ومـا كان يريـد أن يـدري.. المهـم الخـروج مـن الجحيـم الـذي لم يطقـه..

حطـت الباخـرة رحالهـا بـه في الإرجنتـين مـن أمـيركا الجنوبيـة، في السـنة التاسـعة مـن بدايـة القـرن العشريـن. وبعـد عقديـن مـن الزمـن لحقـه أخـوه؛ الأخ الـذي أقسـم قبـل إدارة الظهـر عـلى الضيعة، أنـه سـينسى مسـقط رأسـه وبلـد انتمائـه.. مـع اليمـين المعظّـم.. فعـاش خمسـين سـنة في الإرجنتـين وصـدق بقسـمه، ورحـل دون أي كلمـة مـع أهلـه.. أو رسـالة. وكان إذا سـمع كلمـة في ديـوان عـن الأهـل والبلـد، كان ينسـحب صامتـاً. رحـل بعـد رحيـل جـدي بسـنتين، ولم يكلّـف نفسـه إخبـار إخوتـه الخمسـة وأختـه. لم أدرك حتـى الآن سـبب هـذا الغيـظ المقيـت الـذي أوصلـه إلى هـذا العقـوق.

كان عمـل جـدي موقّتـاً في الغربـة.. لم يقـصّر في إعالـة أسرتـه الصغيرة، مـع دوام التواصـل مـع إخوتـه. عـاش أبي طفولتـه مرفّهـا، وحيـداً مـع أختـه الصغـيرة.. حضنتهـما أمهـما وربتهـما بدمـوع العـين، وبالتحـسّر عـلى شـباب ضـاع، حوّلتـه إلى نَـذرِ النفـس والجسـد لتربيـة الولديـن. بقيـت عـلى هـذه الحـال سـنين طويلـة، طالمـا المـال يأتيهـا مـن

الغربــة.. أرســلت أبي ليتعلــم في مدرســة تقليديــة بعيــدة مبــادئ القــراءة والحســاب.. وكانــت توصــل لــه الــزوّادة مــرة في منتصــف الأسـبوع بمسـيرة نهـار كامـل في الذهـاب والإيـاب، وتـأتي يـوم السـبت كل أسـبوعين لتعيـده إلى المنـزل، ومـن ثـم لترجعـه يـوم الإثنين بمسـيرة تبـدأ بعـد منتصـف الليـل بقليـل.

هــل هــذا كان بتوصيــة مــن جــدي بعــد إدراكــه أهميــة التعلــم والعلــم في بــلاد الغربــة، أم بمبــادرة مــن جــدتي؟؟

لم أدرِ.. ولا خطر ببالي أن أسأل أبي..

أول انقطـاع عـن العـالم الخارجـي كان إبـان الحـرب العالميـة الأولى.. أحسّــت جــدتي بثقــل المســؤولية، بعــد انقطــاع مــا كان يصلهــا مــن جـدي. فاتّكلـت عـلى يديهـا، وأبي لم يكـن قـد تجـاوز السـابعة بعـد. حرصـت عـلى تأمـين كل مـا يلزمـه، إمـا مـن مدخـرات كانت معهـا، أو مـما جنتـه مـن مزروعـات في أرض ورثتهـا بالمرابعـة عـن أهلهـا، ومـن موسـم قليـل مـن القمـح الـذي كانـت تجنيـه مـن القلـع المخصّـص مـع غـيره مـن أرض القريـة لزراعـة الحبـوب. وأكـثر مـا كانـت ترويـه أمـي عـن غنـج أبي ودلالـه، أن حماتهـا، أم أبي، كانـت تعمّـر لـه خيمـة مـن القـش ليقـي نفسـه فيهـا مـن أشـعة الشـمس وحرارتهـا، بينـما هـي تحصـد سـنابل القمـح بيديهـا..

أمـا القطيعـة الثانيـة، فكانـت إبـان الأزمـة الاقتصاديـة العالميـة التـي أودت بـثروة جـدي في الارجنتـين بالتضخـم. فخفّـت مسـاعدته لأسرتـه المسـتأنفة بعـد انتهـاء الحـرب.

لم يعمـل أبي في الفلاحـة ولا في الزراعـة.. تـرك الأمـر لجـدتي، وعملـت أمـي في الخياطـة بمـا تيـسّر مـن المعرفـة.. وانـصرف هـو إلى ممارسـة مهنـة الحلاقـة، مُضافـة إلى المعالجـات الطبيـة الشـعبية، في الأوقـات التــي لا يذهــب إلى الصيــد، أو إلى التفتيــش عــن بندقيــة ســمع بصيتهـا ولـو كلّفـه ذلـك أيامـاً عديـدة. هكـذا قـضى معظـم أيامـه، قبـل أن يبلـغ أخـوتي مرحلـة الفتـوّة ومـن ثـم مرحلـة العمـل اليومـي

لمساعدته في تنشئة أسرة من خمسة أبناء، قبل مجيئي وأخي إلى هذه الدنيا في بداية سنة ونهايتها، في أول الخمسينيات، وبعد انقطاع الخِلفة لست سنوات.

أراح عملُ أخوتي أبي، وخفّف عنه حملاً ثقيلاً ما كان بمقدوره أن يحمله منفرداً، وهو الحرفي الذي يقوم بعمله دون مقابل إلا بما يجود به الأوفياء في نهاية كل موسم.

ومن الفرق بين تلك الأيام وهذه، ما أخبرني به أخي عن تقديم ما جناه طيلة كل أسبوع إلى أبي بالتمام والكمال.. وإذا كان من المبلغ بعض القطع النقدية، كان ينفح أخي ربع أو نصف ليرة، حسب ما هو متوفّر.

أصرّت جدتي على البقاء في منزلنا القديم، ولم تنتقل معنا رغم إصرار أبي وأمي والجيران.. «سأتركه»، قالت، ولحسم الموقف.. «إلى القبر.. لا تتعبوا»..

لم يتعب أهلي.. وقبلوا على مضض.. ولكن مَن تعبَ كان أنا وأخي الصغير.. كان علينا أن نوصل لها طعام الغداء والعشاء يومياً ومداورة بيني وبين أخي.. ويا ويل المتخلف عن الحضور.. واللعب في أوجه إن كان ظهراً أو عشية، ينسينا ليس فقط الأهل والجدة.. بل حتى الطعام نفسه.

في سنتي السابعة تركنا مدرسة أبي والتحقنا بالمدرسة الرسمية التي جاءت إلينا بدل أن نذهب إليها. كان في جعبتنا الإلمام باللغة العربية قراءةً وكتابة، وببعض الحساب في الجمع والطرح. كان ذلك بعد سنة واحدة من انتقالنا إلى بيتنا الجديد..

أحسست بأن أموراً كثيرة تغيّرت، وتتغير بسرعة، لم نعهدها من قبل. الموقع في القرية، رفاق الصف، الجيران الجدد من الأولاد، وما نشأ من علاقات بدأت تنبني على غير ما كان سارياً منها مع الجيران والأقرباء.. بدأت تتناقص هذه لصالح تلك، وخصوصاً

فيـما بـين الأولاد الذيـن جمعتهـم مقاعـد الدراسـة وميادـن اللعـب الجديـدة.

كان السـقف الـذي حمانـا مـن المطـر، فاتحـة عهـد جديـد لعلاقـات وتصـورات، نقلـت حلـم الانتقـال إلى الأمـان مـن المطـر؛ الحلـم الـذي تحقـق، إلى حلـم آخـر يبـدأ بالانجـاز الناجـح اليومـي، ليصـل إلى الامتحـان الـدوري، ومـن ثـم السـنوي.. الحلـم الـذي يحـدّه العـام الـدراسي، ولا شيء بعـده.

لم يظهـر درسي، في بدايـات التحاقـي بالمدرسـة الرسـمية، عـلى مـا يجـب، لا لتقصـير في الذهـن أو لهـروب ، بـل لتقصـير في اسـتيفاء حقـوق الـدرس والمدرسـة.. اللـوازم الضروريـة التـي عليهـا أن تكـون بـين يـديّ، ولا أصـل إليهـا إلا بشـقّ النفـس، المتنـوّر الـذي يمكـن أن يأخـذ بيـدي في عـالم جديـد غريـب عـليّ.. دور لم يلعبـه والـدي، المعلم سـابقاً، الـذي أحـسّ بالغـبن والظلـم لتخلّيـه قـسراً عـن مدرسـته التقليديـة. ومـا لا يمكـن أن أنسـاه في هـذه المرحلـة عجـزي عـن إيجـاد كرتونـة لصنـع علبـة في مـادة الأشـغال، بعـد أن جالـت أمـي عـلى بيـوت الجـيران، ولم تحـظ إلا بواحـدة ممزقـة الزاويـة.. فجـاءت علبتـي عرجـاء، مـع نظـرة شـزرة مـن الأسـتاذ ميشـال، أطـال اللـه بعمـره.

أمـا الحقـد المدفـون الـذي خبأتـه للأسـتاذ ميشـال، دون أن يـدرك ذلـك، فـما عرفـت توصيفـه إلا لحظـة كتابـة هـذه الكلـمات.

طلـب منـا الأسـتاذ أن نكتـب بالأرقـام مـن واحـد إلى ألـف.. وكنـا في الصـف الثـاني. كتبـت مـن الواحـد إلى المئـة في شـكل صحيـح.. أمـا بعـد ذلـك، فأشـكل الأمـر عـليّ. ولم أجـد مـن ينجـدني. فكتبـت 1001، 1002، 1003 إلى الآخـر، وأنـا فـرح بهـذا الإنجـاز. قدمـت الدفـتر إلى الأسـتاذ مـع رفاقـي.. وفي اليـوم التـالي أعـاد الدفاتـر.. وعـلى صفحـة دفـتري علامـة × عـلى امتـداد مسـاحة الصفحـة، بالأحمـر. لم أعـرف معنـى ذلـك، إلا بعـد أن قـال أمـام الجميـع: مـن كان عـلى صفحتـه

هـذه العلامـة، وأشـار بهـا بيديـه، عليـه أن يعيـد الوظيفـة مصحّحـة غـداً. دون أن نعـرف كيـف..

ماء ساخن هبط على رأسي.. كيف لي ذلك.. وبقية الدروس؟؟

لا تـزال هـذه الذكـرى محفـورة في رأسي.. ولـن تـزول.. بقيـت سـاهراً إلى سـاعة متأخـرة، وكان لدينـا ضيـوف.. أكتـب بنعـاس شـديد ولا أدري مـا عـليّ فعلـه.. أنـام وأبـكي بغـزارة، ومـن ثـم أنهـض لأكتـب، ولا أعـرف.. فأعـود للنـوم والبـكاء.. إلى أن خـرج أبي برفقـة الضيـوف مـع لوكـس الـكاز المخصـص لهـم لينـير لهـم الـدرب.. وفي عودتـه فوجـئ بوجـودي سـاهراً.. نهـرني فبكيـت.. سـألني.. قلـت لـه..

– نام، وبكرا بحكي مع الأستاذ.

أحسست بأن حملاً ثقيلاً انزاح عن ظهري.. ونمت.

في اليوم التالي لم يسألني الأستاذ عن الوظيفة..

إنهـا أول وظيفـة لم أكملهـا.. وكانـت الأخـيرة. وأول وسـاطة حظيـت بهـا في حيـاتي المدرسـية.. ولم تتبعهـا وسـاطة أخـرى.. إلا بعـد سـنين..

كنـا نفـرح بالعطلـة الطارئـة، وكأنهـا يـوم عيـد.. والعطلـة الطارئـة تنشـأ عـن عـدم قـدرة الأسـتاذ الطرابلـسي عـلى الحضـور، إمـا لنـدرة المواصـلات، أو للهطـول المـدرار للمطـر.. ولا سـيارة لـدى الأسـتاذ.. ننتظـر وصولـه مـن البيـدر المطـل عـلى الطريـق.. ونصـلّي أن لا تظهـر سـيارة.. أو حتـى إنسـان راجـل.. لنحظـى بيـوم عطلـة.. وكثـيراً مـا كان يتأخـر، فنعـود إلى بيوتنـا، ومـن ثـم نسـمع جـرس المدرسـة، فنعـود إليهـا واجمـين..

كان الصــف الأول يتألــف مــن جميــع التلاميــذ فــوق الخامســة.. وصلـت أعـمار بعـض رفاقـي إلى الثانيـة عـشرة ومـا فـوق. كلنـا في صـف واحـد. والطريـف أن المجلّـين منـا كانـوا دون السـابعة..أما الباقـون فـما كان ثمـة نفـع منهـم. تركـوا المدرسـة باكـراً ورحلـوا.

مـن المهـم هنـا أن أذكـر أن تعلّمنـا مـا كان ليحصـل لـولا المـكان الـذي أمّنـه أبـو جوزيـف منفـرداً بعـد أن تـوانى الكثـيرون عـن دعمـه.. وقـد أصبنـا بالرعـب عندمـا عمـل عـلى إقفـال المدرسـة، لجحـود الأهـالي وإهمالهـم؛ وهـو عـلى عكـس مـا كنـا نتمنـاه بغيـاب الأسـتاذ. وعندمـا عـاد عــن قـراره بتدخـل مــن الأسـتاذ ورجـاء منـه، أصابنـا فـرح عظيـم... لم أدرِ حتـى الآن سـبب التضـارب في هـذه الأفـكار.

لم يطـل حضـور الأسـتاذ ميشـال في مدرسـتنا. وحـل الأسـتاذ يوسـف مكانـه. وهـو المؤسـس الحقيقـي للمدرسـة وموصلهـا إلى أن تنتـج نجاحـاً كامـلاً في كل السـنوات اللاحقـة في الشـهادة الابتدائيـة.. كان ذلـك في بدايـة السـتينيات مـن القـرن المـاضي.

في السـنة التاليـة لنجـاح دفعتنـا الأولى، سـاعدني حسـن حظـي في مواصلـة الـدرس والتحصيـل في المدينـة. أخـي يعمـل ويقطـن فيهـا.. هـذا مـا أتـاح لي الالتحـاق بإحـدى مدارسـها الرسـمية. كان ذلـك في العـام الـدراسي 1962-1963.

كان للسـكن في المدينـة التأثـير الكبـير عـليّ. لم أزرهـا قبـل ذلـك سـوى مـرّات معـدودات عرفـت فيهـا أشـياء لم تخطـر في بـالي قـط.. الأبنيـة الشـاهقة والطـرق الواسـعة والسـيارات الكثـيرة، وعربـات الخيـل السـوداء، ودور السـينما، والمحـلات التـي لا تعـدّ ولا تحـصى، والأنـوار المبهـرة السـاطعة في الليـالي، والجمـوع الغفـيرة مـن النـاس المالئـة لشـارع التـل..

لم يكـن عـلي أن أزور هـذه المنطقـة ليـلاً إلا مـرة واحـدة مسـاء كل خميـس. وغالبـاً مـا كنـت أسـترق سـاعات مـن بقيـة الأيـام، ويـوم الجمعـة عـلى الأخـص، لأتجـول في أسـواق المدينـة القديمـة، فأجعـل مـن الجامـع الكبـير علامـة لتجـوالي، ومـن ثـم عـودتي، لأعـود إلى محـل أخـي عـلى ضفـاف النهـر.

أما يوم السبت، فهو موعد عودتي إلى الضيعة لأعود يوم الإثنين.

لهذه الفترة من دراستي كلام آخر.

2
ضيعتي، العالم كله

استفاقت عيناي على ضيعة مثّلت العالم كلّه في ذهني الصغير.. جبال ثلاثة تحيط بها. ومنفذ واحد يطلّ على مجال فسيح، يشكل البحر فيه اللسان الممتد في مرج أخضر مخضّب بنقاط بيضاء، ومساحات رمادية ما استطاعت التغلب على خضرة محبّبة. بيوت متناثرة كما حبّات اللؤلؤ على بساط أخضر. جبال جرداء تحيط بها تتدرج في العلوّ أوحت لي باليقين أن العالم بأسره مرسوم أمامي ولا وجود لسواه..

لم يتغيّر هذا المنظر الرتيب، إلا بعد أن اصطحبني أخي الأكبر مع ثلة من رفاقه إلى ضهر الإملانة في حفل لرعاية البقر..

في الطريق إلى الجبل الغربي، بدأت معالم عالمي في التغير.. توسّعت آفاق الجبل الشمالي لتظهر دنيا مترامية الأطراف وراءه، بخضرتها وبقعها البيضاء وفسحاتها الرمادية، وظهر أفق جديد على امتداد خط أفقي فصل الأرض عن السماء..

أما البحر، فأكثر ما فاجأني فيه أن لسانه اتخذ منحى أكثر عرضاً وأكثر تعرجاً، عرفت بعد ذلك بسنوات أن ما فاجأني لم يكن سوى خليج عكار والشاطئ الممتد بتعرّجاته شمالاً، وصولاً إلى تراكمات بيضاء مع بعض الألوان الأخرى، عرفت فيما بعد أنها مدينة طرطوس السورية..

لم أدرِ ما أصابني يومها.. هل هو خيبتي من انهيار عالمي الخاص الذي كوّنته بنفسي؟ أم من وُسعِ العالم الجديد الذي لم يعد باستطاعتي الإحاطة به؟ أم الخوف من الجهد المضني الذي

سـأتكبّده لبنـاء عالمـي الجديـد؟؟

سـلكنا طريقـاً وعـرة أوصلتنـا إلى اعتـلاء صهـوة الجبـل الغـربي. تغـيّر المشـهد بمـا يدعـو إلى الدهشـة.. منبسَـط تحـت أنظارنـا يظهـر تمـدّد بلـدة المنيـة بخضرتهـا الكثيفـة المرشوشـة ببيـوت واضحـة الرؤيـة، وشـاطئ بحـر قريـب؛ أقـرب مـما تصـورت سـابقاً، وبحـر اختفـت فيـه التعرّجـات، وامتـد إلى مـا لا نهايـة، إلا ذلـك الأفـق الـذي يضيـع بـين مـاء وسـماء.

عـالم جديـد، لم أدرِ أنـه ممكـن أن يكـون بهـذا الجـمال المفصح عـن روعـة المـكان، ولقـاء البحـر والسـماء. منظـر أخفـى مـا كنـت أراه مـن جبـال.. إلا جبـل الأربعـين شرقـاً.. الواقـف كالحائـط.. موصـلاً الأرض بالفضـاء.

تـرك الفريـق المـواشي لشـأنها ترعـى.. بمـا جـادت بـه الأرض مـن نبـات. انصرفـوا إلى اللعـب عـلى بلاطـة دائريـة فسـيحة ومنحنيـة، بمـا جـادت بـه قرائـح الفتيـان مـن الفنـون. وكان علينـا نحـن الصغـار أن نتفـرّج، إلى أن جـاء دورنـا في المشـاركة.. كان علينـا أن نمتثـل لمـا يريـده الكبـار منـا.. وهـؤلاء كان عليهـم أن يقومـوا بمـا يثبـت وجـود كل منهـم أمـام أقرانـه، ويـدل عـلى قوّتـه.. اللعـب في الـبراري يعطـي امتيـاز التجـلّي لمـن كان الأشـجع والأكـثر قـدرة عـلى التحمـل، ليملـك رأسـماله الرمـزي الـذي عليـه أن يُعـلي شـأنه خـارج إطـار الرعـي وصراعاتـه، وداخـل الضيعـة ليكـون مميـزاً بـين الأقـران وقائـداً لهـم..

كان علينـا، نحـن الصغـار، أن نمتطـي طرّاحـة مـن البـلّان ذي الشـوك الكثيـف، بمسـكة يـد مـن جذوعهـا ممـدودة، يمسـكها فتـى مـن المتبارزيـن، ويجرّهـا في سـباق مـن أعـلى البلاطـة إلى أسـفلها، وسـط صراخ الصغـار، وأنـا منهـم، في رعـب ممـزوج بالفـرح، والألم أحيانـاً، في حـال تزحلـقَ أحدنـا عـن الطراحـة وتدحـرج عـلى طـول

البلاطـة إلى أسـفلها.. يتخلـل هـذه الرحلـة المرعبـة تقريـع المتبارزيـن للراكبـين، منهـم أخـي وأنـا ، لجبننـا وخوفنـا وعرقلتنـا معرفـة الأول مـن المتبارزيـن.. وقـد انتهـت حفلتنـا نحـن بـأن تعـارك أخـي مـع غريمـه وتضاربـا بـلا رحمـة، مـا اسـتدعى بـكائي وصراخـي ليكفّـا.. وكـم دهشـتي كبـيرة عندمـا أنهيـا القتـال وجـاءا لطمأنتـي وللتأكيـد لي عـلى أن ذلـك لا يـزال ضمـن إطـار اللعـب.

علقـت هـذه الرحلـة في ذهنـي، وأحببـت تكرارهـا مـع ثلاثـة مـن رفاقـي، لا يتجـاوز الواحـد منـا السـابعة مـن عمـره. أقـول هـذا، والحادثـة لا تـزال عالقـة في ذاكـرتي وكأنهـا حصلـت البارحـة.. وصلنـا إلى البلاطـة وتدحرجنـا عليهـا.. لعبنـا وفرحنـا.. وإذ بالسـماء تتلبّـد، واللمـع يـبرق.. والرعـد يقصـف.. فآثرنـا السرعـة في العـودة.. والطريـق وعـرة.. وبـدأت تمطـر..

سـبقني رفاقـي.. تهـتُ وأضعـت معـالم الطريـق، وإذ بي بـين صخـور القلـع حيـث يـكاد لا يبـين الـتراب لكثافتهـا.. كان عـليّ أن أرسـم وجهتـي قبالـة الضيعـة.. وأكـثر مـا كان يعيقنـي الحَفـافي العاليـة التـي عـليّ الانحـدار منهـا لألقـى حافـة أخـرى.. ومـا زاد في صعوبـة التيـه، سـقوط الـبرَد عـلى رأسي وجسـدي النحيـل.. انتابنـي الخـوف الشـديد وأجهشـت بالبـكاء وتحـوّل إلى بـكاء عـال وصراخ.. دون أن أتوقـف. تلمّسـت الطريـق بعـد أن بانـت معالمهـا لوسـعها، فنزلـت عـن حائـط يفصلهـا عـما فـوق، مـكانَ وجـودي.. وأول مـا حوّلـت نظـري إلى البعيـد، حظيـت برفاقـي يتلطّـون في مغـارة صغـيرة أعرفُهـا.. فتيقّنـت أننـي وصلـت.. وهـدأ خاطـري..

إلتقـاني رفاقـي وذهبنـا سـوية.. أنّبنـي كبيرنـا لأننـي تأخـرت.. أوصلوني إلى البيـت مبلـل الثيـاب إلى الدرجـة التـي أرعبـت أمـي.. غمَرتنـي وصرخـت.. اسـتجرّ بكاؤهـا بـكائي مـن جديـد.. بعـد أن كانـت الفرحة بالسـلامة قـد جففـت دموعـي، وإن بقـي الـبرد يـأكل مـن جسـدي..

في تلـك اللحظـة أحسسـت بحنـان أمـي ومـدى محبتهـا لي. وتيقّنت أن لا عاطفـة تضاهـي عاطفـة الأم، ولا حـدود لمحبتهـا، ولا يمكـن لإنسـان أن يقيـس المـدى الـذي يمكـن أن يحتـوي حنانهـا.. جردتنـي مـن ثيـابي وألبسـتني غيرهـا.. نيّمتنـي وبالغـت في تغطيتـي.. لا أزال أذكـر تلـك اللحظـة التـي أتاحـت لي معرفـة حقيقـة مـا تكنّـه الأم تجـاه وليدهـا، ومـا يمكـن أن تفعلـه ليكـون عـلى أتـم راحـة واطمئنـان.

علمـت، مـن بعـد، أنهـم مـا تجـرأوا العـودة إلى الضيعـة بـدوني، ليـس محبـة بي.. بـل خوفـاً مـن سـؤال أمـي عنـي، وهـي العارفـة بأننـي رحـت معهـم.. هـذا مـا قالـه أحدهـم لي، عندمـا خـسر الكلـل في لعبـه معـي..

- كنـا لازم نخلّيـك هونيـك ونجـي عالضيعـة.. لنرتـاح منـك.. قـال بلـؤم هـذا الـكلام وراح..

لم أجـب، ولكننـي أحسسـت بكراهيتـه لي، مـن أجـل بضـع كلـل.. مـا كنـت أعـرف معنـى المقاطعـة أو الزعـل.. ولكـن مـا عرفتـه وقتهـا، أن عـليّ عـدم التعاطـي معـه، لا بالـكلام ولا باللعـب.

بعـد أيـام ثلاثـة، جـاء مـن توسّـط للمصالحـة.. جـاء واعتـذر دون أي كلمـة، بـل بقبلـة زرعهـا عـلى خـدي.. وذهـب.

منـذ تلـك اللحظـة، صـار الزعـل دارجـاً بـين الرفـاق.. والمقاطعـة قائمـة لهفـوة صغـيرة يرتكبهـا أحدنـا تجـاه آخـر. وارتحنـا إلى الطقـوس المرافقـة لذلـك، لا لـشيء إلا لأنهـا زادت مـن وسـائل التسـلية التـي تجمعنـا.. المخطـئ يصالـح المتـضرر.. أمـا المتنمّـر فينـا، فـكان يسـتقبل المصالحـات بـدم بـارد، ولا مبـالاة ظاهـرة.. وإن كان هـو المخطـئ.. وأكـثر مـا ظهـر ذلـك في ثلتنـا القائمـة عـلى سـبعة، جوزيـف ونظـير ونقـولا ونسـيب ونبيـه وسـعادة.. وأنـا. عرفـت ظلـم الأقويـاء منـذ تلـك الفـترة، ومـا زلـت أتلمّسـها في مسـالك النـاس وتفاعلهـم في أيامنـا

هـذه، بـل صـارت أملـع وضوحـاً، وأشـد لؤمـاً وأكـثر ضرراً مـن بـراءة مسـالك الأطفـال وطيبتهـم..

كان لنـا في هـاك القاطـع مـكان نلعـب فيـه؛ جـذوع عرائـش أفقيـة وملتويـة، وأشـجار زنزلخـت مزروعـة عـلى امتـداد حافـة عاليـة.. كان فرحنـا لا يوصـف عنـد الوصـول إليهـا، وتسـلّقها والمرجَحَـة عليهـا إلى الدرجـة التـي توصلنـا إلى فـوق الطريـق في مسـافة عاليـة.. المشـهد لا يحتمـل لعـب ثلاثـة أو أربعـة، وإلا عـلى هـؤلاء أن يقتسـموا الأدوار مـع مـن يزيـد.. وهـذا لا يناسـبهم. هنـا، ابتكـر مَـن يملـك الكـرمَ طريقـةً للأبقـاء عـلى الأربعـة، وردعِ الآخريـن.. كيـف؟؟

عندمـا يعـرف الأولاد أن كرهـام ومخاييـل توجهـا إلى الكـرم، وهـما المرصـودان دائمـاً مـن قبلنـا، كنـا نتبعهـما، نحـن السـاكنين في الحـي ذاتـه. نصـل جميعـاً إلى العـين.. نجدهـما عـلى حافـة الـوادي ينتظـران.. نصـل إليهـما، ويصـير العـدد سـتة وأحيانـاً سـبعة وثمانيـة.. يقـول كرهـام:

– بدنـا نكحّـت.. ومـا يعنيـه منْـعَ بعضِنـا مـن الذهـاب معـه، وتحديـد مـن عليـه الذهـاب.. ولا نقـاش في ذلـك لأن الأرض أرضـه، والمراجيـح ملكـه..

– إنـت بـتروح.. وإنـت بترجـع.. وإنـت بكـرا، وإنـت بـتروح، وإنـت بكـرا، مدلـلاً هكـذا عـلى كل واحـد منـا..

يقطـع المسـموح لـه الـوادي والباقـون يعـودون.. مـرة واحـدة منعنـي مـن الذهـاب، لأننـي كنـت مـن المقرّبـين بعامـل الجـيرة، وقرابـة النسـاء.. إذ كنـت الوحيـد مـن عائلـة مغايـرة.. وربمـا لأننـي ابـن صاحـب المدرسـة واليـد البيضـاء عـلى القريـة.. ومـا عرفتـه يومهـا أن مسـألة الانتـماء العائـلي وقرابـة النسـب مـا كانـت لتخطـر عـلى بالنـا.. كانـت الجـيرة هـي المحـدّدة للعلاقـات بـين كبـار الحـارة

وصغارهـا.. وحارتنـا لم تكـن مقتـصرة عـلى انتـماء عائـلي واحـد، مثـل بقيـة الحـارات فيهـا.. مـا تسـبّب بمنعـي حينهـا، أن كسـبتُ الكلـل مـن صاحـب الحـل والربـط في هـذه المسـألة، قبـل ظهـر ذلـك اليـوم.. ولم يكـن معـه مـا يمكـن أن يعـوّض مـن الفرنـكات. فانتقـم منـي، وأحسسـت بوجـع الانتقـام.

كانـت هـذه الرحلـة مـدار تسـليتنا اليوميـة، بالاضافـة إلى لعـب الكلـل، قبـل مجـيء المدرسـة الرسـمية. وفي مجيئهـا انفـرط العقـد ليبـدأ عقـد جديـد مـع رفـاق جـدد حفّـزني اجتهادهـم وحبّهـم للعلـم أن أكـون واحـداً منهـم، متجـاوزاً مـن جديـد انتـمائي العائـلي البـارد والمتوتـر، إمـا لعـدم وجـود مـن يقربنـي في العمـر لأن لا أعـمام لي، ومـن كان منهـم كان بعيـداً عـن حـارتي، وإن ضمّنـي صـفٌّ مـع واحـد منهـم يكـبرني بخمـس أو سـت سـنوات.

نسـجت المدرسـة الجديـدة علاقـات قائمـة عـلى رفقـة الصـف، ومـدى جدّيـة الاهتـمام بالـدرس والنجـاح. كان هـؤلاء قـدوة لي ومثـالاً لقدرتهـم عـلى الإتيـان بـكل مـا يلـزم المدرسـة مـن أدوات ولـوازم، مقابـل الشـح الكبـير في امتـلاك هـذه الأدوات مـن ناحيتـي، ومـا يمكـن أن تقدمـه في تلبيـة الواجبـات المدرسـية، وتعزيـز الثقـة بالنفـس.

هـذان العامـلان جعـلاني في موقـع الضعيـف تجـاه هـؤلاء، والعمـل عـلى التمثـل بهـم ومجاراتهـم في كل شيء. ومـن ذلـك، الـدرس وكتابـة الوظيفـة والاهتـمام بالنجـاح والعمـل للترفـع إلى الصـف الأعـلى. مـن هنـا، ترسّـخت مقولتـي حـول اعتبـار اللحظـة الحلـم الـذي عليـه أن يتحقـق بالعمـل والمثابـرة، واعتبـار الغـد يومـاً آخـر.. مقولـة لا أزال أمارسـها إلى يومنـا هـذا.

هـذا التوجـه حفّـزني عـلى نسـج علاقـات جديـدة مـع رفـاق جـدد، مـا كنـت عـلى تمـاس مبـاشر معهـم.. وأبعـدني عـن آخريـن كنـت عـلى

أوثـق صلـة بهـم.. مـا زاد مـن ذلـك، أن هـؤلاء لم يأخـذوا العلـم والمدرسـة عـلى محمـل الجـد، فرسـب منهـم كثـيرون وتخلفـوا عـن اللحـاق بنـا، وتـرك بعضهـم المدرسـة.. إمـا لكـبر سـنهم، أو لعـدم قدرتهـم عـلى التكيّـف مـع التحصيـل العلمـي.. وبقـي في الأخـير مـن يتـلاءم سـنّه مـع صفـه.. وتعـدّدت صفـوف المدرسـة بزيـادة أعـداد المعلمـين الملتحقـين بهـا.

اسـتأنفت حيـاة اللعـب واللهـو مـع رفـاق جـدد أوجدتـه مقاعـد الدراسـة.. لم تختلـف وسـائل اللعـب عـما اعتدنـا عليـه مـن قبـل، بـل زادت أصنافهـا وفنـون ممارسـتها.. بالاضافـة إلى لعـب الكلّـة، تطـورت لعبتنـا في تسـيير العربـات المصنوعـة مـن شرائـط الحديـد والالمنيـوم المقـوى.. كان شـيخ هـذه اللعبـة رفيقنـا المقعـد الـذي لم يحـظ بمقعـد مـدرسي. كان أذكانـا في لعـب الضامـة وفي صنـع السـيارات ذات المقـود المتحـرك. يرسـم عـلى الأرض الباطونيـة الملسـاء بالطبشـور المسـتحضر مـن المدرسـة، طريقـاً ضيقـاً متعرجـاً، وعـلى الواحـد منـا أن يعـود إلى الخلـف بالسـيارة دون ملامسـة أي مـن الخطـين المتعرجـين.. مـن ينجـح لـه حبتـا معلـل، ومـن يرسـب يدفـع حبتـين. وإذا زاد الربـح عـلى الخسـارة يدفـع الفـارق مـن كيسـه.. والـده صاحـب الـدكان.. ولكنـه نـادراً مـا كان يدفـع.. أمـا لعـب الكلـة فقـد اشـتهرت في هـذه المرحلـة، وصـارت الكلـل أكـثر نضـارة ولمعانـاً.. أمـا اللعبـة الجديـدة علينـا، فكانـت الجاعـور.. كتلـة خشـبية عـلى شـكل هـرم بقاعـدة مسـتديرة في رأسـه مسـمار رفيـع الـرأس يحـاط بخيـط ويرمـى بقـوة عـلى الأرض ليـدور بسرعـة عـلى نفسـه مـع صـوت عنـين قـوي.. أحـضره أحدهـم مـن المدينـة لأخيـه الصغـير ليتشـوّف علينـا، وليصـير حلـم كل واحـد منـا أن يمتلـك مثلـه، لتـدور اللعبـة حـول مـن يبقـى جاعـوره صامـداً بعـد أن تتوقـف كل الجواعـير.

كانـت البيـادر مسرحـاً واسـعاً لألعابنـا.. فيهـا ننصـب حجـر السـبركة

وننقسـم إلى فريقـين، عـلى واحـد أن يحمـي الحجـر في الوسـط، وعـلى الآخـر لمسـه بقـدم أحـد أفـراده ليفـوز.. في هـذه اللعبـة، المقاطعـة أي المـرور بـين رفيقـين بنجـاح يحتـم عـلى أحدهـما الخـروج مـن اللعـب، إلى أن يتـم احتـلال حجـر السـبركة.. لعبـة القبـة الحاميـة وهـي أن يكـون اثنـان مترابطـين بأيديهـما فينجـح أحدهـم مـن الفريـق الثـاني باعتـلاء ظهـر أحدهـما إلى أن يسـقط عنـه، فيخسـر إذا لمسـه أحـد مـن الفريـق المركـوب. أمـا لعبـة القامـوع فهـي تعمـير عـدة أحجـار عـلى شـكل قامـوع في كل جهـة، عـلى عـدد اللاعبـين ومـن يهـدم آخـر قامـوع للآخـر يفـوز. أمـا لعبـة الشرشـار فهـي القفـز فـوق ظهـور قافلـة مـن المشـاركين ومـن ثـم الوقـوف للقفـز فـوق ظهـر القافزيـن، وفي كل مرحلـة تعلـو قامـة المشـاركين للوصـول إلى القفـز فـوق الاجسـام المسـتقيمة.. ألعـاب مـع غيرهـا أدخلناهـا إلى حصـة الرياضـة أمـام أنظـار الأسـتاذ - وهـو ابـن مدينـة - ودهشـته..

قبـل ثـورة الخمسـينيات بسـنة أو يزيـد، أدخـل أبـو جوزيـف، المتنـوّر بالسـليقة والمتأثـر بمشـاهد المدينـة، المدرسـة إلى الضيعـة بعـد تأمـين البنـاء، والتـماس معلّـم لهـا مـن الدوائـر المختصـة.. وهـو أول مـن أدخـل الراديـو إلى الضيعـة في هـذه الفـترة، وأول مـن أطلـق اسـماً متفرنجـاً عـلى ابنـه البكـر جوزيـف بـدلاً مـن يوسـف. تبعـه أبي في مـا يخـص الراديـو، فـكان الثـاني في بيتنـا الجديـد.. وكان البيتـان محـطّ تجمّـع أهـل الجـيرة، مـع الأبعـد، للاسـتماع إلى الأصـوات العاديـة والمنغّمـة مـع الموسـيقى الصـادرة مـن هـذا الصنـدوق السـحري.. وكـم كنـا نضحـك عندمـا نتذكـر جارتنـا المسـنّة عندمـا أطلّـت عـلى مـا وراء هـذا الصنـدوق لـترى إذا كان ثمـة مـن هـو مختبـئ هنـاك..

أمـا في التسـمية، فقـد خالفـه أبي في ذلـك، ربمـا لنفـوره مـن كل مـا هـو أجنبـي بعـد أن تركـه أبـوه مـع أمـه وأختـه، وارتمـى في أحضـان الغربـة. سـمّى أبي أبنـاءه الذكـور بأسـماء عربية صرف تـدل على تعمّق

في فهم هذه اللغة الجميلة، بالاضافة إلى اسم بنت من الاثنتين، ولم يشذّ عن هذه القاعدة إلا بتسمية ابنته البكر؛ وقد تزامنت هذه التسمية مع بداية مقاطعة حياتية مع أبيه المغترب، بعد رفض الاستجابة لمطلبه بشدّ الرحال مع أمه وأخته إلى الإرجنتين. كان ذلك في منتصف الثلاثينيات.. ولم يستأنف جدي الاتصال إلا بعد ثلاثة عقود، وبعد وفاة جدتي بثلاث سنوات، طالباً تحرير وثيقة تَنازلٍ عن حقوقهم الإرثية حسب نص مكتوب في الرسالة، على أن تكون ممهورة بخاتم وتوقيع الكاتب العدل، لينصرف إلى تسوية أوضاعه هناك مع أسرته الجديدة.

قرأ أبي الرسالة، وكأنها آتية من شخص غريب.. لم يظهر عليه أي شيء يدل على انفعال، أو تأثر أو حتى هزة رأس.. كان في مغلف الرسالة ورقة أخرى تبيّن أنها حوالة مصرفية على بنك سورية ولبنان بقيمة عشرة آلاف ريال تكاليف الوثيقة.. مبلغ ضخم ارتسم في مخيلتي، وإذا به بعد صرفه لا يتجاوز المئتين وست ليرات لبنانية، أكثر من الحد الأدنى للأجور بقليل في ذلك الحين.

قرر أبي تنفيذ طلبه بعد أن استشار عمتي والأستاذ يوسف، أستاذنا في المدرسة، وأبدَيا الموافقة.. في تلك اللحظة، أحسست أنني كبرت بعد أن قال لي أبي عشنا هذه الفترة الطويلة دون أن نكون بحاجة إليه، وسنبقى. ليفعل ما يشاء، وعليك أن تقوم بالمهمة.. كان عمري وقتها ثلاث عشرة سنة. وكان عليّ أن أحرّر الوثيقة لدى الكاتب العدل ومن ثم تسليمها مترجمة ومصدقة إلى السفارة الإرجنتينية في بيروت.. وهكذا كان..

كانت المرة الثانية التي أزور فيها بيروت.. وقد أرشدني سائق الباص إلى المكان الذي عليّ أن أنتقل منه إلى السفارة، قائلاً لي:

– قل للسائق أن ينزلك أمام المحكمة العسكرية، والسفارة بجانبها.

وصلت وأتممت المهمة.

كانت المرة الأولى برفقة أخي محرز العامل في شركة كهرباء البارد، مركزها الرئيسي بجانب مرفأ بيروت.. خرجنا من الباص وأنا ممسك بيد أخي وتوجهنا نزولاً إلى المبنى.. إنه البحر والبواخر والآلات العجيبة الغريبة التي لم أرها في حياتي، وكنت حينها في الثامنة.. وصلنا إلى مدخل بناء ضخم.. أدخلنا رجل بلباس غريب إلى غرفة صغيرة كادت لا تسعنا.. خفت وتمسكت بأخي.. ربّت على ظهري وهو يهز رأسه.. شعرت باهتزاز خفيف.. خفت أكثر وزاد تمسّكي، مع ضغط من يد أخي على كتفي. وإذا برجة خفيفة مع اختفاء الهزة. فتح الرجل الباب وخرجنا.. أحسست وكأنني خرجت من بطن الحوت.. القصة التي طالما سمعتها في احتفال القداس يوم الأحد. لم أعرف ما حصل.. إلا بعد خروجنا من الغرفة التي انتظرت فيها أخي..

لم يتوقّف أخي بل دلفَ مباشرة إلى درج لم أره من قبل ولا خطر في بالي وجوده.. تمسّكت بيد أخي وأنا ألفّ معه درجاً ثم درج، لألف من جديد درجاً ثم درج..

يا إلهي ما هذا؟؟ من أين جاءت هذه الأدراج جميعها؟؟ أين كانت عندما دخلنا هذه الغرفة.. هل هذا سحر المدينة وسرّ من أسرارها؟؟

لم أتفوّه بكلمة واحدة إلى أن وصلنا إلى المكان الذي دخلنا منه الغرفة الصغيرة المهزوزة. حينها سألته:

- وين كنا ووين صرنا، وشو عملنا؟؟

- طلعنا بالأسانسير عالطابق السابع ونزلنا مشي..! في تلك اللحظة تعرّفت على المصعد الكهربائي.

أما الحنفيّة فلها شأن آخر، وقصة أخرى حريّ بي أن أذكرها هنا.

علّق أبي برميلاً بحنفية ملتصقة به، بعمود أنشأه خصيصاً لهذه الغاية، مع وعاء للصابونة، في زاوية على طرف الليوان، لنغسل بوساطته أيدينا ووجوهنا كل صباح، وبعد تناول الطعام.. وكان علينا أن نغسل وجوهنا بالماء البارد ولو في عز الشتاء. إذا فرغ البرميل علينا أن نملأه من جديد.. لم أتعرف على طريقة أخرى إلا عندما دخلت إلى غرفة العمال في سدّ النهر البارد، مكان عمل أخي.. وأكثر ما فاجأني بعد رؤية بحيرة السد، الحنفية الفضية اللماعة الملتصقة بحائط ذي بلاط أبيض.. لماذا هي هنا؟؟ أين البرميل الملتصقة به؟؟ أمام دهشتي هذه، التي ربما لاحظها أخي، امتدت يده إلى الحنفية وفتحها، كما نفعل في بيتنا، فإذا الماء يجري كما يجري عندنا.. يا سبحان الله.. بدون برميل تجري المياه من الحائط.. عرفت، من بعد، كيف تجري المياه في المطابخ والحمّامات..

على سيرة الحمّام.. لم أكره بحياتي شيئاً أكثر من الاستحمام.. ولا يزال هذا الشعور يمتلكني إلى اليوم، باعتباره ذكرى أستحضرها لحظة دخولي للإستحمام، وتضمحلّ عندما يبدأ الماء بالتساقط على رأسي بعد تحديد معيار سخونته، دون أي شعور بالبرد والقشعريرة الدائمة التي كانت تصيبني في صغري.

كان علينا الاستحمام، أنا وأخي، بالقوة الجبرية، في زاوية أوسع غرفة لدينا، ونحن نجلس على مقعد خشبي صغير في عز البرد.. تقوم أمي بكل ما لديها من قوة في فرك رأسينا بالماء القريب من الغليان مع الصابون البلدي الذي كان يلهب عيوننا، مع رجفان جسمينا وتململهما من البرد تارة، ومن الماء الساخن جداً، تارة أخرى، وكأننا نلعب دور الانفصام في فترات جد متقاربة.. لم يكن هذا كل ما تفعله عملية الاستحمام تلك، يزاد

عليهـا الكـم الهائـل مـن الفـرك الـذي يوصـل جسـدينا إلى حافـة الاحمـرار الـذي لا ينقصـه إلا قشـط الجلـد عـن اللحـم؛ كل ذلـك والجسـم يبقـى في ارتجافـه المعهـود وفي الاهتـزاز الـذي لا يثبـت عـلى حـال.. ويـزداد عنـد أحدنـا عندمـا ينتقـل دلـق المـاء عـلى الآخـر. ويبقـى الكابـوس ضاغطـاً عـلى أنفاسـنا إلى اللحظـة السـعيدة التـي نسـمع فيهـا أمـي تقـول: خلصنـا.. نعيـماً.. كانـت هاتـان الكلمتـان أجمـل مـا كنـا نسـمعه لفـترة طويلـة.. وبقيـت أردّدهـما لنفـسي بعـد انتهـاء الاسـتحمام، وأحيانـاً بصـوت مسـموع.. هـل يمكـن بعـد هـذه المعانـاة، أن يحـبّ أحدنـا الاسـتحمام ولـو في أجمـل قصـور الدنيـاً..؟؟ غالبـاً مـا كنـت أردّد عنـد ذكـر الحـمام، أنـه شرّ لا بـدّ منـه.. وهـو حـق كالمـوت، ومـا علينـا إلا التـلاؤم والتكيّـف مـع ضرورة وجـوده.

لم أعـرف مـا يعنيـه الصـدق والكـذب إلا بعـد مـرور تجربتـين عـليّ.. تعلمـت منهـما درسـاً لا أزال أدفـع ثمنـه إلى اليـوم.. في التجربـة الأولى، مـا كنـت أعـرف أن أبي يمكـن أن يخلـف في وعـده.. طلبـت منـه مـرة، وكان في لحظـة تجـلّ أن يجلـب لي كمشـة مـن الكلـل مـن المدينـة عنـد زيارتـه لهـا في اليـوم التـالي.. وعـدني بإحضارهـا.. وعنـد عودتـه طالبتـه بمـا وعـد.. أدخـل يـده في جيبـة وأخـرج خرطوشـة صيـد، وقـال:

– لقد جلبت لك بارودة..

للمـرة الأولى لم أصـدق مـا كان يقولـه أبي.. البندقيـة غـير الخرطوشـة، وليسـت لي لا هـي ولا الخرطوشـة.. ومـا هـو لي لم يـأت بـه.. بكيـت وانتحيـت جانبـاً.. إلى أن جـاءت أمـي تواسـيني وتقـول:

– راح أبوك يجيب بارودة عجبته، مانو فاضي لكللك..

منـذ تلـك اللحظـة عرفـت بالتجربـة مـاذا يعنـي الكـذب أو عـلى الأقـل، عـدم الإيفـاء بالوعـد..

في التجربـة الثانيـة، وفي سـاعة الرياضـة، وَعَدنـا الأسـتاذ أن يجلـب معـه في اليـوم التـالي كـرة قـدم لنتعلـم اللعبـة.. وكان يـوم خميـس.. وصـدف أن نزلـت يـوم الجمعـة إلى المدينـة لزيـارة أخـي والتفـرج عليهـا.. وعـادة مـا كان الأسـتاذ يبيـت عنـد إخوتـه تلـك الليلـة في المدينـة.. عنـد العـودة، سـألني رفاقـي عـما شـاهدت وفعلـت.. مـن أجـل إبهارهـم، والتشـوّف عليهـم، قلـت إننـي رأيـت الأسـتاذ في محـل أخـي ومعـه الكـرة الموعـودة، متخيـلاً أن مـن المسـتحيل أن يخلـف الأسـتاذ في وعـده. حـضر الأسـتاذ يـوم السـبت إلى المدرسـة، ولا كـرة معـه.. خلـف بوعـده، ولازمتنـي وصمـةُ الكـذب. ناضلـت طويـلاً، بالمثابـرة وقـول الصـدق، حتـى أزلتهـا مـن جمـوع صفـاتي الأخـرى..

كان تفلّتـي مـن ربـاط العائلـة، أنـا وأبي وإخـوتي، أن أعـوّض عـن ذلـك بمـا يجعلنـي مقبـولاً بـين رفاقـي، ومزيـلاً عنـي صفـة الغريـب.. مـا وجـدت للتغلـب عـلى ذلـك إلا الـدرس ومواصفـات الطيبـة والاندفـاع والاهتـمام بـرأي النـاس بمـا أقـول وأفعـل.. صرت محبوبـاً ومقبـولاً مـن الجميـع، مـع بُعـد ملحـوظ عـن عائلتـي الكـبرى.. سـاهم في ذلـك قرابتـي للعائلتـين الكبريـين في القريـة، العائلـة التـي جـاءت منهـا أمـي بالـزواج، والعائلـة التـي ذهبـت إليهـا عمتـي بالـزواج أيضـاً وكذلـك أختـي.. هـذا كل مـا كان لـدي لأبنـي علاقـاتي القرابيـة. كل رفاقـي في المرحلتـين، قبـل المدرسـة وبعدهـا، مـن هاتـين العائلتـين.. حتـى وصـل الأمـر إلى اعتبـاري مـن هـذه العائلـة أو تلـك.. لوحدانيـة الانتـماء المبـاشر لأبي، ولتعلّقـه بأختـه، ولتوتّـر العلاقـات الدائـم مـع أعمامـه..

علاقـاتي هـذه، كانـت المدمـاك الأول الـذي بنيتـه في نشـأتي العلمانيـة، أكملتهـا وأنضجتهـا في المراحـل اللاحقـة مـن التعليـم، إن كان في المراحـل المتوسـطة أو الثانويـة أو الجامعيـة، وفي علاقـاتي المجتمعيـة اللاحقـة. إلا أن مـا يجيـش في الصـدر لا يبتعـد كثـيراً عـن المـرارة مـن نظـرة النـاس.. فـلا يخطـر في بالهـم إلا مـا يعنيـه الانتـماء، فـإذا لم

يكـن تعصّبـك إلى هـذه العائلـة، فأنـت لا أصـل لـك وكأنـك صعلـوك في أفضـل الأحـوال. وفي أسـوئها، أنـك إذا لم تكـن مـن هـذه العائلـة، فحتـماً عليـك أن تكـون مـن تلـك.. وإذا لم تكـن مـن هـذه الطائفـة، فأنـت ملحـد، أو تكـون مـن تلـك.. وفي مطلـق الأحـوال تُعامَـل عـلى أنـك مـن الطائفـة ويُنظـر إليـك عـلى هـذا الأسـاس، وإن كنـتَ تضـع انتـماءك في خانـة الانتـماء الخـاص والشـخصي. لذلـك لا يُنظـر إلى انتمائـك المجتمعـي الجامـع المانـع للنـاس جميعـاً بـصرف النظـر عـن أي انتـماء أهـلي، عائليـاً كان أو دينيـاً أو طائفيـاً.. لقصـور في النظـر، مـن ناحيـة؛ ولتغلّـب الانتـماء الأولي للإنسـان عـلى أي انتـماء مصنـوع للعيـش في المجـال العـام..

أقـول هـذا الـكلام الآن محلـلاً في شيء مـن العمـق والوعـي، مـا كنـت أحـس بـه، وأنـا في طـور النشـوء، دون أن أعـرف كيفيـة تحليلـه وتفسـيره.. وتحـضرني الآن هـذه القصـة التـي تلخّـص في شيء مـن الطرافـة هـذا الموقـف النفـسي الـذي حاولـت أن أبيّنـه.

تقـول القصـة إن أحدهـم عـاش في جـو مـن الكآبـة والخـوف والاضطـراب، عجـز الأطبـاء عـن معالجتـه، إلى أن دلّـه أحدهـم إلى طبيـب نفـسي معـروف.. خـاف الرجـل وقـال لمـن أرشـده، أنـا لسـت مجنونـاً يـا حكيـم.. أنـا في تمـام الصحـة النفسـية والعقليـة يـا حكيـم..

بعـد طـول تـردّد وزيـادة سـوء صحتـه قـرّر الذهـاب، وعنـد مقابلتـه، سـأله الطبيـب:

– بمَ تحس؟ إحك لي وخذ راحتك..

– أشـعر بالخـوف الدائـم والاضطـراب، ومسـكون بفكـرة أن ثمـة مـن يريـد قتـلي..

– كيف يظهر عندك هذا الشعور؟؟ وبم تشعر به فعلاً؟؟

- أحس يا حكيم في أوقات كثيرة أنني دجاجة، وكثيرون هاجمون علي بسكاكينهم ليذبحوني..

- هذه مسألة من السهل حلّها.. قال الطبيب، وأردف، أنت رجل كامل الرجولة وعقلك راجح ولا ينقصك شيء إلا القليل من الثقة بنفسك، وما عليك إلا أن تُظهر ذلك للجميع وتعاملهم على هذا الأساس..

- شكراً يا حكيم..

وبعد جلسات متعددة، أعاد الرجل شيئاً من الثقة بنفسه، حتى اقتنع أنه رجل كامل الرجولة ولا ينقصه شيء لإثبات ذلك.. شكر الطبيب للمرة الأخيرة، وخرج من العيادة فرحاً بشفائه..

بعد لحظات، عاد الرجل إلى الطبيب مملوءاً خوفاً، وقال له:

- لقد اقتنعت تماماً بمعالجتك لي وشفيت من مرضي، ولكن ماذا أفعل أمام الذين ما زالوا يعتبرونني دجاجة من الواجب ذبحها..

- ما عليك إلا أن تناضل لتثبت أهليتك ورجولتك، ولا تخف من أحد.. ليذهبوا إلى الجحيم..

هذه هي حالنا مع مجتمعنا الذي لا يقيم وزناً إلا لذوي الانتماءات الأهلية.. هي وحدها صاحبة القول والفصل في مجتمع يقوم على تعدّد الانتماءات كما تعدد المذاهب.. ومن يعمل خارج هذا الإطار له مجد العمل، وفخر التحول من هذه الانتماءات إلى انتماء جامع لكل الناس، والنظر إلى كل الناس بالمنظار الواحد الأحد، منظار الانتماء إلى الوطن، مهما كان شكله ومهما كانت هويته، لأنه وحده الضامن لوحدة المجتمع والعامل على المساواة بين أبنائه، بصرف النظر عن أي انتماء آخر دون

إبعـاد أو تنكّـر أو إلغـاء.

طبعـاً هـذا الـكلام لم يقلـه ابـن الثـماني سـنوات، بـل ابـن السـبعين ليدلّـل عـلى أن مـا قالـه هـذا، انوجَـد في سـلوك ذاك، وفي نشـأته التـي لم تعـرف معنـى تعصّـب الانتـماء، عـلى أي وجـه كان، منـذ بـداءة تفتحـه عـلى هـذه الدنيـا.. حصـادُ هـذا، كان مـن زرعٍ في ذهـن ذاك، بالرعايـة اللازمـة والتربيـة والنشـأة، خـارج الإطـار الضيـق للعائلـة أو الطائفـة أو الديـن.

3

ما يحبّه أبي.. وأنا

في بدايات حياته، عاش أبي مرفّهاً ومغنّجاً مع أخته الصغيرة وأمه.. ما كان يحتاج إلى شيء إلا ويحضر، بدعم مباشر من الأب المهاجر، والأم التي رفضت حرمانه من أي شيء. لم يحس أنه بحاجة إلى العمل إن كان في الزراعة أو غيرها.. جرفه حب الصيد وبواريد الصيد، قبل أن يصير حلاقاً معتبراً على مقاييس ذلك الزمان.. وقد عشت في المَحلقَة طفولتي البكر، وتركت على جبيني جرحاً بليغاً ما زال ماثلاً إلى اليوم أمام عيني وعيون من عرفوني، وسيذهب معي إلى هناك. كل ما في الأمر أني تعمشقتُ بقوس الكرسي المعدني، فانقلبت عليّ وانغرز في جبيني إلى الدرجة التي كادت توصلني إلى الموت، والرب ستر.

لشدة هوس أبي ببواريد الصيد، ظل يتابع بارودة ونشستر أميركية آلية ذات الخرطوشات الخمس، صنع 1902، ويتتبّع أحوالها وانتقالها من يد إلى يد سبعاً وعشرين سنة، إلى أن حظي بها. وهي لا تزال في بيت أخي الكبير حتى اليوم.. وبقي إلى أواخر أيامه يعتزّ بما عنده، باعتبارها الثانية في لبنان بعد بندقية الرئيس شمعون.. وكان من يسمعه يصدقه، لأن كل من كان في جيله يدرك أنه اصطاد في سهل عكار برفقة كميل شمعون عندما كان رئيساً للجمهورية وسليمان العلي وصديقه محمد الشيخ أكثر من مرة..

لم يكن الصيد والعلاج الشعبي والحلاقة هواياته الوحيدة.. التفنن في تحضير الطعام والقهوة من جملة ما يهوى.. وقد علّمني كيفية صنع القهوة وأنا في السابعة.. وكل ما كان يشغلني

لحظـة تـذوّق القهـوة لأعـرف إن حـازت عـلى رضـاه أم لا.. هــزة الـرأس ولـوي الشـفتين دليـلا الإعجـاب، والنظـرة الشـزرة مـن تحـت إلى فـوق دليـل عـدم الـرضى.. فأقـف بوجـل ظاهـر لأعـرف منـه مـا عـليّ فعلـه.. ويكـون الطلـب عـادة إمـا زيـادة ملعقـة بـن أو نصفهـا دون أن يـأتي عـلى ذكـر السـكر..

أمـا أكلتـه المفضلـة فكانـت الحمّـص بالطحينـة التـي يتابـع تحضيرهـا بسـلق الحمّـص دون الكربونـات عـلى نـار هادئـة ولـو أخـذت نصـف نهـار، ثـم دقّهـا وتحضيرهـا بإضافـة الطحينـة بمـا لا يغلـب عـلى طعـم الحمـص، ثـم الزيـت لنـا ولـه، والفلفـل الحـار الأحمـر لـه وحـده.. وكلـوا يـا أولاد.. أمـا الأكلـة الثانيـة، فكنـا نعرفهـا باسـم بابـا غنّـوج.. باذنجـان مشـوي ومفـروك ومخلـوط باللـبن مـن بقرتنـا، والزبـدة المحمّـرة مـن لبننـا يرشّـها عليهـا، وصحتـين يـا أولاد.. كان يتلـذّذ بمنظرنـا ونحـن نـأكل بشـهية.. وغالبـاً مـا تكـون الوليمـة مقتـصرة علينـا نحـن الأربعـة بغيـاب أخـوتي العاملـين في الخـارج، وأختـيّ بالـزواج.

أمـا الأكلـة المفضلـة لديـه التـي ينفـرد في تناولهـا، فهـي البيضـات الثـلاث المقليّـة في الفخّـارة، مضافـاً إليهـا الحامـض، مـع كأس العـرق والبصلـة المصلّبـة في تقطيعهـا.. كان علينـا أن ننظـر إليـه ونتلمّـظ مـع الدعـاء بـأن يبقـي لنـا شـيئاً منهـا.. وغالبـاً مـا كان يـترك شـيئاً مفتتـاً ومصفـرّاً في بحـيرة صغـيرة مـن الزيـت.. تقـوم أمـي لتزيـد شـيئاً لتقـلي لنـا بيضتـين أنـا وأخـي في لفّتـين برغيفـين.. فنشـبع ونحـسّ بـأن التلمـظ عـلى مـا فـات كان أطيـب مـما أكلنـا. هـذه الأكلات الثـلاث، والبيـض بالفخـارة منهـا، أطيـب مـا أكلـت وآكل.. ولا أزال حتـى اليـوم أفتـش عـن مقـلاة بعدمـا رحلـت مقـلاتي ولا أجـد.. مـا ردني إلى هـذه الذكـرى قبـل أن أدوّنهـا، طلبُنـا غداءنـا في مطعـم بكاسـيني قـرب جزيـن، ومنـه البيـض بالفخـارة.. اسـتعدت الطعـم القديـم، وطلبـت

مــن النــادل أن يعطينــا الفخّــارة، ويــدوّن ثمنهــا مهــما كان. إلا أن المعلـم اعتـذر لأن لا فخـارات تكفـي في المطعـم.. وأنـا لا أزال أتنعّـم بالبيـض بالفخـارة عنـد حـماتي إمتثـال، أطـال اللـه بعمرهـا، أطلبهـا فتحـضر عـلى يـد وفـاء أو جميلـة، ولـو كان عـلى المائـدة كل أطايـب الدنيـا.. مـع كأس عـرق أبي نعيـم والكـولا لنـزار لأنـه صغـير البيـت، والعـرق كثـير عليـه، إلا في حـالات نـادرة. هـل تفضيـل البيـض عـلى أي شيء آخـر لأننـي أحبـه بالفخّـارة مقليـاً، أم لأن أبي حرمنـي مـن التلـذذ معــه في تناولــه، فأســتعيض عــن ذلــك بتلــذذي في مــا أقــدر عليــه اليـوم؟؟ لا أدري، ولكنـي أحبـه في كل الأحـوال. وكثـيراً مـا كنـت أتنـدّر في أيـام مراهقتـي بقـولي إن مـن تجليّـات رحمـة اللـه خلقـه للبيـض المقـلي.. وأم كلثـوم.

أمـا أمـي، فكانـت تتفنّـن في تحضـير أكلات بعينهـا، لا يـزال طعمهـا في فمـي إلى اليـوم، اللوبيـاء بالزيـت في قِـدر مـن الفخـار عـلى نـار هادئـة، غالبـاً مـا كان يتناولهـا أخـي الأكـبر أبو جهـاد من القلبـة الأولى ولمـا تـزل أقـرب إلى الخَضـار.. والأكلـة الثانيـة البـو شوشـة، أو البـو زميـط، وهـي أكلـة مشـهورة في المنيـة، مـن زرعِهـا إلى طبخهـا بالبصـل الكثـير والزيـت الأكـثر، أو المهروسـة بالطحينـة والزيـت.. وقـد أبدعـت أمــي في تحضيرهــما، بالإضافــة إلى كبيــس الباذنجــان بــورق العنــب والحشـوة المشـكّلة مـن مـواد مختلفـة، منهـا حـب الرمـان والفليفلـة الخـضراء والحمـراء. وقـد ذكّـرني بهـا أخـي نافـذ قبـل التدويـن هنـا بأشـهُر. أمـا في حـالات التنعّـم، فكنـا نحظـى بالسـمك والطيـور مـن الحجـل إلى الفـرّي والسـمّن.. أبي لم يهتـم بصيـد العصافـير، فقـط لأن ذلـك حـرام، ولم يقـتن بـارودة صيـد العصافـير.. أمـا اللحـم فقليـلاً مـا كان يدخـل بيتنـا، إلا مـرة في الأسـبوع، وأحيانـاً في الأسـبوعين.. ربمـا لضيــق ذات اليــد، أو لأن والــدي كان يعــوّض علينــا ذلــك بمــا كان يصيـده في النهـر والـبر..

مـن جهتـي، لم آكل اللحـم، عـلى تنـوّع تحضـيره، إلا بعـد أن قفـزت فـوق العشريـن. ولا أزال حتـى اليـوم لا آكل الجـبن بمختلـف أنواعـه، وأتذكّـر طعمـه مـن سـن السادسـة. صنعـت أمـي الجـبن، في أحـد تلـك الأيـام، وكانـت صناعتـه معروفـة في القـرى.. أكلنـا منـه كلنـا.. كانـت المجبنـة سـامة لخلـل في الصنـع.. تسـمّم الجميـع في البيـت وأصابهـم الإسـهال الشـديد والمغـص المعـوي.. إلا أنـا. ومنـذ تلـك اللحظـة لم أتـذوّق الجبنـة بـكل أنواعهـا وأشـكالها حتـى اليـوم.. لا أدري لمـاذا.. ربمـا لأنني نجـوت مـن التسـمّم، والمـرة المقبلـة يمكـن أن تكـون عـليّ.. فعملـت عـلى أن لا تكـون مـرة مقبلـة، ولا أزال..

أمـا أطيـب طعـام، فهـو الـذي تتناولـه عـلى جـوع.. وكلـما كان الجـوع شـديداً كان الطعـام لذيـذاً عـلى اختلافـه.. وقـد خـبرت ذلـك بنفـسي، مرتـين.. الأولى، جعـت في المدينـة بعـد أن ذهـب أخـي في عمـل إلى خارجهـا.. وبقيـت إلى مـا بعـد الظهـر دون طعـام.. كانـت المـرة الأولى التـي أحـسّ فيهـا بالجـوع.. حـضر عبداللـه ابـن خـالي ووجـدني عـلى هـذه الحالـة، فعـرف أننـي جائـع، وأخـي خـارج المدينـة.. فأحـضر لفافتَـي فلافـل مـن مطعـم الملـك المجـاور.. أكلـت وأحسسـت بلـذة الطعـام، مـع أننـي مـا كنـت أطيـق رائحـة زيتـه المقـلي حتـى قبـل يـوم مـن ذلـك.. اختـبرت الأمـر بنفـسي، وعرفـت أن الأكل عـلى الجـوع أطيـب طعـام.. مهـما كان نوعـه أو طعمـه..

أمـا الثانيـة، فكانـت في المرحلـة الجامعيـة.. أكملنـا امتحـان مـادة أنـا والشـهيد سـمعان في كليـة الآداب.. أنـا عـلى الريـق، دخـان وقهـوة.. كنـت أدخّـن بشراهـة وقتهـا. اقـترح عـليّ رفيقـي أن نبقـى بعـض الوقـت في الكليـة لنسـتكمل التحضـير لمـادة الغـد، عـلى أن نذهـب إلى بيتـه في الشـياح ونتنـاول الغـداء.. واعتـبرَ ذلـك دعـوة.. بقينـا حتـى الخامسـة، ولم نتنـاول شـيئاً. شـددنا الرحـال إلى الشـياح، والحالـة حالـة حـرب، ومهجريـن وقصـف. كان ذلـك في العـام 1977، ورفيقـي

سـمعان مهجّـر ومسـكنه مصـادَر، مقابـل بيتـه المصـادر مـن الجهـة الثانيـة. لـدى وصولنـا، وجدنـا أن لديـه ضيوفـاً مـن بعلبـك.. تأجـل الغـداء.. وقاربـت السـاعة السادسـة.. ومـن الآداب الاجتماعيـة، أن لا تـأتي عـلى ذكـر الطعـام أمـام الضيـوف، وإلا راحـوا.. جلسـنا وتحدّثنـا وشربنـا الشـاي، والقهـوة.. والمـاء.. وحديـث يجـرّ حديـث.. إلى أن.. مـا عـدت أفقـه شـيئاً.. انحـصرت الدنيـا أمامـي في دائـرة رغيـف الخبـز ولـو كان حافيـاً.. المنفضـة أحسـبها كعكـة، وعلبـة السـجائر قطعـة حلـوى.. الحلـم الوحيـد الـذي اجتاحنـي في تلـك الأثنـاء أن آكل وأشـبع.. عجـزت عـن المشـاركة في الحديـث، أو التفكـير في أي شيءآخـر غـير الجـوع والطعـام الـذي عـلي إسـكات أنينـه بـه.. ولا إمكانيـة في المـدى المنظـور.. جـاء الشـاي للمـرة الثالثـة.. والأنـكى أن شربـه يسـاهم في اسـتفحال داء الجـوع.. في منتصـف الليـل، قـرّر الضيـوف الرحيـل، وسـمعان يرجوهـم البقـاء لاستئناسـه بهـم.. وكان أسـوأ رجـاء سـمعته في حيـاتي..

رحلوا..

– يللـه يـا مـدام.. بدنـا نـاكل.. جعنـا.. قـال سـمعان لزوجتـه الطيبـة.. وانتظرنـا..

سـمعت صـوت حقـن بابـور الـكاز في المطبـخ، ومـن ثـم إشـعاله.. لا غـاز ولا بـراد، ولا مـن يحزنـون. صرخـت بسـمعان:

– شو عم تعمل المدام؟؟

– بدها تقلي بطاطا.. ما جعت؟؟

– هيـدي تـاني مـرة بحيـاتي بجـوع.. بـدي آكل ولـو كان خبـز ناشـف..

– طوّل بالك.. دقايق وبيخلص الأكل..

لقـد مـرت ثلاثـون سـاعة عـلى آخـر أكل تناولتـه، فلأنتظـر ربـع سـاعة.. وانتظـرت.. وكان انتظـار الدقائـق بمثابـة السـاعات الثلاثـين، وأزوَد..

عندمـا جـاء الطعـام عـلى الصينيـة المعدنيّـة أحسسـت أن ثـروة طائلة وضعتهـا الزوجـة الصدوقـة بـين يـدي. كانـت فعـلاً أطيـب وجبـة تناولتهـا في حيـاتي، والسـاعة قاربـت الواحـدة بعـد منتصـف الليـل.. أحسسـت عندهـا أن الدنيـا لا تـزال بألـف خـير.. آكل وأنـا أتطلـع في الصينيـة، إلى أن بـدأ جوعـي يتهيّـأ للرحيـل، فأعـود إلى التطلـع حـولي لأمعـن النظـر في النوافـذ المغطّـاة بالنايلـون، وفي كيفيـة النـوم عـلى فرشـة الإسـفنج الملقـاة عـلى الأرض بجانبنـا، وفي الطريقـة التـي تريحنـا مـن سـماع الطلقـات الناريـة عـلى اختلافهـا التـي تصـدح مـن حولنـا.. نمـت قريـر العـين، ولم أسـتيقظ إلا عـلى صـوت سـمعان.. كان ذلـك في تشريـن الأول1977. جلسـة محفـورة في ذاكـرتي.. بعـد ذلـك بقليـل رحـل سـمعان برصـاص طائفـي لعـين.. وهـو نـاشر الفكـر اللاطائفـي قـولاً وعمـلاً..

4
وفاء الكلب

كان عليه أن يدخّن بعد الأستراحة القصيرة.. مدّ يده إلى جيبه لينتشل علبة التبغ المعدنية.. لم يجدها.. إلى الجيبة الثانية.. لا شيء. إلى صدره يميناً ويساراً.. عبث..! أين راحت قبّارة الصحاب؟؟ هذا ما سمعته، ولفت نظري.. إلى أن شيئاً أضاعه أبي..

لم أجرؤ على السؤال، ولا خطر في بالي أن أبي يمكن أن يضيّع علبة الدخان المعدنية، العزيزة عليه باعتبارها هدية من شخص محبّ، وآتية من بلاد بعيدة.

أعادني إلى انتباهي صوتُه الجهوري الصارم: زريف.. فإذا بكلبنا المدلّل الذي لا ينقصه إلا الكلام ليكون واحداً منا.. عضواً، كامل العضوية، في العائلة، قبالته بمجرد سماع الصوت، ولمرة واحدة. كان زريف يُهمهِم بين يديّ والدي، مدلّياً لسانَه، وهازّاً ذنَبَه بسرعة لافتة، منتظراً الأوامر..

علبة الدخان يا زريف..! ضاعت علبة الدخان.. بدي ياها منك يا زريف..! يكلم والدي زريفاً، على أنه يفهم تماماً ما يقول.

لم ينتظر زريف نهاية كلام أبي. هبّ مسرعاً كالسهم باتجاه المكان الذي جاء منه، وأنا أحاول أن أفهم ما أراده أبي، وما يمكن أن يفعله كلبنا الوفي.

كان أبي مولعاً بممارسة هوايتيه المفضلتين، تربية الكلاب وتدريبها على الصيد، وصيد السمك النهري. أما بقية أعماله فتراوحت بين ممارسة الطب الشعبي، والحلاقة ومداواة الأضراس وخلعها، بالإضافة إلى تعليم القراءة والكتابة للأولاد، وحتى الشباب الأكبر

منـه سـناً. لم يمـارس عمـلاً محـدّداً يعتـبره مصـدر عيـش لنـا، وإن يحصـل عـلى مـا يجـود بـه فلاحـو القريـة لقـاء خدماتـه في التعليـم والحلاقـة والمعالجـات الطبيـة.

مـا كنـت أعرفـه وأراه، أن غرفـةً مـن بيتنـا الحديـث الـذي ابتنـاه أبي، وأنـا بعمـر السـنوات السـت، كانـت تمتلـئ بحبـوب القمـح في شـهر حزيـران مـن كل سـنة.. كان هـذا مـا يفرحنـا جميعـاً. وأجمـل مـا كنـا نـراه أكيـاس القمـح المحمولـة عـلى ظهـور الفلاحـين لتُفـرغ في هـذه الغرفـة العابقـة بأريـج التعـب والعرفـان.

مـا كان ثمـة أي شيء يلهـي أبي عن ممارسـة صيـد الطيور على أشـكالها، وصيـد السـمك. ومـا كان يقبـل أن يكـون في المنطقـة والجـوار بـارودة أفضـل مـن بارودتـه، ولا كلبـاً أكـثر ذكاء مـن كلبـه، ولا صيـاداً بمهارتـه. هـذه الهوايـة التـي أخـذت منـه كل جوارحـه، جعلتـه ليـس فقـط صيـاداً ماهـراً ومعروفـاً في المنطقـة، بـل أيضـاً راميـاً ماهـراً لا يضاهيـه أحـد، ولـه في ذلـك مواقـف كثـيرة جلبـت إليـه الشـهرة الممزوجـة بالغيـظ والغـيرة والحسـد.. هـذا مـا كنـت أسـمعه مـن أمـي، ومـن رواياتـه أمـام الـزوار.

كثـيراً مـا كنـت أجلـس في ليـوان البيـت لأتفـرج عـلى مـا يقـوم بـه أبي لتدريـب الجـرو الصغـير عـلى التقـاط مـا يرمـي مـن أشـياء ليجلبهـا لـه، تكـبر مـع عمـر الجـرو حتـى تصـل إلى الكـرة القماشـية التـي تصـير في هـذه المرحلـة مـن التدريـب لـبّ العمليـة ومنتهاهـا. سـألته مـرة، لمَ لا ترمـي لـه شـيئاً يـؤكل، فيتحمـس أكـثر ويتـدرب بسرعـة؟

ضحك والدي من غباوة السؤال، وقال:

- سـاعتها، يـسرع ويلتقـط ليـأكل لا ليصيـد.. هـل علينـا أن ندرّبـه ليـأكل؟؟

- صدمتني إجابته، وعرفت أن السؤال دلّ على بلاهة.

لا ينهي والدي تدريب الكلب إلا بعد مروره باختبارات عدة، عليه أن ينهيها بنجاح.. أولها الطاعة المطلقة، وثانيها السرعة في تلبية الأمر، ومن ثم العودة بما حمل فمُه بأقصى سرعة ممكنة. البطء في تنفيذ الأوامر ليست من مواصفات الكلاب السلوقية المختصّة بالصيد.

عندما يرى أبي أن الكلب صار جاهزاً للصيد، يحرّم على إخوتي اصطحابه معهم إلا بعد أن ينهي فترة التدريب بنفسه.. وفي حال الإطمئنان على أدائه، يترك الأمر لهم، ليلتفت إلى جرو آخر.

قصتنا مع الكلاب جميلة وطريفة، وصار الكلب جزءاً منا، نلاعبه ونطعمه ونرافقه، ما أعطانا الإحساس بأنه يفهم علينا ونفهم عليه، بالكلام منا، وبالاستجابة منه، وكأنه يفهم تماماً ما نقصده، وما نريده منه. وكان إذا درّب كلباً وأهداه لصديق، تقام المناحة في البيت. وكم كنا نفرح عندما يعود إلينا هارباً من ملجئه الجديد، ليتجدّد الحزن بإعادته.

من مآثر زريف المبهجة ما كان يقوم به، بأوامر من والدي.. منها، أننا كنا في المدرسة التي أنشأها قبل مجيء المدرسة الرسمية إلى القرية، وقد سلّمَنا لأخي، لأنه كان في رحلة صيد مع أكابر من البلدة المجاورة ومن المدينة.

استعد والدي للعودة إلى الضيعة، وهو محمّل بالبرتقال، بدل ما تصيّده، لأن الواجبات تقضي بأن حصيلة الصيد تُهدى للضيف القادم من المدينة.

ما كان لوالدي بدّ إلا أن يعود سيراً محمّلاً بالبرتقال. وعند وصوله إلى معبور البساتين، وبداية العقبة، تعب من الحمل، ورحلت

عنـه القـدرة عـلى المسـير.. ودون الوصـول إلى البيـت هـذه العقبـة الطويلـة صعـوداً، المتعبـة للمرتـاح، فكيـف لأبي القـادم مـن رحلـة صيـد، مـع حمـل مـن البرتقـال والليمـون؟

تفتّـق ذهـن أبي عـلى فعـلٍ خطـرَ في بالـه، وهـو يلتفـت إلى زريـف الرابـض بجانبـه.

ولأن أبي معلـم، مـا كان القلـم يفـارق صـدره ، وهـو يـدل عـلى ميـزة تميّـز بهـا القليلـون في تلـك الأيـام، ولا الـورق جعبتـه.. فكتـب عـلى ورقـة صغـيرة: «ملحـم، أبـوك عالمعبـور لاقِيـه». وعلّقهـا في ياقـة زريـف المحيطـة بعنقـه.. قائـلاً لـه.. «يللـه زريـف لعنـد ملحـم».

عـرف زريـف مـا عليـه فعلـه.. لا أعـرف كيـف.. رأيتـه مـع رفاقـي في الصـف وهـو يدخـل مسرعـاً.. يلهـث ويلهـث.. وأخـي قبالتنـا يغـط في نـوم عميـق عـلى كرسـيّه الطويلـة.. دار زريـف حولـه، فلـم ينتبـه.. بـدأ يضربـه بكـف يـده بهـدوء.. لا اسـتجابة. بـدأ يقـوّي الـضرب حتـى.. اسـتفاق أخـي؛ وقـد سـاعده عـلى ذلـك ضحكنـا المتواصـل.. لم ينتبـه أخـي لـشيء، نهـرَ زريـف.. وعـاد لإغـماض عينيـه..

نبـح زريـف بصـوت غاضـب، وأدار لـه رقبتـه.. رأى أخـي الورقـة المعلّقـة في ياقـة العنـق.. قرأهـا ونهـض واقفـاً.. وركـض مسرعـاً مـع ثلاثـة أولاد منـا انتقاهـم لملاقـاة أبي.. لم أكـن أنـا واحـداً منهـم. وبعـد عودتهـم، عرفنـا مـا حصـل.

في خضـم هـذا الشريـط المتسـارع مـن الذكريـات العابـرة لخاطـري، مـع تلهّـف أبي لتدخـين سـيجارة.. سـمعنا همهمـةً وصراخَ نـاسٍ في مـرح ظاهـر.. فـإذا بزريـف يدخـل الليـوان وفي فمـه علبـة الدخـان، وفي عينيـه دلائـل الفخـر والانتصـار، ومـن ورائـه فتيـة كثـيرون..

5

قرمش

يلّله يا قرمش.. طيّب يا قرمش..

نسمع هذا الصوت الجميل، ونعدو لملاقاته.. منا من يتوقف.. ومن ثم يسير متمهّلاً لأنه لا يملك الفرنك المطلوب.. ومنا من يكمل طريقه فرحاً، وفخوراً.. لأنه سيأكل القرمش. وعينُك ترى من يأكل ويتلمّظ، وهو يتطلّع من علٍ إلى من تمهّل في الوصول.. إلى ذلك الذي يرى.. ولا يأكل.. ويتلمّظ. عرفت بعد ذلك بزمن طويل، أن الساديّة كانت متجسّدة، حتى في الرؤوس الصغيرة.

لقاء المعلم يوسف، الأجرودي النحيل، ذو الهامة الملتوية، والقوام النحيل، والعينين الغائرتين في فجوتين سمراوين، وشعر مبعثر كثيف؛ لقاء يأتي كموعد غرامي كل يوم أحد.. ننتظره أنا وأخي وأترابنا، وإن اختلفت جرعة المتلهّفين بين من يملك الفرنك أو الفرنكين، ومن لا يملك.. المهم رؤية القرمشات القرميدية المخططة.. المتراصفة بغنج ودلال على مفرش المعلم يوسف.. المحروس بنور عينيه، والمحاط بيديه وكأنه الأم الرؤوم..

جلستنا مع المعلم يوسف لم تكن جلسة بيع وشراء فحسب؛ بل كنا، نحن الصغار، نلتذّ بالاستماع إلى حديثه الشجيّ، وإلى كلماته المصوِّرة للفقر والتعب والجهد في الحصول على لقمة العيش. كان يحدّثنا بلغة لم نفقَه معناها إلا بعد ذلك بزمن طويل.

– كل ضيعة، يا أولاد، لها دينها ومذهبها وقدرتها على الشراء.. وعلينا نحن المتجوّلين أن نتكيف مع الضيعة التي نبيع فيها ونرتزق، ونبني فيها العلاقات بطلاوة اللسان وحلو

الحديـث.

مـا كنـا نفهـم مـا العلاقـة بـين القرمـش والديـن في زمـن شـديد الظلامـة والجهـل.. عـلى الأقـل بالنسـبة إلينـا.. ومـا كان يخطـر في بالنـا أن المـرء عندنـا، وعنـد غيرنـا، يعامَـل أو يحاسـب في الظـروف الحالكـة عـلى أنـه صاحـب ديـن أو مذهـب.

بدايـة هـذا الشـعور لدينـا، نحـن الصغـار، كانـت إبـان حـدوث الثـورة في نهايـة الخمسـينيات. عرفنـا أن الثـورة يقودهـا المسـلمون في وجـه المسـيحيين.. ولا شيء غـير ذلـك.

في يـوم، كنـت ألعـب مـع رفيـق لي مـن القريـة المجـاورة جـاء ليقـصّ شـعره، وهـو ينتظـر دوره، في يـوم أحـد، وإذا بـه أمامنـا بقامتـه الملتويـة وعينيـه الغائرتـين.

بادره رفيقي..

– أهلاً بطرس، كيف القرمش معك؟

تطلّع إليّ.. وهو يجيبه: نفّقنا.. وغادرَنا مسرعاً.

عرفـت لمَ لم أسـمع مناداتـه عـلى بضاعتـه.. ولكـن لم أعـرف لمَ اسـمه بطـرس.. وهـو المعـروف عندنـا باسـم يوسـف.

لم أسـأل رفيقـي عـما سـمعته منـه. وانتظـرت المجـيء التـالي ليوسـف، ليكـون حديـثٌ جديـد.

في انتظـار الآتي، كنـا نتلهّـى بلعـب الكلّـة أو دحرجـة الدواليـب المبتدعـة مـن قبـل القلائـل منـا، والمقلّـدة مـن الباقـين.. كان علينـا أن نكـون متفوّقـين في كلتـا اللعبتـين، وإلا لحقتنـا السـخرية مـن غبائنـا.. ومـن جيوبنـا الفارغـة مـن الكلـل، ومـن الفرنـكات.

أكـثر مـا كان يثـير خوفنـا واسـتياءنا، أنـا وأخـي، منـاداة أبي للعـودة إلى المنـزل.

لم أعلـم، بعـد رحيـل أبي، وإلى اليـوم، لمَ كان يحـرص عـلى إبعادنـا عـن اللعـب، والعـودة إلى البيـت.. هـل للسـاعات القليلـة التـي تجمعنـا بـه خـلال النهـار؟ أم لعـدم الاختـلاط مـع الأولاد مـن جيلنـا لسـبب لم أتبيّنـه؟ أم لممارسـة سـلطة أبويـة لم يحـظ بمـن يمارسـها عليـه لغيـاب أبيـه، وهـو لمـا يـزل غـير ذي قـدرة عـلى المـشي؟؟

مـا كان علينـا فعلـه، وإن عـلى مضـض، الانقطـاع عـن اللعـب والعـودة إلى البيـت، والنـوم إلى جانبـه بعـد الغـداء؛ ونحـن نـدرك، مـن تبـادل النظـرات، أن معـارك الكلـل والدحرجـة لا تـزال في أوجهـا. كان علينـا الانصيـاع.. وادّعـاء النـوم.. ولا نـوم. وفي غفـوة أبي.. ننسـلّ مـن الفـراش عائديـن..

يللـه يـا قرمـش.. طيّـب يـا قرمـش.. جـاء يوسـف والحمـد للـه.. ومعـي مـن القـروش عـشرة، أي فرنـكان، نفحهـما لي أخـي العائـد مـن العمـل في مـكان بعيـد، وكـذا لأخـي الأصغـر.. لم أحتـجّ باعتبـاري الأكـبر، بـل تركتـه ينعـم بهـذه الـثروة الصغـيرة، كـما أنـا.. لنتلـذّذ، مـن بعـد، بطعـم القرمـش.

– اعطيني قرمش، قلت له بفخر.. وبنفخة صدر..

– تكـرم عينـك، أجـاب وهـو ينظـر إلى الفرنكـين، قبـل أن يمـدّ يـده إلى المفـرش.

انتظـرت بلهفـة.. قطعـة القرمـش.. وهـو يتمهّـل في تقديمهـا.. بعـد أن صـار الفرنـكان في يـده.

– شـو رأيـك بقرمشـتين كبـار؟ قـال، وهـو يسـتصعب إخـراج الفرنـك مـن جيـب مريولـه الرمـادي.

– لا.. لا.. قطعة واحدة.. وفي بالي حفنة فستق العبيد من العم أنيس.. بالفرنك الباقي.

بعد الشراء وخلوّ المشترين، بقيت معه مع بضعة من أقراني..

وفي استراحة قصيرة، سألته:

– معلم يوسف.. لماذا ناداك رفيقي باسم بطرس.. وأنا أعلم أنك المعلم يوسف؟

تنهّد المعلم يوسف.. وقال مبتسماً:

– عندما تكبر يا ابني ستعرف..

لم يشفِ غليلي الجواب، وألحّ سؤالي عليه..

– بدنا نعيش يا ابني.. بهذه الطريقة أخلّص نفسي من احتمال الأذيّة.. بدنا نعيش.

لم أعلم إلا متأخراً أن المعلم يوسف كان يتسمّى بعدة أسماء. لكل ضيعة إسم يتوافق مع مذهبها الديني. عندنا يوسف، وفي القرية المجاورة المارونية بطرس، وفي الأخرى السنّية محمود. وتذكرت ما كان يقول حول التكيف والعلاقات وكيفية بنائها ودورها في الحفاظ على سلامته، وسلامة القرمشات التي يبيع.

بعد هذه المحادثة بسنوات، درسنا في كتب التاريخ أن الأمير بشير كان درزياً وسنّياً ومارونياً في جبل لبنان.. ليس فقط من أجل العيش، بل من أجل أن يبقى أميراً.. طالما الأمر منوط بالطائفة.. عندها تذكّرت المعلم يوسف، أو بطرس أو محمود.. لا فرق..!

هنا.. وهنا فقط.. علمت كم كان المعلم يوسف عارفاً بأحوال البلد.. ومثقفاً..!

يلله عالقرمش.. طيب يا قرمش..

جاء المعلم يوسف، كما كل أحد، إلا أن المرة هذه كانت مختلفة.. لا فرنكات معي ولا أمل بتذوّق القرمش..

تمهّلت في ملاقاته.. وسبقني الكثيرون من أترابي.. لم يكن أخي برفقتي. وصلت وإذا المشهد مختلف.. قرمش.. وشيء آخر.. وبالونات.. وصوت المعلم يوسف ينادي:

- القرمش والمعلل والنفّيخة بفرنكين.

- بفرنكين؟؟ قلت لنفسي.. ومن أين؟؟

أمام المنظر البديع للقرمش المرصوف بإتقان.. وتماثيل الحيوانات المصنوعة من المعلل البلّوري خمري اللون.. والبالون المنفوخ الملوّن بالأصفر والأخضر يفصلهما خط أفقي.. عرفت بعد ذلك.. بسنوات، أنه يمثل خط الاستواء.. لم أدرِ ما حصل لي.. أحسست أن عالمي كلّه محصور في كيفية حصولي على البالون.. وقطعة المعلل المصنوعة على صورة الفيل.. ربما لأنها أكبر حجماً من أقرانها..

ما العمل ولا فرنكات لديّ؟؟

تفتّقت حاجتي عن خطة تحلّل السرقة.. وإن من بيتنا. فالخطوة هنا أقرب إلى الحلال، ولو لم أعلم أمي بذلك..

على أي حال، أمي لم تكن في المنزل، والمعللات والبالونات لا تنتظر.

دلفت إلى القبو، وإلى الكوّة التي تضع فيها أمي البيضات، واحتضنت بيدي واحدة منها لأشتري بثمنها المعلل والبالون.. البيضة بفرنكين. وليحصل بعد ذلك ما يحصل..

خرجت من القبو مسرعاً والبيضة في يدي وطعم المعلّل أتخيّله

يملأ فمـي.. وأنـا أردّ البـاب ورائي بيـدي التـي تحمـل البيضـة.. وإذ بأبي مبـاشرةً أمامـي.. جفلـت.. وأنـا أنظـر إليـه في رعـب، فصدمـت يـدي حـرف البـاب.. انكسرت البيضـة، وتـدلّى بياضُهـا والصفّـار ليحوّلـه إلى لوحـة سـوريالية..

لم أسـمع أي شيء مـما قالـه والـدي.. ولكننـي أحسسـت بصفعتـين خدّرتـا وجنتـيّ وذهبتـا بطعـم المعلّـل الـذي تخيّلـت تجوّلـه في فمي.. دارت الدنيـا بي، وانتظـرت المزيـد برعـب.. إلا أنـه أكمـل طريقـه.. وهـو يتفـوّه بـكلام لم أفهمـه..

مـا أحسسـت بـه لم يكـن ألمـاً، ولا تفجّعـاً عـلى خسـارة البيضـة.. كان ألمَ حرمـاني مـن تـذوّق المعلّـل وحمـلِ البالـون المنفـوخ بخيـط طويـل لأغيـظ بـه رفاقـي، أو لأتسـاوى بهـم عـلى الأقـل..

أقـول هـذا الـكلام بعـد سـنين طويلـة.. والحـسرة لا تـزال تمتلكنـي إلى اليـوم، مـع كل مـا هـو موجـود في الدنيـا مـن معلّـل وبالونـات.

6
الضيعة والجوار

منـذ تفتّحـت عينـاي على هـذه الدنيـا، وأنـا أدرك بالسـليقة والعفوية، ومـن ثـم بالتعقـل والتفاعـل، أن المنيـة، بـكل تقسـيماتها، هـي بلـدي، وأهلهـا أهـلي. هكـذا تربّينـا عـلى يـد أبـو محـرز- أبي - الـذي قلّـما تجـد أحـداً ممـن طـال بـه العمـر، لا يعرفـه. وقلـما عرفـه أحـد مـن هـؤلاء ولم يـبنِ الصلـة العميقـة معـه. وأدركـت منـذ بدايـة طفولتـي أن لي أقربـاء فيهـا، وبقيـت حتـى المرحلـة المتقدمـة مـن عمـري أؤمـن تمـام الإيمـان بـأن لي عمومـة فيهـا وأبنـاء عمومـة، دون أن يخطـر ببـالي اختـلاف الديـن. وعلمـت منـذ بدايـات الشـباب أن الأخ أو العـم ليسـا بالـضرورة مـن تلدهـما أمّـك أو جدّتـك. وبقيـت حتـى وفـاة عمـي أحمـد عبداللـه زريقـة، وعمـي توفيـق زريقـة رئيـس بلديـة المنيـة الأسـبق أقبّـل يدهـما، كـما أقبّـل يـد والـدي، عـلى عـادة تلـك الأيـام؛ العـادة التـي يتجاهلهـا الكثـيرون مـن أبنـاء اليـوم، فيتصرّفـون تجـاه الآبـاء والأعـمام وكبـار السـن مـن العائلـة بمـا يقرّبهـم مـن العقـوق؛ أو هكـذا يتبـدّى لي، عـلى عكـس مـا يتبادلـه أبنـاء اليـوم. وكان مــن أقربــائي الخلّــص عــادل المعربــاني، وعمــي الحــاج عبــد الرحمـن القصـاب رحـمات اللـه عليهـما، وعمـي الطيـب الحـاج عبـد المجيـد الطبيـخ أطـال اللـه بعمـره؛ وهـو الـذي لحظـة رؤيتـي لـه وكأننـي رأيـت والـدي، ولحظـة ضمّـي لـه أشـمّ مـن ثنايـاه رائحـة الوالـد، ولـن أنـسى في خضـمّ هـذه الذكـرى الطيبـة بشـير العـتري ومصطفـى الجاجيّـة..

أسـوق هـذا الـكلام في لحظـة صفـاء، لأدلّـل عـلى مـدى علاقتـي الشـخصية بالمنيـة وأهلهـا؛ وهـي العلاقـة التـي تعـود إلى مئـات السـنين. عـاش فيهـا أهـلي وأهـل بلـدتي مركبتـا عـلى أتـم وئـام وأوثـق

العلاقـات وأروع الصداقـات. ومـن مثـل مـا سردت مـن علاقـات تخصّ والـدي – وقـد أورثنـا إياهـا - هكـذا بقيـة أهـل الضيعـة؛ كل عائلـة منهـا لهـا علاقـات وثيقـة مـن عائـلات مـن المنيـة وصلـت في الكثـير منهـا إلى حـد التآخـي. ومـا هـو مفـرح أن الأبنـاء والآبـاء يسـيرون عـلى خطـى أهاليهـم في نسـج علاقـات الـود والتعـاون والتفاعـل اليومـي في شـتى أمـور الحيـاة مـع أهـالي المنيـة.

نسـتخلص مـن ذلـك كلـه أن علاقتنـا بالمنيـة هـي نفسـها علاقـة أهـالي المنيـة مـع بعضهـم بعضـاً، ولا فـرق في ذلـك بين المنيـة البلـدة، وبحنين والنبـي يوشـع وبقيـة الجهـات التـي تتألـف منهـا المنطقـة، وقـد وصلـت طيبـة العلاقـات هـذه إلى بلـدة ديـر عـمار. هـذا يعنـي أن مـا يصيـب أهـالي المنيـة مـن أمـور تنمويـة لا بـد إلا أن يصيـب المنطقـة كلهـا ومنهـا مركبتـا. ومـا يصيبهـم مـن أفـراح يصيـب المنطقـة كلهـا، وكذلـك مـا يصيبهـم مـن أتـراح، وخصوصـاً كأس المـوت الـذي لا بـد إلا أن يشربـه كل واحـد منهـا.

مـا علينـا التأكيـد عليـه في هـذا المجـال، هـو العمـل بإخـلاص ومحبـة، وبالجديـة اللازمـة، عـلى تنميـة منطقـة المنيـة، مـن كل النواحـي، وخصوصـاً تنميـة الإنسـان، لأن بتنميتـه وبالشـكل الدائـم والمسـتمر تتشـكل لدينـا تنميـة المنطقـة عـلى الصعـد كافـة، الاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسـية، وبمـا يمكـن أن نجملهـا جميعـاً بالتنميـة الثقافيـة. وأولى الأعـمال في هـذا الاطـار القضـاء عـلى الجهـل، وعـلى الشـخصانية في التعاطـي في شـتى النشـاطات اليوميـة، والتدريـب على المواطنـة الحقـة التـي تفسـح في المجـال للَحـظِ مـا يتجـاوز الـذات، وتـرك المسـاحة المناسـبة لـه للتعبـير عـما يجـول في خاطـره، وعـما يريـد أن يقولـه عقلـه، في ميـدانٍ تتفاعـل فيـه العقـول لمـا يمكـن أن يكـون خـيراً للمنطقـة وللنـاس فيهـا، دون أن يشـكل اختـلاف الآراء جمـوداً في التفكـير وتعطيـلاً للعمـل، وإيغـالاً في مسـالك الخلافـات.

هـذا عـلى صعيـد الناضجـين؛ أمـا الأطفـال والأحـداث والفتيـان فعليهـم أن ينشـأوا عـلى محبـة الآخريـن، والنظـر إليهـم بالإيجابيـة اللازمـة والصفـاء المسـتتر والمنظـور، دون أن تكـون العائلـة والحـي والديـن والتوجـه السـياسي عوائـق في وجـه ذلـك. وأن يتربّـوا عـلى الشـعور بالمواطنـة وممارسـتها في التعاطـي مـع الآخريـن انطلاقـاً مـن مبـداً مـا هـو لـك، للآخريـن مثلـه، ومـا هـو عليـك، للآخريـن مثلـه أيضـاً. لا فـرق في ذلـك بـين هـذا وذاك، لا في انتمائـه ولا في جنسـه، ولا في غنـاه أو فقـره.

أمـا الحـس المـدني فهـو شـأن آخـر. فقدانـه، أو التمتـع بنصيـب منـه، قـلّ هـذا النصيـب أو كـثر، هـو مشـكلة المشـاكل في منطقـة المنيـة بأكملهـا.

والحـس المـدني يعنـي، مـن جملـة مـا يعنيـه، اعتبـار الشـارع والحـي والمنطقـة بأسرهـا، بطرقاتهـا وأوتوسـتراداها وممراتهـا وزواريبهـا، هـي كلهـا شـأن عـام لـكل واحـد منـا نصيـب فيـه، والنصيـب هـذا يدعونـا إلى أن نحافـظ عليـه محافظتنـا عـلى منازلنـا، حـدوداً ونظافـة وشـكلاً عامـاً.

وعـي هـذه المسـألة يخفـف عنا عذابـات المخالفـات، إن كان في السـير أو التوقـف العشـوائي في الطرقـات أو رمـي النفايـات خـارج حـدود المنـزل المعتـبر وحـده ملكيـة خاصـة جديـرة بالعنايـة والاهتـمام، بينـما خارجـه هـو ملـك الآخريـن، وهـو لا يكلّـف خاطـره بالتسـاؤل عمّـن يمكـن أن يكـون هـؤلاء.

تنميـة الحـس المـدنيِ شـأن هـام مـن شـؤون التنميـة البشريـة. وهـي لذلـك أُمّ بقيـة التنميـات. وهـي مسـتدامة، لأنهـا دائمـة التجـدد ودائمـة التكسّـب مـن الخـبرات الممارسـة ليكـون المجتمـع، والمجتمـع المحـلي عـلى الخصـوص، عـلى أفضـل مـا يمكـن؛ والممكـن هنـا هـو مـا

تتوسّـله التنميـة المسـتدامة لتحقيقـه في كل يـوم، ليكـون المجتمـع أفضـل.

المنيـة جديـرة بـأن تحيـا الحيـاة الفضـلى. لديهـا كل المقوّمـات. ولا ينقصها شيء لتكـون مـن أفضـل المـدن اللبنانيـة. ومـا علينـا إلا العمل بالتنميــة البشريــة، وبالتنميــة الاجتماعيــة والاقتصاديــة والثقافيــة للوصــول إلى المســتوى الــذي نطمــح إليــه. ومــا عــلى السياســة والسياسـيين فيهـا إلا أن يكونـوا في خدمـة التنميـة. وليغـنّ، مـن بعـد، كلٌّ عـلى ليـلاه.

بحكـم تفرّغـه الدائـم، إلا بمـا يتيحـه الصيـد وزيـارات الأصحـاب، في المنيـه والجـوار، نسـج أبي علاقـات صداقـة وودّ وصلـت إلى عقـد ربـاط الأخـوّة مـع أصدقـاء مـن خـارج القريـة بقيـت إلى أن أخـذ اللـه وديعتـه مـن الكثيريـن منهـم.. وأطـال في عمـر الباقـين، وهـم بالإضافـة إلى عمومتـي في المنيـة، قاسـم الفتـال وأحمـد ديـاب ونجيـب البغـدادي مـن عزقـي ومطانيـوس بـو عبداللـه مـن كفريـا. ولأن والـدي كان وحيـداً، اعتـبر أن هـؤلاء هـم إخوتـه فعـلاً، وتعامـل معهـم عـلى أسـاس الأخـوّة، زيـارات متبادلـة تجمـع جميـع أفـراد العائـلات، وتبـادل الهدايـا والتهنئـة في الأعيـاد، وبقـاء بعـض الأفـراد عنـد بعضهـم الآخـر، حتـى في حـالات الاقامـة والنـوم. أمـا حـالات الـزواج، فـكان يتـم التشـاور فيـما بينهـم لانتقـاء أفضـل صهـر، أو أحـلى عـروس.

بحكـم عمـل والـدي وإخـوتي كحلاقـين في الضيعـة، كان لنـا الموقـع المميـز في كل عـرس. فالعريـس لا بـد إلا أن ينهـض مـن بـين يـدَي الحـلاق عـلى أفضـل مـا يمكـن أن يكـون، فكيـف إذا كانـت الحلاقـة مـن إثنـين، مـع مـشرف ثالـث..؟؟ ومـن أجمـل مـا كان يرافـق طقـس الحلاقــة، الرقــص بالألبســة المخصّصــة لــه، والمتهاديــة عــلى أكــفّ الراقصـين والراقصـات وهـم يتمايلـون عـلى أهزوجـة «يـا حـلاق

حلقلـو وتأنّـالي عليـه..

كان يهـزّني الفـرح وتجتاحنـي الخيـلاء وأنـا أرى أبي وأخـويّ يعملـون عـلى إظهـار العريـس بأبهـى صـورة، دون أن يعنيهـم أي شيء مـما حولهـم، وكأنهـم في عـالم آخـر.. هـذا مـا دفعنـي إلى الاقتنـاع التـام بـأن أهـلي هـم الذيـن يصنعـون مـن العـرس عرسـاً ومـن العريـس عريسـاً.

لم أر في بيتنـا عرسـاً كـما كان يحصـل في بيـوت الضيعـة. تـزوّج أخـي الكبـير بعـد معارضـة غاضبـة مـن أبي لهـا مـا يبرّرهـا، نشـأت عـن توتّر مزمـن في العلاقـات بـين أبي وأعمامـه تعـود إلى أيـام سـفر أبيـه، وتـركِ أمـه وحيـدة. والعـروس ابنـة عـم أبي اللـزم.. فكيـف للإبـن أن يتـزوج إبنـة عـم أبيـه؟؟ لم تنحـلّ المعضلـة إلا بعـد تدخّـل «إخوتـه» الآتـين مـن الخـارج، فقبـل عـلى مضـض مشـترطاً عـدم إقامـة العـرس.. إلا أن الشـعرة التـي انقطعـت بينـه وبينهـم كانـت عندمـا طلـب عمـه، والـد كنّتـه أختـي للـزواج مـن ابنـه.. رفضـت أختـي، وكانـت مـن أجمـل بنـات القريـة، فكـرة الـزواج لأنهـا صغـيرة ولم تتجـاوز السـابعة عـشرة مـن عمرهـا.. هـذا مـا كان يريـده أبي، وربمـا هـو ألمـح إليهـا بالرفـض.. فاغتـاظ أقـاربي جميعهـم، واعتـبروا الرفـض إهانـة لهـم.. وقاطعـوا منزلنـا.. ولا أزال أذكـر خـوفي عنـد المـرور أمـام ديارهـم، فأحـرص عـلى تجميـد رأسي حتـى لا ألتفـت، مـع سـماعي لـكلام التقريـع..

جـاء مَـن عـرضَ عـلى أبي فكـرة زواج أختـي مـن شـاب مـن قريـة مجـاورة عـلى يـد مختارهـا، ليجـسّ النبـض قبل الـكلام الرسـمي. ورأى في نفـس أبي عـدم الرفـض. وكذلـك أختـي.. جـاءت الجاهيّـة لطلـب يدهـا رسـمياً وتـمّ الأمـر.. خرجـت الزلاغيـط مـن أفـواه الحـاضرات.. ووصلـت إلى أعـمام أبي.. ثـارت ثائرتهـم.. قامـوا وقعـدوا.. وهـدّدوا باختطافهـا عنـوة.. وبقـوة السـلاح إذا لـزم الأمـر.

خـاف أبي مـن مغبّـة الأمـر.. ولا عـزوة لديـه خـارج إطـار القرابـة والعائلـة.. فلجـأ إلى عمـي أحمـد ليستشـيره في الأمـر.. وليجـد المخـرج الملائـم، وهـو الـذي أعطـى القـول للجماعـة، ولا وارد عنـده الرجـوع عـن قـراره. قـرّ الـرأي أخـيراً عـلى إقامـة مراسـم الإكليـل في بيـت عمـي أحمـد في بحنـين. وهكـذا كان..

نزلـت مـع أهـلي وبعـض الأقربـاء لحضـور الاحتفـال.. فوجدنـا الجمـوع الغفـيرة تحيـط بالمنـزل للتفـرج عـلى إكليـل عروس مسـيحية في بيـت مسـلم. أفسـحوا لنـا الطريـق. أغـانٍ ورقـص ومرتبـة عاليـة تجلـس فيهـا العـروس.. عـروس لم أعرفهـا..! وقفـت مشـدوهاً وأنـا أنظـر إليهـا.. هـل هـي عـروس أخـرى وعـرس آخـر، زيـادة في الحمايـة وخوفـاً عـلى أختـى مـن أقاربهـا؟ وهـل هـي في مـكان آخـر؟؟

كانـت العـروس مطليّـة بالمسـاحيق إلى الدرجـة التـي التبـس وجههـا عـليّ.. لم أتقـدّم.. وأنـا في حـيرة شـديدة أمـام أنظـار الجميـع.. رأيتهـا تتحـرك و تنـزل عـن الـبرزة لتقـترب منـي وتغمـرني.. لحظتهـا.. أدركـت أنهـا أختـي.. وأجهشـت بالبـكاء.

أمـا أختـي الثانيـة، فـكان زواجهـا سلسـاً.. طُبـخ عـلى نـار هادئـة. بـدأ مشروعـه بزيـارة ليليـة يوميـة لرجـل مهيـب يحبـه أبي كثـيراً لعلاقـات قرابـة مسـتحدثة بالـزواج. وبعـد ليـال متواليـات، عرفنـا مـن أمـي أن أبـو اسـحق طلـب يـد أختـى الكـبرى لابنـه ابراهيـم.. وقـد وافـق أبي بعـد استشـارة أختـي في الليلـة ذاتهـا.. ليعـود إلى ضيفـه.. عـلى بركـة اللـه.. وفي اليـوم التـالي جـاء الأهـل مـع ابراهيـم لطلـب يدهـا حسـب الأصول..

بقيـت أختـي الكـبرى في القريـة، وخرجـت أختـي الأصغـر إلى الضنيـة. وهكـذا لم يبـقَ لـدي أخـوات في البيـت، وأنـا لم أكمـل التاسـعة مـن العمـر.

مـن حسـن حظنـا، أنـا وأخـي، عـلى فقرنـا، أن جاءتنـا المدرسـة إلى الضيعـة لنلتحـق بهـا، وإلا بقينـا في مدرسـة أبي مـع مـا تيـسّر مـن معرفـة القـراءة والكتابـة التـي عـادة مـا تنتهـي بالنجـاح في قـراءة معـرض الخطـوط بـدون أغـلاط، وتـلاوة مـا يتيـسّر مـن القـرآن الكريـم، وحفـظ جـدول الـضرب. هـذا مـا حصـل لإخـوتي، ومـا كان يمكـن أن يحصـل لنـا.. حظينـا بفرصتنـا للتعلـم وإن كان في الحـد الأدنى مـن مقوّماتـه.. مـن ذلـك، اقتنـاء اللـوازم المدرسـية، أو الثيـاب اللائقـة التـي لا بـد منهـا لارتيـاد المدرسـة.. المشـكلة الثانيـة، قـضى عليهـا الأسـتاذ بارتـداء المريـول الأسـود للصبيـان بـأزراره البيضـاء، وبإضافـة الياقـة البيضـاء للبنـات.. ولا يهـمّ، مـن بعـد، مـا هـو موجـود في الداخـل.. أمـا المشـكلة الأولى، فكنـا نقيـم المناحـة عنـد شراء الكتـب أو الدفاتـر، وحتـى قلـم الرصـاص والممحـاة، ناهيـك عـن الريَـش العربيـة والفرنسـية لكتابـة الفـروض والمحـبرة البيضـاء المشـنوقة في فتحـة المقعـد الخشـبي.

كل ذلـك لا يهـمّ.. بـل المهـم أكـثر كان التعلـم وارتيـاد المدرسـة.. لم أدرِ حينهـا لمَ كانـت المدرسـة حاجـة ملحّـة لنـا. هـل لأن جميـع الأقـران ورفـاق اللعـب يتعلمـون؟؟ أم لأن العلـم حاجـة ماسـة لنـا، ولا شيء بـدلاً عنـه لتسـتوي أوضاعنـا مسـتقبلاً مـع أوضـاع بقيـة الأبنـاء؟؟ أم لأننـا دخلنـا قـسراً إلى المدرسـة، ولا إرادة لنـا في ذلـك؟؟ لا أدري بالضبـط.. ربمـا الجـواب مـن ذلـك كلـه.

أذكـر تمامـاً أن بدايـة اهتمامنـا بالـدرس كان خوفـاً مـن عقاب الأسـتاذ، وزربِ الكسـول عـلى الفرصـة الصغـيرة وفرصـة الظهـيرة، بعـد الوقـوف نصـف سـاعة عـلى حائـط الكنيسـة المواجـه للمدرسـة، وأمـام أنظـار المـارّة وسـخريتهم؛ ومـن ثـم الذهـاب إلى البيـت، لنصـف سـاعة، للغـداء.

كابـوس رهيـب كان يتملّكنـي عنـد التفكـير في هـذا المسـار الناشـئ

عـن عـدم القيـام بالواجبـات المدرسـية.. أمـا الـدرس، فـكان جلّـه قائمـاً علـى الخـوف مـن الوقـوع في هـذا المـأزق الـذي يُخـرج الكسـل مـن نطاقـه الضيـق، إلى المجـال العـام.

بمجـيء الأسـتاذ يوسـف، بطُلـت الوقفـة عـلى جـدار الكنيسـة، وبقيت زربـة الظهـيرة مـع مـا تيسّر مـن الـضرب عـلى اليـد بقضيـب الرمـان، ثـم بخيزرانـة غليظـة مـا زالـت ترجّـف يـدي عنـد تذكّرهـا. مـرات قليلـة تخـدّرت يـداي مـن سـطوة الخيزرانـة، ومـن غضـب الأسـتاذ يوسـف.. وعـلى أي حـال، كان الـضرب أخـفّ وطـأة مـن الوقـوف عـلى حائـط الكنيسـة.

كان الخـوف مـن العقـاب، عـلى أي وجـه كان، المحفّـز الأسـاسي عـلى الـدرس وكتابـة الفـروض في شـكلها الجيـد، ومضمونهـا الـذي يـدل عـلى الاهتـمام، وإن كان فيـه بعـض الأغـلاط، أو جـل مـا فيـه. وإذا أحـدٌ منـا قـال غـير هـذا الـكلام في وقتـه، مـن المؤكـد أنـه كاذب.

مـا كان يفعلـه العقـاب فينـا هـو تذكّـر الغلـط لعـدم الوقـوع فيـه في المقبـل مـن الأيـام، والاهتـمام بالـدرس لتجنّبـه.. العقـاب يتضاعـف عنـد تكـرار الغلـط نفسـه.. والمكافـأة لمـن تعلّـم مـن غلطِـه.. ولهـذه المبـادرة ذكـرى طيبـة.

بعـد أن ينفّـس الأسـتاذ عـن غضبـه بالـضرب والتقريـع، وبعـد أن يسـود الخـوف التلاميـذ بأيدهـم المخـدرة والوجـوه المحمـرّة، كان يرسـل أحدنـا إلى الـدكان المجـاور للمجـيء بالكرميـل الخمـري الكروي الطيـب ويوزّعـه علينـا مبتسـماً، ليقـول «كل هـذا مـن أجلكـم». كنـا نحـس بلـذة طعـم الكرميـل الخمـري، لا أدري لِمَ. هـل لأنـه فعـلاً طيـب، أم لأنـه جـاء بعـد موقعـة رعـب، ليدلّـل عـلى هـدوء غضـب الأسـتاذ وتسـامحه، وانتهـاء الكابـوس؟؟ غالبـاً مـا كان يحصـل ذلـك في حصتَـي الحسـاب والإمـلاء الفرنـسي، وهـما المادتـان الأساسـيّتان في امتحـان الشـهادة الابتدائيـة، في سـنة غـاب الأسـتاذ عـن التدريـس

قهـراً لثلاثـة أشـهر، ولتصميمـه عـلى إنجـاح الجميـع.. كان ذلـك في العـام 1962.

هـذا الـكلام يوصلنـي الآن إلى القـول إن هـذه الفـترة المفصليـة مـن حيـاتي أوصلتنـي إلى النجـاح في سـنواتي اللاحقـة، حبـاً بالـدرس، بعـد أن تعـوّدت عليـه خوفـاً مـن العقـاب.. أصبـح الـدرس والتحصيـل العلمـي سـجيّة عنـدي وعـادة، رغـم كل الأحـوال الضيقـة المحيطـة بي.. ومنهـا مـا حصـل في أول سـنة دراسـية في المدينـة.

عـادةً مـا كنـا نغـادر الضيعـة إلى المدينـة بعـد ظهـر الأحـد مـن كل أسـبوع.. في يـوم أحـد، مـا كان معنـا مـال، ولا مـع أمـي.. أبي خـارج المنـزل، وعمتـي المجـاورة لنـا في سـكنها لا تحمـل منـه شـيئاً، ولا أحـد في المنـزل سـواها..

مـاذا علينـا أن نفعـل والشـمس مالـت إلى المغيـب، وعلينـا أن نمـشي إلى المنيـة لتقلّنـا سـيارة إلى طرابلـس.. قـررت وأخـي أن نمـضي سـيراً عــلى الأقــدام.. ولا شيء يخيــف طالمــا نعــرف الطريــق. ومشــينا.. سـمعت أمـي تقـول.. حوّلـوا عـلى عمكـم توفيـق.. كان عمـي توفيـق وقتهـا رئيسـاً لبلديـة المنيـة.. وطريقنـا التـي علينـا سـلوكها تمـر مـن أمـام منزلـه.. ولحسـن حظنـا في هـذا الوقـت الصعـب، حظينـا بـه مختليـاً مـع أحدهـم إلى جانـب الطريـق، فركضـت نحـوه وغمرتـه..

- ولاه شو عم تعملو هون؟؟
- نازلين عطرابلس، وما في سيارة.. فهم علي بسرعة وندَه:
- عبود..
- نعم أبي، صوت من الداخل..
- تعا وصّل ولاد عمك على طرابلس..

غمامة انزاحت عن عينّي.. ووصلنا إلى المدينة سالمين.

7

الثورة

كان اسـمها ثـورة.. هكـذا عرفناهـا، وهكـذا بقـي اسـمها.. فعـل سياسي مسلّح ضد توجه حكم شمعون المناهض للناصرية، الهوى العروبي الذي دغدغ قلوب المسلمين السنّة في لبنان في أكثريتهم الساحقة، مطعّمين بأقلية مسيحية وشيعية، مقابل الهوى الغربي الذي دفع شمعون إلى محاولة الدخول في حلف بغداد للوقوف ظاهراً في وجه المدّ الشيوعي في المنطقة، وضمناً في كبح جماح عبد الناصر الطامع في قيادة العرب وتمثيلهم أمام العالم، وإن كان بالاتّكاء على السوفييت في المنطقة.. إلا أن ما كان يبغيه عبد الناصر هو التفتيش عن قوة ثالثة، تقوم بذاتها، ولذاتها، باستحضار وجودها مقابل القوّتين العظميين.. وتفتّق هذا المبتغى على قيام دول عدم الانحياز. إلا أن ذلك لم يؤثّر في التوجه العالمي نحو الثنائية القطبية، وتوازن الرعب والحرب الباردة..

أقول هذا الكلام، وأنا أتذكّر كيف ظهرت لنا الثورة في ضيعتي، وكيف ساهمت في تخويفنا، إن كان من الطيران الحربي اللبناني، أو من الثوار الذين كانوا يعبرون ضيعتنا ذهاباً وإياباً في التصويب على موقع الجيش في جبل تربل، ومن ثم العودة إما سالمين، أو بعضهم محمّلاً على عوارض خشبية من تأثير الألغام. في هذه الحالات، يوقظ القادمون أبي لفعل أي شيء لإيقاف النزيف، قبل وصولهم إلى المستشفى..

استفقت في منزلنا الجديد على صورة لرجل عسكري، في إطار مذهب، معلّقة في صدر الصالون، عرفت فيما بعد أنها لعبد الناصر، زعيم الثورة العربية. كثيراً ما كان يتباهى بها أبي.. وهي

المهداة له من عمي توفيق. وقد ردّد على مسامعي، ومسامع الضيوف، في كل مرة يُسأل عن الصورة، أن هذه ستحمي البيت في حال نجحت الثورة، وسيبقى وحده، ولو أُحرقت كل منازل الضيعة. ومن جملة ما كان يرويه أبي حول شخصية الصورة، أن كثيراً من الثوار كانوا يتوجهون إلى عبد الناصر بالدعاء والمساعدة على النصر، وكأنه واحد من الأولياء. هذه المحطة في الإياب من الجبهة، أتاحت لأبي أن يتعرّف على كل ثوار المنية من رؤوسها إلى الأنفار فيها.. وعقد معهم صداقات بقيت متداولة حتى اللحظات الأخيرة من حياته. وأكثر ما كان يتباهى به أمران؛ الأول، شفاء الكثيرين على يديه، إن كان في تضميد جراحهم البسيطة، أو في إيقاف نزيف من كانت حالته أشد تعقيداً.. وقد توفي أكثر من ثائر بين يديه. أما الثاني فهو رفضه قبول أي بندقية حربية كهدية، وقد عُرضت عليه بنادق كثيرة.

ما أخافنا، نحن الصغار، زمن الثورة، أمران.. الأول، تغلغل الثوار في الوادي المحاذي للضيعة والمخفي عن أنظار الطيران الحربي في النهار، وتحرّكهم في الليل صعوداً ونزولاً إلى ومن جبل تربل، الموقع الرئيسي للجيش. كان أهالي الضيعة ملزمين بتقديم قسم من الطعام لهم، لأن ما كانوا يحصلون عليه من قيادة الثورة غير كاف..

علمت القيادة العسكرية بأمر مساعدة الضيعة للثوار، فأرسلت من يخبر الأهالي بوجوب حضور إثنين لمقابلة القائد العسكري للموقع.. ذهب أبو رزق وأبو فريز لمقابلة القائد، فأبلغهما بوجوب إخلاء الضيعة من الثوار خلال أربع وعشرين ساعة، وإلا سيعتبر الضيعة معادية ويقصفها حتى تتسوى بيوتها بالأرض.. عاد الرسولان مرعوبَين، وأبلغا أهالي القرية بقرار القائد.. فدبّ الرعب فيهم.. ماذا عليهم أن يفعلوا، وهم بين مطرقة الثوار

وسـندان الجيـش.. والضيعـة مسـيحية في محيـط إسـلامي، لا حـول لهـم ولا إرادة في فعـل شيء..

هـذا مـا عرفتـه مؤخـراً. ولكـن مـا أصابنـا نحـن الصغـار أن جُمعنـا في الكنيسـة، البنـاء الأثـري ذي العقـود الضخمـة المنيعـة في قريـة أكثريـة بيوتهـا السـاحقة ترابيـة.. منظـر لا يمكـن أن أنسـاه.. صراخ الصغـار يمتـزج بدعـاء النسـوة لتخليصنـا مـن هـذا الوضـع.. وبقينـا إلى مـا بعـد انتهـاء مـدة الإنـذار ولم يحصـل مـا كنـا نخـاف منـه، وعلمنـا فيـما بعـد أيضـاً، أن الثـوار انسـحبوا مـن الـوادي.. ومـا كان علينـا أن نعـرف كيـف أو لمـاذا..!

أمـا الأمـر الثـاني، الأشـد رعبـاً، فهـو قصـف الطـيران الحـربي لموقـع بالقـرب منـي، مـا جعلنـي في حالـة مـن الرعـب دامـت أيامـاً.. وقـد عـادت هـذه الذكـرى إلى ذهنـي إبـان الحـرب الأهليـة بعـد ذلـك بعقديـن.. كنـت مقتنعـاً أن كل شيء يهـون مـا عـدا قصـف الطائـرات. قناعتـي هـذه، سـهلت عـليّ أمـور الحـرب وسـماع صـوت المدافـع، طالمـا الحمايـة مؤمّنـة، وإن تعرضـت أكـثر مـن مـرة لمـوت محتّـم.. وكنـت أصـلّي دائمـاً أن لا يصـل الأمـر إلى هـذا الحـد..

كنـت في البسـتان مـع أخـي الأكـبر، وإذ بطائـرة حربيـة تعـبر فوقنـا عـلى علـو متوسـط.. فرحـت بمنظـر الطائـرة، وإذا بهـا تعـود أكـثر انخفاضـاً وبصـوت مرافـق لصفـير حـاد، ومـن ثـم ترتـدّ صوبنـا وهـي في انحـدار شـديد، وصـوت انفجـار ثـم صعـود للطائـرة مـن جديـد مـع انحـدار آخـر وانفجـار آخـر رافقـه صـوت رشـاش ضخـم.. في هـذه اللحظـة مـا أحسسـت إلا وأنـا في قلـب أجمـة كثيفـة مـن العلّيـق وأخـي فوقـي ليحمينـي.. رعـب شـديد لم أسـتطع الخـروج منـه بسـهولة، واسـتبدلت فـرح سـماع الطائـرة الحربيـة وشـكلها، بكراهيـة شـديدة لم أتخلـص منهـا إلى اليـوم.

ما حصل، كان بمثابة قلّة الحظ لسائق شاحنة من قرية ضناوية مجاورة، ينقل الفواكه إلى سوق الخضار في المدينة؛ وصودف مرور الطائرة الحربية. فانقضّت على الشاحنة وعطّلتها بقذيفة دخلت إلى قلب المحرك، ولحقت السائق برصاص الرشاش، وقد نجا منها لاختبائه تحت الجسر، وخرج سالماً بعد رحيل الطائرة. نزل بعض أهالي القرية فأنجدوه وأسعفوه وردّوه إلى بلدته سالماً. وجاء من نقل الشاحنة لإصلاحها.

بعد ذلك في أقل من شهر، ولا أزال أذكر، وكنت مع أهلي في البستان نفسه نقطف اللوبياء، والدنيا صيف، سمعنا صوت القطار الذي يمر في بلدة المنية باتجاه حمص أو منها.. وإذا بأبي يقول.. خلصت الثورة.. لم أفهم إلا بعد سؤاله..

- القطار توقف مع بدء الثورة.. والآن عاد.. هذا يعني أن الثورة انتهت.. ولا خوف بعد اليوم..

لا أزال أذكر كيف كان يتكّرر اسم فؤاد شهاب من الإذاعة بصيغ مختلفة: فؤاد شهاب، الأمير فؤاد شهاب، اللواء فؤاد شهاب، فؤاد عبدالله شهاب.. لم أعرف ما كان يعنيه ذلك.. ولكن علمت فيما بعد، أن مجلس النواب انتخب فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية.. واستفقنا في اليوم التالي على مئات المسلحين يدخلون الضيعة بكامل أسلحتهم وهم يحدون ويهزجون ويطلقون النار في الهواء.. لقد أتخمونا بالرصاصات الجديدة الفارغة التي كنا نجمعها.. وما عاد صوت الرصاص يرهبنا.. كانوا في قافلة تمتد في شريط طويل يتوجهون بالابتهاج والفرح للقاء ضباط وأفراد الجيش اللبناني في تربل للاحتفال بالنصر بإنهاء حكم كميل شمعون، والترحيب برئيس الجمهورية الجديد.. منظر جميل لم يتغير فيه إلا استبدال رائحة الموت برائحة الحياة والفرح.

خسرت ضيعتنا في هذه الحرب جندياً في مدينة صيدا.. أصرّ على الخروج من مخبئه لمواجهة مهاجميه، أصيب في الرأس، بعد أن رد المهاجمين بوصول المؤازرة.. ولكنه مات.. لما وصل الخبر إلى الضيعة كنت في الجبل الذي يحمل البلاطة المسطحة.. رأيت مع قريبي رتلاً من الناس على الشفقة تتجه نحو الطريق المحاذي للضيعة.. عرفنا أن شيئاً حدث.. كان خبر استشهاد كامل، الجندي الشجاع.. وقد رسخ في ذاكرتي، بعد ذلك، الاحتفال الضخم الذي أقيم له في ذكرى الأربعين، والصور الثلاث التي رفعتها أيادي رفاقه وهم يتمايلون حول النعش، ومنظر الضباط الكبار الجالسين على منصة عالية يراقبون المشهد بصمت.. كان ذلك بعد انتهاء الثورة بأيام. وكانت المرة الأولى التي أرى فيها ضباطاً كباراً. مات كامل، وبعده بقليل، مات أخوه جرجس، بمرض لم نعرف كنهه، وهو بعمري في التاسعة، وكان أقرب رفاقي إلي..

سبحان الله.. كيف تعود الذاكرة إلى زمن تخاله قد غاب في مجاهل النسيان..

8
في المدينة

فرحتي الأولى، كانت كما لم أفرح من قبل. قرأت اسمي في الجريدة بصيغته الثلاثية، وبالحرف المطبوع.. اسمي مطبوع في جريدة.. يا لفرحتي.. يخبرني بأنني صرت من حملة الشهادات.. وعلي أن أتصرّف بما يمليه علي هذا الموقع الجديد.. الساعة أولاً.. على الساعة أن تزيّن معصمي.. هكذا وعدني أخي نافذ.. إبو علي فيما بعد. وعليه أن يفي بوعده.. ما كان يخطر ببالي من أين سيأتي بالمال، وهو يعمل باليومية، وكان حينها عاطلاً عن العمل.. لم أعرف إلا الوعد وعليه أن يفيه.. سكتَ على مضض، وأنا لم أسكت. بعد سنة، وبعد انتقالي إلى المدينة للدراسة فيها، جاءتني الساعة، ماركة Rodania فإذا هي مستعملة ، وبدل الرقم 3 فيها كان ثمة تجويف يدل عليه..

– خود هيدي هلأ.. وبعدين بجبلك وحدة جديدة..

وضعتها في معصمي بامتعاض، ولكن دون أن أُظهر ذلك.. بقيت في يدي أشهر ثم أضعتها بعد غسل يديّ على العين.. ووجدتها بعد مدة في معصم أحد الرفاق، فانتزعتها منه.. تحسّرت لأنها اختفت.. وبودّي لو أسترجعها ولو خسرت كل ما لديّ من الساعات.

كنت بدأت أعي وضع أخي، وضيق ذات يده، وهو الذي لم يبخل علي يوماً، إذا كان لديه ما يتيسر.. ولا أزال أذكر أول محفظة قدّمها لي، قابلها رفاقي بسخرية، واعتبروها شنتة للمطهّرين.. لا لتلميذ مدرسة.. كنت مسروراً بها لأن الكحل أحلى من العمى.. ولأن ما كان لديّ لا يتعدى المزود القماشي الذي خاطته أمي لي،

ومثلـه لأخـي.

انتقلـت مـن المحطـة الأولى في حيـاتي المدرسـية إلى مرحلـة جديـدة لا أعـرف عنهـا شـيئاً، ولا كيـف عليهـا أن تبـدأ.. مـا شـغلني هـو التصريـح لي مــن أبي بالذهــاب إلى مدرســة المدينــة.. حتــى تلــك اللحظـات السـعيدة، مـا كنـا لنفكـر، لا أنـا، ولا أبي عـلى مـا أظـن، بمـا سـتأتي بـه الأيـام في مـا يخـص اسـتمرار تعلّمـي.. أو توقّفـه.. الشـهادة الابتدائيــة (السرتيفيــكا) في جيبـــي.. وبــدأت بالتطلــع منــذ تلــك اللحظـات إلى البروفيـه عـلى أنهـا حلـم حيـاتي، ومطمحـي في الوصـول إليهـا.. درجـة.. درجـة.. ولا شيء غـير ذلـك..

كنــت أدرك، وباللاوعــي، أن المخــرج الوحيــد للخــروج مــن حيــاة الفقـر والبـؤس، التعلـم. وباللاوعـي، كنـت أدرك أن التعلـم والشـهادة هـما الاسـتثمار الوحيـد في مسـتقبل لا يلـوي عـلى شيء، إلا الشـهادة والوظيفـة. مطمحـي كان أن أصـير معلـماً بشـهادة البروفيـه.. حلـم لا أجـده مسـتحيل التحقيـق بعـد سـنوات أربـع أقضيهـا في كنـف أخـي صاحـب محـل الحلاقـة في المدينـة. ومـا عـلي إلا أن أعمـل عـلى إقنـاع أبي إذا رأيـت إمكانيـة وجـود مانـع لديـه.. محـل أخـي ورأيـه بيضـة القبـان في هـذه المسـألة.. وكان أن انتقلـت إلى المدينـة وتسـجّلت في مدرسـة الزهريـة بحضـور أبي الـذي كانـت لـه علاقـة وثيقـة بمديرهـا الأسـتاذ نسـيب، بينـما التحـق رفاقـي بمدرسـة النمـوذج، وثانويـة الزهريـة للبنـات.

إلتحقـت بالمدرسـة، وأويـت إلى مسـكن مشـترك لأخـي وشـباب مـن الضيعـة يعملـون في المدينـة. روف جميـل ومطـلّ في مبنـى ملاصـق لمدرسـة طرابلـس الإنجيليـة للبنـات. خلافـات حدثـت وضجيـج لم يتناسـب مـع تلميـذ يسـكن حديثـاً في المدينـة.. انتقلنـا إلى منـزل آخـر يشـغله تلاميـذ مـن رفاقـي مـع شـاب يعمـل في المدينـة.. لم يكـن لسريرنـا المشـترك مـكان إلا في الصالـون.. جـو الـدرس والرفـاق كانـا

كافيـين لاسـتقراري وراحتـي.

أول مـا علّمنـي إيـاه أخـي قبـل بدايـة المدرسـة، أن عـليّ أن أقطـع مفرقـين مـن الرصيـف المحـاذي للمبنـى الـذي نسـكن فيـه ومـن ثـم أدخـل في المفـرق الثالـث لأصـل إلى المدرسـة بعـد مئـة خطـوة.. أول درس تعلمتـه في المدينـة..

سـارت الأمـور وأنـا مبهـور بمـا أرى وأسـمع.. أسـاتذة كثـيرون ونظّـار ومـدرّس رياضـة، ولـكل مـادة أسـتاذ.. ملعـب كبـير ودكان ومـاء للـشرب في حنفيـات، ومراحيـض عامـة للتلاميـذ تسـمع منهـا صـوت الميـاه المضغوطـة ذاتيـاً للتنظيـف، وملعـب شـتوي يقينـا المطـر وحـر الشـمس. نِعَـم مـن اللـه هبطـت عـلي، أنـا القـادم مـن مدرسـة لخمسـة صفـوف بمعلـم منفـرد دعمـه معلـم آخـر في منتصف السـنة، وفسـحة واسـعة ينتصـب في آخرهـا جـدار الكنيسـة الـذي اسـتعمله المعلـم الأول منصـة لاسـتعراض الكسـالى في فرصـة الظهـيرة..

هنـا لا بـد مـن إيضـاح لمعرفـة كيفيـة توزيـع الـدروس قبـل أن يتغـير توقيتهـا مـع بدايـة الحـرب الأهليـة في منتصـف السـبعينيات..

كان البرنامـج اليومـي للتلاميـذ، وقـد تجـاوزوا الخمسـين سـنة، اليـوم، مقسّـماً إلى سـت حصـص: إثنتـان مـن الثامنـة إلى العـاشرة، اسـتراحة لمـدة عشريـن دقيقـة؛ حصتـان حتـى الثانيـة عـشرة والثلـث؛ فرصـة الظهـيرة إلى الثانيـة، ومـن ثـم حصتـان حتـى الرابعـة مسـاء..

سـاهم هـذا التوقيـت بترسـيخ أوثـق العلاقات بـين التلاميـذ، وخصوصاً القادمـين مـن خـارج المدينـة الذيـن عليهـم أن يبقـوا في المدرسـة.. كانـت الاسـتراحة مناسـبة للتفاعـل فيـما بينهـم.. كـما كانـت فسـحة للعـب والعـراك، إلى جانـب عقـد الصداقـات.. مـن جهتـي، لا تـزال تربطنـي حتـى اليـوم صداقـات متينـة مـع الكثيريـن مـن رفـاق تلـك الفـترة..

وأكـثر مـا كان يلفتنـا في فرصـة الظهـيرة تجمّـع تلاميـذ ديـر عـمار مـن كل العائـلات لنـصرة تلميـذ منهـم إذا تعـرض للأذيـة مـن أي تلميـذ آخـر.. كان سـلوكاً مميّـزاً لفـت نظرنـا جميعـاً.. وحفّـزني لأكـوّن أفضـل صداقـاتي وأمتنهـا مـع تلامـذة هـذه البلـدة الطيبـة.

مـا لا أزال أذكـره، وبالوضـوح التـام، تلـك الصداقـة التـي ربطتنـي مـع عثـمان، والمتلازمـة مـع منافسـة مضمـرة؛ وهـو إلى اليـوم صديـق عزيـز.. كنـا نتنافـس عـلى الأولويـة في الشـعبة ج من السـنة المتوسـطة الأولى.. وقـد وصـل الأمـر إلى تنظيـم جـدول علامـات لـكل منـا، بمعـزل عـن الآخـر، أسـجل علاماتـه وعلامـاتي، وكذلـك يفعـل.. انتهـت السـنة الأولى دون أن يسـبقني، مـع بقـاء الهـم في احتـمال التفـوّق عـلي في السـنة التاليـة.. وأكـثر مـا فاجـأني عـدمُ التحاقـه بالمدرسـة في السـنة الثانيـة.. منعتـه ظـروف أهلـه مـن مواصلـة التعلـم.. وهـو اليـوم حـاج، وتاجـر كبـير..

كان عـلي في مسـكني الأول أن أبقـى وحيـداً بعـد مجيئـي مـن محـل أخـي برفقتـه.. عندمـا نصـل إلى مقابـل المبنـى، أنفصـل عنـه ليضمّنـي المنـزل وأنـصرف إلى دروسي، ويكمـل هـو طريقـة إلى محلـة التـل للتسـلية مـع أصدقائـه ومعارفـه. أجـد نفـسي وحيـداً.. أقـوم بواجبـاتي المدرسـية.. لا شيء آخـر.. وأستسـلم إلى النـوم.. وغالبـاً مـا يـأوي الآخـرون، دون أن أحـس بحضـور أي واحـد منهـم.. إلى أن جـاءت ليلـة المواجهـة العسـكرية بـين الاتحـاد السـوفياتي والولايـات المتحـدة.. وهـي مـا عرفـت بأزمـة الصواريـخ الكوبيـة.. كان ذلـك في تشريـن الأول 1962..

في تلـك الفـترة ظهـرت الصحـف في المدينـة وهـي تشـير، ولأيـام متتاليـة، إلى احتـمال نشـوب حـرب عالميـة بـين الاتحـاد السـوفياتي والولايـات المتحـدة بسـبب وجـود صواريـخ نوويـة في كوبـا القريبـة مـن الولايـات المتحـدة.. ترافـقَ ذلـك مـع رفـض أمـيركي وصـل في أوجه

إلى اعـتراض مسـار السـفن الحربيـة السـوفياتية المتجهـة نحـو كوبـا.. في هـذه اللحظـات كنـت وحيـداً في المنـزل، وإعـلان الحـرب وبدؤهـا يمكـن أن يحصـلا في أي وقـت.. أرعبنـي التفكـير بقيـام الحـرب وأنـا وحيـد في غرفتـي، وكأن الحـرب موجّهـة إلي مبـاشرة.. مـا اسـتطعت إكـمال دروسي، ولا النـوم.. تفكـيري منصـبّ عـلى كيفيـة مواجهـة المـوت وحيـداً.. لا راديـو لأسـمع مـا يحصـل ولا أخبـار.. بقيـت سـاهراً بالعتمـة، متقلّبـاً في الفـراش، إلى أن حـضر أخـي.. طمأننـي بعـد أن وجـدني مسـتيقظاً..

– لا تخاف، ما بقى في حرب..

وعرفـت في اليـوم التـالي أن البواخـر السـوفياتية انسـحبت، وعـادت مـن حيـث أتـت..

مـا كان جديـداً عـليّ الإضرابـات الطالبيـة.. لم يحصـل ذلـك معنـا مـن قبـل. أمـا هنـا، فـإن الوضـع اختلـف، وكانـت مناسـبات الإضراب متعـددة.. مـا كان عـلي أن أضرب، لأن لا مـكان أذهـب إليـه إلا محـل أخـي.. والقعـدة هنـاك أصعـب مـن البقـاء في المدرسـة.. هكـذا كنـت أبقـى مـع تلميذيـن أو ثلاثـة لا ملجـأ لهـم سـوى المدرسـة.. كان الأسـاتذة مضطريـن للبقـاء معنـا.. مـع ظنّنـا أن هـذا يرفـع مـن مقامنـا عندهـم.. وقـد عرفـت متأخـراً أن بقاءنـا كان يزعجهـم دون أن نـدري، لعـدم الفائـدة مـن وجودنـا معـاً لأن لا دروس سـتُعطى في يـوم الاضراب. هنـا، تحـضرني ذكـرى ذلـك الاضراب الـذي أفشـله المديـر عندمـا حـضر إلى المدرسـة في السـابعة والنصـف ليجـد الطـلاب جميعهـم في الشـارع.. كان التلميـذ محمـود عـلى البـاب مانعـاً دخـول التلاميـذ إلى الملعـب.. وقـف المديـر مقابلـه وسـأله عـما يفعـل.. كان محمـود شـاباً وفي صـف البروفيـه..

– اليوم إضراب..

- شو السبب؟؟ سأله المدير..

- بدنا التجديد لرئيس الجمهورية فؤاد شهاب.. كان ذلك في منتصف العام 1964..

- هلأ أنتو بدكن تجددو لفخامة الرئيس؟؟ قبل أن ينهي قوله، تناوله بصفعة قوية أسمعها للمتحلقين جميعاً.. وأردفها بالقول:

- فوتو انقبروا لجوا كلكم لشوف..

في لحظة لم يبقَ أحد في الشارع، وتسابق الجميع للدخول إلى حرم المدرسة.

منذ بداية السنة لم أطق مواد الرياضيات، الجبر على الخصوص.. لقد قضيت السنة كلها برعاية الأستاذ فهد. كان يشرح ويكتب على اللوح ويمحو.. ثم يشرح ويكتب ويمحو دون أن أفقه، وكثيرين غيري، شيئاً. وما كان أحد ليجرؤ على سؤاله أو الاستفهام عن أي نقطة غامضة.. وبقيت في السنة التالية على هذه الحال. كانت علاماتي في المواد الثلاث دون الثلث، ومع ذلك كان ترتيبي الأول في الصف في السنة الأولى، وبين الخمسة الأوائل في السنة الثانية.. ولم أصل إلى المعدل في السنتين التاليتين إلا برعاية واشراف الأستاذ قرحاني الذي فهم سبب ضعفي وساهم في تحسين وضعي الرياضي، مع أنني كنت من الثلاثة الأوائل في الصف.. أما العلوم والاجتماعيات واللغة العربية فكنت مجلّياً فيها.. وما أعاقني في التقدم باللغة الفرنسية، عدم اهتمام الأساتذة بهذه اللغة منطلقين من الضعف المتأصل لمتعلميها في المدرسة الرسمية.. لم أستفد كثيراً عما حصلته في المرحلة الابتدائية، ولم يحفّزني شيء للاهتام بهذه اللغة، إلى الدرجة التي لم أقتنِ قاموساً لها، مفرد اللغة أو ثنائيّها، إلا بعد الانتهاء من المرحلة الثانوية.. كان ذلك

أساس الضعف الذي تأصّل في تحصيلي، زاد عليه عدم اهتمام أستاذ اللغة في السنتين الأخيرتين للمرحلة المتوسطة الذي طلب منا تحضير وظيفة في الإنشاء الفرنسي في أول السنة الثالثة، وأخذ منا الدفاتر وأنهينا المرحلة المتوسطة كلها قبل أن يعيدها إلينا.. ولم تزل بحوزته حتى الآن، وقد رحل منذ سنوات عن هذه الدنيا.

أضحت اللغة الفرنسية المعوّق الأساسي لمسيرتي العلمية.. هي التي منعتني من النجاح في مباراة الدخول إلى دار المعلمين، وإنهاء مباراة دورة المعلمين في العام 1966.. وفي ذلك قصة طريفة تستحقّ أن تُروى..

في مباراة الدخول إلى دار المعلمين كنت في غرفة واحدة مع رفيقي نظير، أصبح فيما بعد عديلي. كان مقعده على مقربة مني.. بدأ الامتحان.. وبسهولة أجبنا عن الأسئلة.. إلى أن وزعوا علينا مسابقة الإنشاء الفرنسي. قرأت النص الذي يتناول النظام وفوائده.. ولكي أتحقّق من كلمة النظام بالفرنسية Ordre أجابني همساً. فهمت أنها تعني الظلم بدل النظام.. قرأت النص بهذا المعنى، ورأيت أن من الممكن التوسيع على هذا الأساس.. خرجت عن الموضوع، بعد أن لعنت الظلم والظالمين.. نلت علامة لاغية منعتني من النجاح مع أن علاماتي كانت فوق المعدل بأكثر من 40 علامة. لا نصيب لي في دار المعلمين.. بعد ذلك بشهر تقدمت إلى مبارة دورة المعلمين.. قدمنا مسابقة اللغة العربية عن العمل وأهميته.. ومن ثم جاءت مسابقة اللغة الفرنسية، فإذا بالموضوع نفسه الذي أخرجني من دار المعلمين.. أيقنت أن لا نصيب لي بالتعليم.. مزّقت المسابقة وخرجت من الغرفة.. وفي اليوم التالي تسجلت لإكمال تعلّمي في المرحلة الثانوية..

كان ذلك في أيلول 1966.. وثانوية طرابلس الملعب تفتح أبوابها

للمـرة الأولى. ثانويـة حديثـة بمبناهـا وقاعاتهـا ومختبراتهـا وقاعـة محاضراتهـا وملعبهـا الواسـع.. كانـت أجمـل أيـام الدراسـة، وإن انتهـت دون أن أحظـى بشـهادة الفلسـفة.. والحـق هـذه المرة أيضـاً، عـلى مسـابقة الفلسـفة العامـة الفرنسـية..

كان قـد أشـار علينـا الأسـتاذ نجـم أن نـدرس للفلسـفة العامـة كتابـاً واحـداً في علـم النفـس، وفصـولاً محـددة منـه، دون مـادتي المنطـق والأخـلاق. مـا يعنـي أن نعالـج إلزاميـاً موضوعـاً واحـداً مـن ثلاثـة مواضيـع.. درسـنا مـادة علـم النفـس، وحفظنـا مواضيـع موسّـعة.. وكان أن حملـت المسـابقة موضوعـاً يتعلـق بالعـادة، وهـو مـن المواضيـع المحذوفـة، فعالجـت موضـوع الأخـلاق إنشـائياً ولم أحـظ بعلامـة تنقـذني، لعـدم قـدرتي عـلى تعويـض الفـرق مـن المادتـين الباقيتـين.. كان امتحـان الفلسـفة يقـوم عـلى ثـلاث مـواد في دورات مـا قبـل 1971. الفلسـفة العربيـة والفلسـفة العامـة والعلـوم.. وأي تعـثر في إحـدى هـذه المـواد يـودي بـك إلى الرسـوب. وهـذا مـا حصـل معـي أيضـاً في الـدورة الثانيـة.

أعـدت سـنة الفلسـفة دون أن أدخـل إلى الثانويـة.. وتقدّمـت بطلـب حـر.. أجريـت الامتحـان وانتظـرت النتيجـة.. وكنـت متأكـداً مـن الفـوز.. وعشـية إعـلان النتائـج، ذهبـت كـما غـيري مـن الطـلاب إلى مقهـى الأندلـس لنسـتطلع النتائـج.. كان الأسـتاذ مـروان أحـد مصححـي الامتحانـات وأحـد رواد المقهـى.. عندمـا قدمـت لـه رقمـي تطلّـع في أوراقـه، ومـن ثـم نظـر إلي باسـتهزاء، وقـال:

– إنت شو بدّك بهالشغلة، ولشو عم تقدّم؟؟!

صدمني قوله واستفسرت عن السبب، قال:

– معك 22 علامة بكل المواد..!

أحسست وكأن الأرض تميد بي.. لا يمكن.. مستحيل.. متأكد أن علامة الفلسفة العربية أكثر من 60/40. الغلط مؤكد.. ومسابقة العلوم تمام التمام.. لا يمكن ذلك..!

توجّهت إلى البيت، وأنا مطأطأ الرأس، وصلت إلى ناحية الملعب البلدي.. على مشارف البساتين.. أضعت المنزل.. ما عدت أعرف كيفية الوصول إليه إلا بعد جهد.

لم أنم تلك الليلة، وأنا أترقّب صدور صحف الصباح. وقفت منتظراً وصولها إلى دكان جارنا، لأتأكد من النتيجة، وأنا في أسوأ حال.. فإذا بأخي ملحم، يطل من ناصية الشارع المقابل وهو يلوّح لي بصحيفة.. خارت قواي وتمسّكت بالحائط خوف الوقوع.. ناولني صحيفة الإنشاء الطرابلسية وغمرني معانقاً.. لم أصدّق.. ورويت له ما حصل معي عشية اليوم السابق.

- هذا اسمك شوف.. قال ناهراً..

رأيته.. ولكن لم أصدق..

جاء موزّع الصحف والمحل ما زال مغلقاً.. تناولت منه صحيفة التلغراف البيروتية، الناشرة الأساسية لأسماء الفائزين.. لم أجد اسمي على مساحة الصفحة.. والبقية في صفحة أخرى.. وإذا في آخر الأسماء عنوان صغير: المكمّلون في الفلسفة العامة.. كان اسمي موجوداً مع اسم طالبة واحدة فقط.. وكان أن تقدمنا في الدورة الثانية للنجاح في هذه المادة، لنستطيع الحصول على إفادة النجاح بشهادة الفلسفة.. كانت العلامة اللاغية حينها دون الـ 60/15.. كانت علامتي 60/10.. ما يعني أن لزمني 20 علامة لأعوض الفرق.. وهكذا حصل بنيلي 60/42 على الفلسفة العربية، و37.5/ 60 في العلوم.. ولم يلزمني إلا نصف علامة استلحاق لأنال الشهادة. هذه الأرقام لا تزال حية في ذاكرتي حتى اليوم.. وكان

همـي ذلـك اليـوم أن أعـود إلى الأسـتاذ الـذي قرّعنـي لأحـطّ عـلى عينـه.. لم أحـظ بـه.. ولكننـي ذكّرتـه بما قالـه لي بعـد ذلـك بثلاثـة عقـود.. أثنـاء مشـاركتي في نـدوة تنمويـة نظمتهـا زوجتـه الناشـطة في هيئـات المجتمـع المـدني. أحسسـت في تلـك اللحظـة وكأننـي استرجعت اعتبـاري تجاهـه. وحرصـت عـلى أن يعـرف أننـي حصلـت عـلى الدكتـوراه بعـد أن عرّفتـه عـلى اسـمي كمشـارك في النـدوة.. لم أفكـر في تلـك اللحظـة عـن سـبب كل هـذا الحـماس.. ولكننـي الآن أدركـت..

سـنة أولى أضعتهـا في تحصيـلي الثانـوي.. أعـرف أن ذلـك جـاء نتيجـة سـلوك انخرطـت فيـه مـع رفاقـي مـن ناحيـة، ومـع أخـي الـذي كان يتعهّـدني عندمـا عـرف أننـي مغـرم بفتـاة، مـن ناحيـة ثانيـة..

لم أدر لمَ كان عـلي أن أجـاري بعـض رفاقـي في صـف الفلسـفة، مـع أن ذلـك كان ضـد توجهـي العلمـي، وضـد مواظبتـي عـلى الـدرس والتحصيـل.. كانـت بدايـة ذلـك، الفـوضى التـي سـادت في غـير الحصـص المعتمـدة لنيـل الشـهادة.. مثـل التاريـخ والجغرافيـا.. وكان لبعـض الأسـاتذة التأثـير السـلبي عـلى الطـلاب، مـا دفعهـم إلى إشـاعة الفـوضى في الصـف. وقـد وصـل الأمـر بثلاثـة مـن رفاقـي أن أشـعلوا النـار في كتـب التاريـخ داخـل الصـف، لحظـة دخـول أسـتاذ الكيميـاء.. فقفـل عائـداً بسرعـة، ليطـلّ بعـد لحظـات بصحبـة المديـر حسـن الحجـة الـذي لم ينجـح بمعرفـة مشـعل النـار.. مـع أن الصـف كلّـه يعـرف.. ويعـرف أيضـاً، أن أسـوأ تهمـة وأحطّهـا هـي الوشـاية. فـكان القـرار بطـرد الصـف بأكملـه لمـدة ثلاثـة أيـام.. عـلى أن يـأتي وليّ أمـر كل واحـد منـا في اليـوم الرابـع لمقابلـة المديـر.. أتـاح لنـا هـذا العقـاب فرصـة تنظيـم رحلـة بحريـة، بعـد أن نقلنـا أنطـوان صاحـب السـيارة الوحيـد في الصـف، إلى الميـنـاء عـلى دفعتـين، كل منهـا أحـد عـشر راكبـاً في سـيارته البيجـو 205 البيضـاء الصغـيرة.. ولم

أعـرف حتـى اليـوم كيـف اسـتوعبتنا.. التحيـة لأنطـوان الـذي أقلّنـا.. وقـد أضحـى مـن أنـزه القضـاة في لبنـان. عدنـا في اليـوم الرابـع ولم يـأت أوليـاء أمـور كثـيرون.. وبعـد الرجـاء سـمح لنـا المديـر بدخـول الصـف جميعـاً.. بعـد القَسَـم المعظـم بعـدم التكـرار.

ومـن أطـرف مـا حصـل في ذلـك اليـوم أن أحـضر رفيقنـا عـلي بائـعَ خضـارٍ يعرفـه، عـلى أنـه أبـوه.. لقـاء لـيرة لبنانيـة واحـدة.. إلا أن هـذا الأب المزيّـف لم يكتـفِ بالـليرة، بـل زاد عليهـا بـأن صفـع عليّـاً صفعـة قويـة ارتـجّ لهـا وجهـه، مـع القـول:

– نشالله مرة تانية بتعذّب المدير.. ساعتا بفرجيك.

كان ذلـك أجمـل منظـر حصلنـا عليـه في تلـك الأيـام الثلاثـة. وقـد جلجلـت ضحكاتنـا في المـكان.. كنـا جميعـاً نعـرف لمَ ضحكنـا.. إلا المديـر..

أمـا مـا حصـل مـع أخـي نافـذ، فشـأن آخـر.. كان، عـلى ضائقتـه الماديـة، حريصـاً عـلى تقديـم الـضروري مـما نحتاجـه.. وخطيبتـه تنتظـر الفـرج للـزواج، ولا زواج في المـدى المنظـور.. وعـرف أني أغرمـت وأنـا في الثامنـة عـشرة.. ولا أزال في البكالوريـا الأولى قبـل صـف الفلسـفة.. ولا أفـق مفتوحـاً.. ومـا زاد في الطـين بلّـة، وأدّى إلى انفجـار غضبـه، إحساسـه بأننـي لا أزال سـاهراً، بعـد سـماعه صـوت أم كلثـوم مـن الراديـو في حفـل مبـاشر لهـا. فنفـض اللحـاف عنـي والتقـط الراديـو بسرعـة وخبـط بـه الأرض، فتناثـر إلى شـقف صغـيرة.. كان ذلـك عنـد عودتـه مـن سـهرة طالـت حتـى الثالثـة صباحـاً..

تجادلنـا ووصـل الأمـر إلى أن مـدّ يـده عـليّ.. قـررت تـرك المدرسـة والعـودة إلى الضيعـة.. لم يـرض أبي بمـا حصـل واسـتدعى أخـي وتفاهمنـا.. مـا قالـه لي لا يمكـن أن أنسـاه.. وقـد كان المحفّـز الأسـاسي لفعـل المسـتحيل مـن أجـل النجـاح..

– ما بقى يطلع منك شي يا خيي.. شفلك شغلة اشتغلها.. بنات الناس مانن لعبة..

هاجر أخي إلى أستراليا بعد أن عجز عن تأمين ما يلزمنا من ضروريات الحياة، براتب شهري من شركة كهرباء قاديشا لا يتعدى الـ150 ليرة، وهو على أبواب الزواج.. كان الحل الوحيد عقد الإكليل عن «بو قريبو»، والسفر بعد أن استدان مبلغ الناولون، على أن تلحق به عروسه بعد استكمال المستندات اللازمة للسفر.. وتركنا نحن إلى مصيرنا.. كان ذلك في أيار 1970.. السنة التي حصلت فيها على شهادة الفلسفة في الدورة الثانية، وفي غيابه.

كان علي أن أتدبّر أموري مع أخي.. التحق هو بدار المعلمين في جونية، بعد نيله البروفيه؛ وعملت أنا في شركة للتأمين صيف سنتين وبقية السنة التي نلت فيها الفلسفة.. عملت في مدرسة خاصة في عكار براتب 125 ليرة في الشهر دون العطلة الصيفية.. وفي العطلة عدت إلى شركة التأمين.. كانت مهمتي تسجيل تأمين السيارات وتقارير الحوادث المنظمة من الخبراء لإرسالها إلى المركز الرئيسي في بيروت، إما بيدي أو بيد مدير الفرع في طرابلس. هذا بالإضافة إلى نارة الأركيلة لوالد المدير المقيم معنا في المكتب؛ أو بالأحرى نحن الذين أقمنا معه في شارع عز الدين، بعد فضّ الشراكة مع خبير ومدير شركة تأمين أخرى، كنا نقيم معه في مكتب واحد..

كان جلبُ النار من مقهى فهيم المجاور لنا أصعب مهمة لي على الإطلاق.. شاب في مقتبل العمر وشايف حاله، يحمل المجمرة ليجلب النار من المقهى؟ لم أتقبّل الأمر في البداية.. وكنت أتضرّع إلى الله ليعينني على تجنب الالتقاء مع أحد من معارفي.. بحثت الأمر بعد عذاب مرير، مع زهير الإبن، وهو رفيق في الحزب

الـذي انتميـت إليـه فيـما بعـد.. طلـب مـن أبيـه أن لا يفعـل ذلـك بي.. اكتفـى الأب، بعـد ذلـك، بالطلـب منـي أن أنـادي صبـي المقهـى ليجلـب لـه مـا يحتاجـه لأركيلتـه التـي لا تنطفـئ، إلا سـاعة الخلـود إلى النـوم.

كان دوامـي في العمـل مـن الثامنـة حتـى الواحـدة ومـن الثالثـة حتـى السادسـة، لقـاء راتـب شـهري بـدأ بمئـة لـيرة وانتهـى بمئـة وخمـس وعشريـن.. وفي بدايـة العـام الـدراسي 1969 - 1970 قدمنـي صديقـي ميشـال، رجـل الأمـن في مخفـر العبوديـة في عـكار، إلى الأسـتاذ دربـاس، صاحـب مدرسـة خاصـة في قريـة تلحمـيرة القريبـة مـن الحـدود السـورية.. وكان أن طلـب منـي الأسـتاذ ممارسـة التعليـم في مدرسـته لقـاء 125 لـيرة في الشـهر دون العطلـة الصيفيـة، كـما مـرّ.. وافقـت دون تـردد. وكان مـن جميـل صنيـع أبـو أحمـد مـن العبّودية، أن قـدّم لي غرفـة في منزلـه لأبيـت فيهـا مجهّـزة بمـا يلـزم دون مقابـل. وكانـت ابنتـه تحـضر لي طعـام الغـداء إلى الغرفـة بـكل طيبـة خاطـر.. مـا فعلـه أبـو أحمـد وابنتـه لي كان بمثابـة دَيـن في رقبتـي لـن أنسـاه مـا حييـت. ومـن جملـة مـا كنـت أقـوم بـه بعـد ظهـر كل يـوم، دراسـة وحفـظ مواضيـع موسّـعة في علـم النفـس باللغـة الفرنسـية أثنـاء وجـودي في المخفـر، أو عـلى ضفـاف النهـر الكبـير، أو أدرّس ابـن أحـد رجـال المخفـر مـن آل المقـداد في بيتـه.. كان يكتفـي هـذا بـأن يقـدم لي يوميـاً ركـوة قهـوة وعلبـة تبـغ.. ويـوم السـبت أعـود إلى الضيعـة عـلى دراجتـي الهوائيـة قاطعـاً مسـافة 20-25 كلـم في الذهـاب، ومثلهـا في الإيـاب. لم يـدم ذلـك أكـثر مـن سـنة دراسـية واحـدة..

في آخـر هـذه السـنة حصلـت عـلى شـهادة الفلسـفة، وتركـت العمـل القديـم، وانتميـت إلى سـلك التعليـم الرسـمي بالتعاقـد الشـهري مـع حملـة شـهادة القسـم الثـاني للعـام الـدراسي 1970 - 1971. وهـي

السنة التي انتميت فيها إلى الجامعة.. ولم يكن الدخول في سلك التعليم إلا الوسيلة المتاحة للحصول على الإجازة الجامعية.. وكانت في هذه الفترة حلم حياتي.

إلتحقت بمدرسة عمار البيكات الرسمية في عكار.. فإذا هي غرفة واحدة بثلاثة صفوف.. عندما دخلت ظن المدرس الموجود، وهو من عائلة دعبول، أنني مفتش تربوي.. وعندما علم أنني المدرس الجديد قفز نحوي وغمرني وعصرني، قائلاً:

– أهلا وسهلا.. فيك إجا الفرج.

علمت بعد ذلك أنه معلم منفرد وقد نجح في المدرسة الحربية وعليه أن يلتحق، وينتظر من يحلّ محله..

– يا الله.. كيف وقعت في هذا المأزق..؟ قرية نائية ولا مواصلات، وثلاثة صفوف في غرفة واحدة؟ والجامعة..؟

اسودّت الدنيا في عيني.. 225 ليرة شهرياً بحاجة ماسة إليها.. ولكن هنا؟؟ كيف آتي كل يوم.. وكيف أعود؟؟

صرفت التلاميذ، وتركت المدرسة مباشرة، والمطر يتساقط بغزارة.. مشيت تحت المطر مدة ربع ساعة لأصل إلى الطريق العام.. والمياه تغمرني.. مرت سيارات كثيرة ولم تتوقف أي منها، ربما لأنني مبلل بالكامل.. وما زاد من بللي وعصبيتي رشقي بالمياه من عجلات السيارات وهي في سرعتها القصوى.. ماء من فوق.. وماء من تحت.. فقرّرت أن أقف في منتصف الطريق ولو دهستني السيارات.. موقعي أجبر سيارة على التوقف.. كانت فارغة إلا من راكب واحد بجانب السائق.. حمدت الله ودخلت.. بادرني السائق بالقول:

لو الفرش مانو جلد ما كنت طلّعتك.. كلّك مي.. هكذا وصلت

إلى المنيـة، ومنهـا إلى الضيعـة بعـد انتظـار.

اهتديت إلى سائق السيارة الذي يقلّ المدرّسين يومياً إلى المنطقة..

– أهـلا وسـهلا فيـك.. بـادرني باسـماً.. لكـن لـدي أحـد عـشر راكبـاً.. فيـك تدبّـر حالـك..؟

– ألا توجد سيارة أخرى..؟ قلت له بقلق..!

– بـدك تحمـد اللـه وتشـكره أنـو في هيـدي.. أجـاب بثقـة، وكأنـه هـو الـذي يعطـي للمدرسـين فرصـة العمـل..

– أمـري للـه، سـأكون معكـم.. قلـت بيـأس.. وبأمـل لمـع في ذهنـي بإمكانيـة تغيـير المدرسـة.

– ويـن بتنطـرني؟؟ نحـن ننطلـق مـن أمـام مدرسـة الـروم في طرابلـس.. قـال لي..

– أنـا بالضيعـة وناطـرك عـلى مفـرق المخّاضـة في المنيـه.. قلـت لـه بثقـة..

– السـاعة سـبعة.. سـبعة ودقيقـة بمـشي.. قالهـا بحـزم وصـوت جازم..

صبيحـة اليـوم الأول توقفـت السـيارة بجانبـي عـلى الموعـد بالضبـط.. تطلعـت إلى الداخـل.. راعنـي مـا رأيـت.. ثلاثـة شـبان يجلسـون في المقدمـة وحشـد مـن السـيدات يجلسـن في الخلـف.. كـنّ سـبع..

– يـا اللـه.. أيـن سـأجلس..؟ وإذا بسـيدة تخـرج وتقـول إصعـد وأنـا أجلـس في حضنـك لا تخـف..!

كانـت بهيئـة امـرأة مكتملـة تقاسـيم الوجـه ولكنهـا قصـيرة جـداً، لا يتعـدّى طولهـا نصـف قـوام المـرأة العاديـة.. فوجئـت وأُحرجـت.. وإذا بالسـائق يقـول ضاحـكاً..

– اطلع ولا تخف..

طلعت. وإذا بها تجلس على فخذيّ بكل ثقة واطمئنان، وسط ضحك وصخب السيدات، وغمز ولمز الشباب.. حتى أن أحدهم بادر بالقول:

– سبب هذا الاطمئنان، إما الثقة المطلقة بالطيبة الزائدة للضيف الجديد، أو أنه لا يميل إلى النساء.. والسببان غير مقنعين لأن معرفتنا به جديدة..

أحرجني هذا التعليق، ولم أجب.. وبعد أن توثّقت علاقتي بالمجموعة، وأخذت راحتي في التعاطي معها.. أضفت سبباً ثالثاً بحثُ به على سبيل المزاح، وتلقّيت على أثره ضربة موجعة على الظهر.. بعد أن لمّح أحد الشبان بالتغريدة نفسها..

– ألم تفكروا في احتمال ثالث.. وهو أن المسألة لا تستحق المحاولة أو حتى التفكير فيها؟

لم أكمل الشهر في هذا التوجه.. وصارحت أبي بأنني لن أعود إلى التدريس في هذه الحالة.. كان ذلك يوم جمعة.. غاب أبي يوم السبت عن المنزل.. ولما عاد أسرّ لي بأن المشكلة انتهت..

– عليك ان تقابل أحمد آغا، نائب المنطقة، في بيته على مستديرة المطار في بيروت الساعة العاشرة، خذ العنوان..

لم أعرف أن الأمر يمكن أن يكون بهذه السهولة..

في الوقت المحدد كنت في غرفة الاستقبال بمحاذاة رجل متوسط العمر.. سألني عن اسمي وحاجتي.. دخل للحظات وعاد مع ورقة قدمها لي قائلاً:

– هذه الورقة من الآغا.. ضع عليها اسمك ورقم قرار

تعيينـك، والمدرسـة التـي تريـد الالتحـاق بهـا..

فـإذا هـي قـرار نقـل ممهـور عـلى بيـاض بتوقيـع وختـم مديـر التعليـم الابتـدائي نايـف معلـوف..

لم أصدّق مـا قـرأت، ولم أستوعبه.. أردت أن أقابـل الآغـا، وهـو لقـب النائـب أحمـد الفاضـل..

- نايـم ومانـو مبسـوط.. أكتـب مـا يلـزم في طلـب النقـل وسـلّمه إلى الدائـرة، والتحـق بالمدرسـة التـي تريـد.. فقـط سـجّل اسـمها وموقعهـا..

ذُهلـت وخرجـت مسرعـاً.. مـاذا عـلي أن أفعـل.. أي مدرسـة أريـد؟؟ مدرسـة الضيعـة؟؟ لا تفيـدني.. لا سيارات تقلّنـي إلى المدينـة للذهـاب إلى بـيروت.. إذاً، عـليّ الالتحـاق بمدرسـة النبـي يوشـع الأقـرب إلى ضيعتـي.. والسـيارات لا تنقطـع فيهـا.. وهكـذا كان..

أبلغـت دائـرة التربيـة بنقـلي مـن مدرسـة عـمار البيـكات، ولا مـدرّس غـيري فيهـا.. اضطـرت الدائـرة إلى إرسـال مـدرّس عـلى عجـل.. بعـد يومـين التحـق أحدهـم.. وكان استقبالي لـه مشـابهاً تمامـاً لاسـتقبال المـدرس لي عنـد وصـولي إلى المدرسـة.. وبوصولـه طلبـت منـه ان ينظم مغـادرة عمـل لتقديمهـا إلى مديـر مدرسـة النبـي يوشـع الـذي عليـه بـدوره أن ينظـم مبـاشرة عمـل في المدرسـة التـي يديرهـا.. نظّمهـا وأرسـلها إلى دائـرة التربيـة.. وبقيـت هنـاك..

هـذا القـرار - الواسـطة كلّفنـي تعويـض ثلاثـة أشـهر عنـد انتهـاء خدمـاتي بإحالتـي عـلى التقاعـد.. وكان المبلـغ الـذي خـسّرني إيـاه أكـثر مـن اثنـين وعشريـن مليـون لـيرة بعـد إحـدي وأربعـين سـنة مـن الخدمـة العامـة.. وكان لذلـك سـبب وجيـه..

كان قـرار النقـل خارجـاً عـن سـجلات مديريـة التعليـم الابتـدائي..

ولم يظهـر فيهـا أننـي انتقلـت إلى مدرسـة أخـرى.. بقيـت إسـمياً في المدرسـة الأولى.. قبـض زمـلائي رواتـب سـتة أشـهر.. لم يصلنـي شيء.. راجعـت في مديريـة التعليـم الابتـدائي.. لم أجـد اسـمي في المدرسـة الثانيـة.. لا وجـود لي في السـجل.. سـألني المسـؤول عـن قـرار تعيينـي وفي أي مدرسـة.. بعـد جـوابي، وجـد اسـمي في المدرسـة الأولى مـع ملحوظـة أننـي لم ألتحـق فيهـا.. سـوّيت وضعـي وقبضـت رواتبـي لأدفـع مـا عـليّ مـن ديـون..

لم أعـرف مـا ترتّـب عـلي مـن جـراء ذلـك إلا بعـد اثنتـين وأربعـين سـنة.. عندمـا فقـدت تعويـض ثلاثـة أشـهر لسـنة بعـد خدمـة الأربعـين، لم تلحظهـا وزارة التربيـة..

غـيّر هـذا الوضـع الجديـد في أحـوالي.. حصلـت عـلى فـراغ يومـين بعـد الظهـر لألتحـق بالجامعـة، فكانـا يومـي الثلاثـاء، والخميـس بـدل الجمعـة.. التوقيـت الجديـد حقـق لي دوامَ يـوم ثالـث هـو عطلـة الجمعـة في المدرسـة، بعـد توفّـر المبيـت عنـد أخـي لطيـف في جونيـة بعـد التحاقـه بـدار المعلمـين.

9
معالم المدينة

كان كل ما تعلمته في بداية إقامتي في المدينة كيفية الوصول إلى المدرسة، ومن ثم العودة إلى محل أخي في فرصة الظهيرة على الخط نفسه، ولكن في اتجاهين معاكسين.. على بعد مئتي خطوة عن يمين الطريق الرئيسية في الزهرية، شارع الاستقلال، وخمسين خطوة عن يمينها في التبانة، سوق القمح.

كان عليّ أن أتناول طعام الغداء مع أخي في المحل.. وهو عبارة عن زوّادة ترسلها أمي مع سائق سيارة الأجرة الثانية التي تربط الضيعة بالمدينة.. وكثيراً ما كان هذا يتناول الغداء معنا، إما بما هو حاضر أو يزيده بصحن حمص من المطعم المجاور.. ما كان يسرّني من وجبات الغداء هذه، اللوبية بالزيت التي تجيد أمي طبخها، والبطاطا المقلية المطفأة بالثوم، والبيض المقلي المشبع بالزيت.. ما عدا ذلك، لم يكن أكثر من وجبات نطفئ فيها جوعنا.. وما كان يسرّني أكثر، الأيام التي لا زاد فيها.. ما يعني أن غداءنا سيكون صحن الحمّص المزدوج من مطعم العم أبو علي، الأكرم والأكثر بشاشة من الناس أجمعين.. والصحن هذا، كثيراً ما كان أكثر من مزدوج لأن أخي يعفيه من سكب الزيت عليه، لوجود القنينة في المحل من زيت الضيعة الصافي.. كان أبو علي يكثر من سكب الفلفل الحار المطحون، ويتكارم في زيادة البصل والكبيس.. نأكل ونشبع ونشرب ونشكر الله، وأعود إلى المدرسة لملاقاة رفاقي، بانتظار الدخول إلى الصف في الثانية.

هذه الفرصة، بالاضافة إلى الفرصة الصغيرة التي تسبقها في العاشرة، وفّرتا علينا، نحن أبناء القرى المجاورة أن نتعارف أكثر ونتصادق أكثر، من بقية رفاقنا في الصف، بالإضافة إلى قلة قليلة

مـن أبنـاء المدينـة التـي كانـت تعـود باكـراً إلى المدرسـة للتسـلية معنـا وللتعـارف أكـثر.. كان مـن بـين هـؤلاء رفـاق مـن بيـت السـنكري والشـعراني وعثـماني وعزيـزة ونـصرة ومنصـور وعبداللـه وسـعادة وغيرهـم.. عقـدت صداقـات كثـيرة مـع هـؤلاء. ويعـود الفضـل في معرفتـي الرياضيـة والسـينمائية، والمعلومـات العامـة إلى الكثيريـن من هـؤلاء.. كان زهـير، وهـو الاسـتاذ الثانـوي المرمـوق، والمتقاعـد حاليـاً، هـو الـذي حبّبنـي بالسـينما، وعرّفنـي عـلى ألمـع نجومهـا، فحفظـت أسـماءهم قبـل حفـظ أسـماء العواصـم العربيـة والأجنبيـة وأنهـار لبنـان وخلجانـه.. وكان أن عشـقت السـينما، ونجومهـا وحفظـت أسـماءهم وأسـماء أفلامهـم، قبـل أن أحظـى بمشـاهدة الكثـير منهـا، إمـا لقـصر ذات اليـد، أو لعـدم إدراجهـا في الصـالات الرخيصـة في المدينـة، وخصوصـاً صالـة سـينما ديانـا المجـاورة لمحـل أخـي؛ السـينما التـي قلـما يفلـت فيلـم منهـا دون مشـاهدته..

في الرابعـة أعـود إلى أخـي ونبقـى معـاً إلى أن يقفـل محلـه ونعـود، أنـا إلى البيـت، وهـو إلى مـكان آخـر لا أعرفـه..

كان يـوم الجمعـة لي.. اليـوم الـذي يشـبع فضـولي في التعـرف عـلى معـالم المدينـة وأسـواقها، سـاحاتها وفسـحاتها، أزقتهـا وعقباتهـا.. كنـت في كل مـرة، أحـدد معلـماً رئيسـاً وأنطلـق منـه، وبعـد التعـب الـذي يأخـذني أعـود مسترشـداً بهـذا المعلَـم، لأصـل إلى محـل أخـي.

إنطلاقـاً مـن ضفـاف نهـر أبـو عـلي عـبرت الجـسر إلى بركـة الملاحـة والأزقـة المتفرعـة منهـا وصـولاً إلى سـوق النحاسـين بعـد التعـرف عـلى جامـع التوبـة وسـوق حـراج، وخـان العسـكر والتربيعـة وكنيسـتي مـار جرجـس ومـار نقـولا، ومدرسـة الفريـر ذات السـور العـالي.. كل هـذه الأسـماء عرفتهـا متأخـراً وبعـد مشـاهدتها ميدانيـاً دون أن أعـرف لهـا أي تسـمية..

كان عـليّ أن أتعـرف عـلى أسـواقها القديمـة الأخـرى مـن غـير معلَـم

جامع البرطاسية.. كان المعلَم الجديد الكنيسة الانجيلية في شارع الراهبات، مصدر كتبنا المدرسية وأدوات القرطاسية من مكتبة المعارف التي يعمل فيها، قبل بدء المدرسة، رفيقاي صبحي ونبيل عثماني اللذان كانا يسهّلان حصولي على كتبي ولوازمي المدرسية. من هذا الشارع عرفت الوصول إلى الجامع الكبير، المعلَم الرئيس الثاني الذي عرّفني على سوق العطارين والعقبات الموصولة به عمودياً، بالاضافة إلى سوق الصاغة والبازركان..

أجمل ما كنت أحس به، قضاء نصف النهار في التنقل بين هذه الجنبات دون ملل، ودون أي إحساس بالتعب.. وأكثر ما كان يسرّني هو النجاح في العودة إلى نقطة الانطلاق دون مشقّة تذكر.. إلا في مرات قليلة عندما أكمل مسيرتي قُدماً ناحية طلعة الرفاعية، لانشغالي بالتفرج، فأتجاوز معلَم الجامع الكبير وأصير في بقاع ما كنت لأعرف عنها شيئاً.. بقاع الدفتار وباب الرمل والمناطق المحيطة بجامع طينال، المعلم الجميل الذي تعرفت عليه بالصدفة في إحدى جولات ضياعي في أسواق وأزقة المدينة القديمة.

كان اهتمامي بالمدينة الحديثة أقل شأناً.. لقد تعرّفت على ساحة التل من خلال الجولات التي كنا نقوم بها في فرصة الظهيرة فاكتشفنا بناية الغندور وصالة البليار فيها، والبلدية وموقع المكتبة الأميركية فيها؛ المكتبة التي كثيراً ما كنا نطالع الكتب فيها في فرصة الظهيرة، بعد أن يأمرنا مديرها بوضع كتبنا على طاولة بجانبه حتى لا يختلط الحابل بالنابل، وحتى لا نتعلم أكل الحرام من الرزق الداشر.

في المدينة الحديثة، تعرّفنا على السينمات الغالية مع التحسر لعدم القدرة على الدخول إليها. كما تعرّفنا على المقاهي والمحال التجارية الغالية والواجهات التي تعرض ما يختص به هذا المحل

أو ذاك. كل ذلـك كان اكتشـافي الخـاص لما تحتويـه المدينـة، مـا زاد من معرفتـي بأحـوال الدنيـا ومقتنياتهـا، المضافـة إلى مـا اختزنتـه معرفتـي مـن أحـوال القريـة وشـؤونها.

إلا أن مــا زاد عشــقي للســينما، بالاضافــة إلى المعلومــات النظريــة والحكايـات التـي اسـتمعت إليهـا بشـغف مـن رفيقـي زهـير، إمكانيـة دخـولي السـهل إلى سـينما ديانـا بتذكـرة العشريـن قرشـاً.. كان مـن السـهل ادخـار هـذا المبلـغ لأدخـل إليهـا مرتـين في الأسـبوع لمشـاهدة فيلمـين.. كانـت السـينما تعـرض فيلمـين قديمـين مختلفـين في الأسـبوع الواحــد، وأحيانــاً ثلاثــة أفــلام، بعــد اســتهلاك عرضهــا في ســينمات الدرجـة الأولى والثانيـة في المدينـة.. وأكـثر مـا كانـت تسـتهوينا أفـلام هرقـل وماشيسـتي وطـرزان والمهابيـل الثلاثـة والأفـلام الحربيـة..

كانــت لحظــات الدخــول إلى قاعــة الســينما، مهــما كانــت نوعيــة الفيلـم أو موضوعـه، مـن أجمـل لحظـات الاثـارة والتشـويق، بـدءاً بقطـع تذكـرة الدخـول ودفـع العشريـن قرشـاً، وهبـوط السـلم الموصـل إلى القاعـة، وأخـذ المـكان المناسـب للجلـوس، ومـن ثـم انتظـار إطفـاء الأضـواء وعـرض الفيلـم المسـبوق بالمناظـر، بانتظـار المزيـد مـن المشـاهدين.. مـا يثـير فعـلاً الحاضريـن كان بدايـة إطفـاء الأنـوار بالتزامـن مـع تسلسـل ألـوان متعـددة كقـوس قـزح تترافـق مـع تصفيـق وصفـير الحاضريـن.. قمـة الاثـارة هنـا تترافـق مـع إضاءة الشاشـة والبـدء بالعـرض.. لم يكـن ثمـة مـا يضاهـي هـذه المتعـة، مـع مـا يرافقهـا مـن الاثـارة وحـرارة الانتظـار.

كان مــن الطبيعــي أن لا تتوفــر القــروش اللازمــة لدخــول الســينما، ولأسـباب متعـددة.. مـا كنـت أحصـل عليـه هـو هـذا الربـع لـيرة الــذي ينفحنــي إيــاه أخــي عنــد إغــلاق المحــل عشــية كل يــوم.. وفي حــال عــدم توفــر العشــاء يزيــد الخرجيــة إلى النصــف.. وعــليّ أن أتدبّـر أمـوري.. أحيانـاً كثـيرة كنـت أحصـل عـلى مـا يزيـد، مـن أبي

وإخـوتي، وأختـي الثانيـة ذات الأحـوال الميسـورة في كل مناسـبة تلقـاني فيهـا.. وفي حـال خلـو الجيـب مـن أي قـرش، كنـت أتجـوّل في محيـط محـل أخـي، أو أتوغّـل في سـوق القمـح الفوقـاني ذي المعروضـات المتنوعـة مـن الثيـاب والأقمشـة والأحذيـة واللحـوم والدواجـن والبقاليـات والسـمانة عـلى أنواعهـا.. كان سـوقاً مزدحـماً ويبعـث عـلى التسـلية وتجـاوز الضجـر.. هـذا بالاضافـة إلى التفـرج عـلى نهـر أبـو عـلي في أيـام الطوفـان.. وكان أن توسّـع مجـراه لمنـع تكـرار مـا حصـل في العـام 1955، وأدى إلى غـرق العـشرات. وحصـل مـرة أن اتـكأت عـلى حافتـه ومـددت يـدي فلمسـت المـاء المتدفـق.. هـذا كان مـن الجهـة الشرقيـة.. أمـا الجهـة الغربيـة فكانـت لا تـزال عـلى حالهـا، والميـاه تتدفـق بمحـاذاة الأبنيـة، وفي الشـكل الـذي يبـيّن أنهـا تغلغلـت ووصلـت إلى أساسـاتها.

مـن أهـم مـا حـدث معـي عـلى ضفـاف نهـر أبـو عـلي عنـد التفـرج عـلى تدفّقـه، أمـران. الأول، سـماعي لصـوت طقطقـة وكأنـه صـادر عـن هـزة أرضيـة دون ارتجـاج.. تطلعـت إلى ناحيـة الصـوت، فـإذا ببنايـة مـن سـبع طبقـات تهتـزّ وتبـدأ بالانهيـار البطـيء أمـام عينـيّ.. لم أصـدق مـا رأيتـه، وظننـت أن دواراً أصابنـي وأنـا أتأمـل منظـر الميـاه المتدفقـة في منظـر مخيـف.. حملقـت جيـداً وإذا بالمبنـى يهبـط مـع صـوت رهيـب وغبـار كثيـف غطـى المـكان.. أسرعـت لإبـلاغ أخـي بمـا رأيـت وأنـا أصرخ..

- بناية هبطت على سكانها، قلت له وأنا أبكي..!
- وين ولا.. شو عم تقول؟؟
- البناية اللي ورا السينما وقعت..

تـرك أخـي ذقـن الزبـون، نصـف المحلوقـة وجـرى راكضـاً تبعـه الزبـون، ولا يـزال الصابـون عـلى وجهـه، وجريـت وراءهـما.. وإذا بالنـاس متجمعـة والـصراخ قائـم، والعمـل جـار عـلى إزالـة الـركام..

كانـت حصيلـة الانهيـار سـبعة قتـلى، رفضـوا إخـلاء المبنـى بعـد انذارهـم بالاخـلاء لهشاشـة أساسـاته.. حصـل ذلـك في العـام 1963.

أمـا الأمـر الثـاني، فهـو حصـل في المـكان نفسـه؛ مـكان سـلوتي عـلى جـسر النهـر بعـد تضجّـري مـن مجالسـة زبائـن أخـي في محلـه.. كان أن توقفـت سـيارة أجـرة بمحـاذاتي لتنقـل راكبـاً.. نـزل راكـب منهـا ليصعـد الآخـر، ربمـا لأنـه سـينزل في مـكان قريـب.. ولـدى دخـول الأخـير سـقطت محفظتـه مـن جيبـه الخلفـي عـلى الأرض بجانـب قدمـي، دون أن يحـسّ بذلـك.. وأقلعـت السـيارة.. تأملـت المحفظـة مشـدوهاً، التقطتهـا، وإذا هـي محشـوة بـالأوراق الماليـة، وأنـا لا أملـك في أفضـل أحـوالي أكـثر مـن ربـع لـيرة.. جريـت محـاولاً اللحـاق بالسـيارة، وأنـا أصرخ ليتوقـف.. لا سـامع ولا مجيـب.. ركضـت وأنـا ألـوّح بيـدي.. عبـث. تعرقـل السـير مقابـل طلعـة العمـري.. توقفـت السـيارة.. ركضـت بـكل قـوة وسرعـة.. صرت بمحاذاتهـا، أقلعـت مـن جديـد.. لم ألحـق إلا الخبيـط عـلى مؤخـرة السـيارة بـكل قـوتي.. التفـت ركاب المقعـد الخلفـي ومنهـم صاحـب المحفظـة.. رفعـت المحفظـة في وجوههـم، أجفـل المنظـر صاحبهـا إلى الدرجـة التـي نطـح فيهـا رأسـه سـقف السـيارة.. توقفـت.. خـرج مـن السـيارة مذهـولاً.. وبـدل أن يلتقـط المحفظـة تلقّـاني مـن خـاصرتيّ ورفعنـي إلى الأعـلى وأنزلنـي وغمـرني، ثـم تنـاول محفظتـه ليفتحهـا ويكافئنـي.. وإذا بي أركـض بـكل مـا أوتيـت مـن قـوة وسرعـة، وهـو ينـادي ويـصرخ..

أتذكـر هـذه الحادثـة كلـما أضعـت شـيئاً وأعيـد إلي.. ومـن المهـم هنـا، أن أذكـر مناسـبتين أضعـت فيهـما محفظتـي وهـي تحتـوي، وفي المناسـبتين رواتـب شـهر لي ولزميلـين عزيزيـن، أيـام قبـض الراتـب نقـداً مـن معتمـد القبـض المنتـدب للقيـام بهـذه المهمـة..

المناسـبة الأولى، مـروري بجانـب ضفـة نهـر أبـو عـلي قادمـاً مـن المعهـد. توقفـت لـشراء الفواكـه مـن السـوق هنـاك، وهـو عبـارة عـن عـشرات البسـطات المتراصفـة عـلى الضفـة وصـولاً إلى الطريـق

الرئيسـية.. أخـذت مـا لزمنـي وأكملـت طريقـي لأنقـل ابنتـي مـن المدرسـة، ومـن ثـم أخويهـا، إلى المنـزل.. كان بـين تـركي للمعهـد ووصـولي إلى البحصاص وتوقفـي لـشراء الخبـز نحـو ثـلاث سـاعات.. خرجـت مـن السـيارة لأتنـاول المحفظـة لدفـع ثمـن الخبـز.. لا محفظـة..

– يا أولاد وين الشنتة..

– ما في شنتة..

دارت الدنيـا بي.. بعـد أن تذكـرت آخـر مـرة رأيـت فيهـا المحفظـة.. التبانـة، عـلى ضفـة النهـر، وعـلى بسـطة لا أعـرف أصلهـا مـن فصلهـا، ولا البائـع الـذي يقـف وراءهـا.. وفي المحفظـة سـبعة ملايـين ونصـف مـن الـليرات اللبنانيـة، رواتـب ثلاثـة لي ولزمـلائي في المعهـد.. مصيبـة حلّـت بي، ولا أدري كيـف عـليّ أن أتدبـر الأمـر، ولا عمّـن أسـأل إذا رجعـت إلى المـكان الـذي تركتهـا فيـه..

عـدت بالسـيارة، ولا أدري كيـف عـليّ أن أقـود، ولا السرعـة التـي سـتوصلني إلى المـكان.. وصلـت.. وصرت أتطلـع في الوجـوه دون أن أدري كيـف أتـصرّف، ولا مـا أقـول.. أتنقّـل مـن وجـه إلى وجـه دون التفـوّه بـأي كلمـة، إلى أن سـمعت صوتـاً:

– يـا عمـي واللـه مـاني عـم أعـرف اشـتغل.. ويـن كنـت كل هالوقـت..

إلتفـتّ وكأن روحـي رُدّت إليّ.. ليـس مـن أجـل المبلـغ الضائـع، بـل أيضـاً، مـن أجـل مـا يمكـن أن يقـول النـاس، حتـى ولـو بقلوبهـم.. وإذا كانـوا سـيصدّقون أم لا.. في حـال الضيـاع.. وخصوصـاً مـن زميـليّ المعنيـين بالأمـر وبقيـة الزمـلاء.

في يده كيس أسود دفعه نحوي وقال باسماً:

– خدت الفواكه وتركتها عالبسطة..

لم أعـرف مـا عـليّ قولـه، وأبقيـت الكيـس كـما هـو.. وشـكرته.. لم يقبـل إلا أن أفتـح المحفظـة لأتفقـد مـا فيهـا.. رفضـت مـع قـولي:

– كانـت الشـنتة كلهـا بإيـدك، هـلأ بـدي اسـأل عـن الـلي فيهـا؟

كان بـودّي أن أفتـح المحفظـة لأكافئـه عـلى فعلتـه هـذه.. ولكنـي خفـت أن ينـدم عندمـا يـرى مـا فيهـا مـن أمـوال فـيروح ثوابـه.. عـلى أن أقـدّم لـه هديـة في اليـوم التـالي..

لم أحـظ بـه في اليـوم التـالي، رغـم تأمـلي في كل الوجـوه.. ولشـدة مـا كنـت عليـه مـن حـال، لم أسـتطع حفـظ وجهـه لأتعـرف عليـه.. ولا هـو انتبـه لوجـودي.. لم أعطـه شـيئاً.. ومـرت سـنوات ثـلاث.. وإذا بـه يـصرخ ويرحـب في محطـة أخـرى للـشراء..

– شو ما بدك تنسى الشنتة اليوم؟؟

كان قبالتــي مبــاشرة وراء البســطة.. كان يبيــع حينهــا البطاطــا والبنـدورة.. تأملتـه جيـداً، ولم أدر كيـف قفـزت مـن أمـام البسـطة وغمرتـه بيـدي، وقبّلتـه ثـلاث.. كانـت أصـدق قبـلات تلقاهـا أحـدٌ منــي.. وفاجــأني عندمــا بــادرني بالقــول:

– بـدك تقـلّي لشـو كنـت حامـل هالمصـاري كلهـا.. وأنـا عرفـت إنــت مــين.. خيّــك الحـلاق القريــب منـا هــون.. أنـا زبونـه وأبي وإخـوتي.. خيّـك مـا في أطيـب منـو.. وكنـت بـدي آخدلـو الشـنتة بــس نفّــق..

كيف عليّ ان أكافئه.. ما سمعته ورأيته أكبر من أي مكافأة..

– وضّبْ لي كل ما على البسطة من البطاطا والبندورة..

- لا والله تاخد حاجتك وبس..

نقدتـه مبلغـاً يزيـد عـن الثمـن، وحاولـت رفـض أخـذ الباقـي.. لم يقبـل.. وحلـف بالطـلاق أن لا يأخـذ قرشـاً واحـداً زيـادة..

- يا عمي في ثواب.. ليش بدك تضيّعلي ثوابي؟!

يـا اللـه.. عـرف كل شي عنـي وعـما هـو موجـود في المحفظـة.. وأنـا شـككت بزوغـان نيتـه إذا عـرف بمحتواهـا.. وعرفـت أنـه ابـن شـعبان بائـع الفلافـل عـلى بسـطته المتنقلـة المرابطـة عـلى بـاب سـوق الخـضرة.. الرجـل الكريـم الـذي كان يتخمنـي بلفافـة الفلافـل، وأحيانـاً كثـيرة بـدون مقابـل..

- بالمناسبة في إلي طلب صغير عندك..

- إنت بتأمر..

- أحمد شعبان بتعرفه؟؟

- مين أحمد شعبان؟؟

- الحاجب في مركز كرم..

- أووه طبعاً.. وهو صديق عزيز..

- اللـه يـرضى عليـك الأسـتاذ سـيمون بـدّو يصرفـه، بـركي فيـك تقنعـو حتـى يبقـى، عنـده عيلـة..

كنت أستاذاً في المركز، وكلمتي مسموعة.. قلت له:

- أنا ولا هو..

هكذا كان.. وبقي.. وبقيت.

أمـا الحادثـة الثانيـة، فهـي مشـابهة في الـشراء وتـرك المحفظـة عـلى

عربـة البائـع.. وعنـد وصـولي إلى البيـت تذكـرت أننـي اشـتريت مـن عربــة تبيــع الليمــون الحامــض في الزهريــة، ومنزلنــا في الهيكليــة خــارج المدينــة.. وكان في المحفظــة، كــما في المــرة الماضيــة، رواتــب ثلاثـة بالملايـين.. ويبـدو أننـي مـا كنـت أشـتري شـيئاً إلا عندمـا أقبـض راتبـي، لأننـي أتـرك هـذه الأمـور لزوجتـي التـي تتـولى شـؤون البيـت ومسـتلزماته.. أو ربمـا طـرأت هـذه الفكـرة عـليّ عنـد كتابـة مـا تذكرتـه حـول هاتـين الحادثتـين..

عــدت مسرعــاً، وجــدت العربــة ولم أجــد البائــع.. ســمعت صوتــاً ينادينــي..

– الشنتة إلك ما هيك؟؟

– إيه نعم..

– راح البياع يحطلك ياها عند إختك اللي عالزاوية..

– كان يقصـد قريبتـي صاحبـة محـل سـمانة في آخـر الشـارع.. لحقتـه مسرعـاً.. رأيتـه.. توقفـت بجانبـه.. إلتفـت وقـال:

– هيك بتنساها وبتروح؟؟

– شـكراً، بـارك اللـه فيـك.. اسـتلمت المحفظـة وأخرجـت منهـا مبلغـاً قدمتـه لـه.. رفـض قائـلاً:

– يـا عمـي أنـا إلي ثـواب فعلتـي هـادي، قالهـا بلهجـة سـورية محبّبـة.. لا تضيّعـلي ثـوابي..!

قــال هــذا الــكلام، وأنــا مــدرك تمامــاً أن جميــع مــا كانــت تحملــه العربـة لا يسـاوي المبلـغ الـذي قدمتـه لـه.. يـا سـبحان اللـه.. الثـواب والفعــل مــن أجــل الثــواب..

– طيــب اعتــبِر أننــي اشــتريت كل مــا تحمــل العربــة.. خــذه ووزّعــه عــلى المحتاجــين.. وأكــون لــك مــن الشــاكرين.. هــذا مــا

جعلـه يقبـل..

أسـوق هاتـين الحادثتـين مـع حادثـة ثالثـة أضعـت فيهـا المحفظـة بـكل مـا تحتويـه مـن أوراق وبطاقـات مـع مبلـغ زهيـد مـن المـال مـدة سـتة أشـهر، ومـن ثـم عـادت إلي، لأدلـل عـلى أن ردّ المحفظـة لصاحبهـا في صغـري كان الشـفيع لي ومكافـأة، تجسّـدا بـردّ المحفظـة لي ثـلاث مـرات متتاليـة، مـع مبالـغ تفـوق بكثـير مـا كان موجـوداً في تلـك المحفظـة.. إنـه الايمـان بـأن فعـل الخـير لا يضيـع.. ولا بـد أن يرتـدّ أضعافـاً مضاعفـة.. لا علاقـة للتعقـل في هـذه المسـألة، إنـه الإيمـان الـذي يقذفـه اللـه في الصـدر ليمـلأ فضـاءً يسـتنير بـه العقـل ويسـانده في الإحاطـة والفهـم ، عـلى قـدر المسـتطاع، بمـا يحصـل حولـه في هـذا العـالم.

كنـت دائمـاً أحـسّ بأننـي غريـب في المدينـة، ليـس فقـط لأنهـا تختلف بمـا لا يقـاس عـن الضيعـة، بمسـاحتها وشـوارعها وأبنيتهـا وسـياراتها، وحتـى بعربـات الخيـل التـي كانـت لا تـزال تجـوب الشـارع الرئيـسي فيهـا وتربـط بـين مناطقهـا؛ بـل أيضـاً، مـن خـلال علاقـاتي مـن تلاميـذ وأنـاس آخريـن مـا كانـت تربطنـي بهـم أي معرفـة سـابقة.

كانـت المدرسـة حلقـة الوصـل في علاقتـي مـع رفـاق الصـف. ومـن البديهـي أن تبـدأ هـذه العلاقـة مـع الشريـك في المقعـد الـذي يتسـع لثلاثـة، ومـن ثـم مـن هـم خلفنـا وأمامنـا.. وتترسـخ هـذه العلاقـة في فـرص الاسـتراحة.. ومـع مـن ألتقيـه منهـم.. كان مـن النـادر أن نرسّـخ علاقاتنـا نحـن أبنـاء الريـف مـع أبنـاء المدينـة، إمـا لأنهـم لا يجـدون الوقـت الـكافي لإقامـة علاقـات جديـدة، أو لأنهـم يترفّعـون عـن التعاطـي مـع أبنـاء الريـف.. هـذا، عـلى قـدر ملاحظتـي لهـم في كيفيـة بنـاء علاقاتهـم مـع أبنـاء الصـف..

كنـت مـن الذيـن يعتـبرون أن ابـن المدينـة أرفـع شـأناً منـا، وأكـثر معرفـة وثقافـة، وأكـثر أناقـة وترتيبـاً. كانـت هـذه الفكـرة موجهـة لي

في التقـرّب منهـم ومصادقـة بعضهـم، والتعمـق في العلاقـة مـع هـؤلاء، وقـد أفـدت كثـيراً مـن ذلـك.

كان يبـدو لي، ولكثيريـن غـيري مـن أبنـاء الريـف، أن الكثيريـن مـن أبنـاء المدينـة، في الصـف والمدرسـة، أدركـوا مـا كان يجـول في خواطرنـا، ولمسـوا أحيانـاً كثـيرة هواجسـنا في أهميـة التقـرب منهـم، فمارسـوا نوعـاً مـن الرفعـة في التعاطـي معنـا، وبإشـارات مـن التميّـز عنـا، إن كان في طريقـة اللبـاس أو تصفيـف الشـعر، أو في كميـة المعلومـات التـي يظهرونهـا، إن كان في السـينما أو الرياضـة أو الفـن، والغنـاء عـلى الخصـوص.

مـا لاحظتـه في هـذا المجـال، ومنـذ تلـك الأيـام، أن نسـج هـذه العلاقـات عـادة مـا تكـون بمـا يرتئيـه هـؤلاء ويقرّرونـه.. كنـا، بمعنـى مـا، نحـن النسـيج، وكان أبنـاء المدينـة في صفـي مـن النسـاجين.. وكان عـلي أن أقبـل وأمتثـل.. والأهـم مـن ذلـك كلّـه مـا نشـأ مـن علاقـات طالـت التلاميـذ، ليـس في الصـف وحـده، بـل في المدرسـة كلهـا؛ التلاميـذ الذيـن ينتمـون إلى مختلـف المناطـق في الشـمال، ومـن مختلـف الطوائـف والمذاهـب..

أطـرف مـا كان يحصـل معنـا في حصـة الديـن أن أدخـل مـع رفيقـي محمـود الـذي رحـل في عـز شـبابه، لحضور الـدرس في صف المسـلمين.. وفي الأسـبوع التـالي، يدخـل معـي محمـود لحضـور حصـة الديـن عـلى المذهـب الأرثوذكـسي.. وكنـا في الحالتـين نطلـق الأسـئلة المحرجـة عـن نظـرة كل مـن الدينـين إلى الآخـر.. لنعـرف كيـف يـشرح أسـتاذ الديـن النظـرة إلى الآخـر.. أمـام أبنـاء الديـن نفسـه.. دون مداهنـة أو نفـاق.. وقـد حصلنـا مـن الطرفـين عـلى أجوبـة مدهشـة، منهـا مـا كان يرمـي إلى التقـارب، والقليـل منهـا مـا أظهـر الاختـلاف.. كانـت الدنيـا بألـف خـير.. الرحمـة لـك يـا محمـود.

10
التدريب والمعاناة

كان مـن أجمـل أيـام حيـاتي الدراسـية مـا تلقّينـاه مـن حصـص التدريـب العسـكري في المرحلـة الثانويـة.. كنـا نخضـع لبرنامـج نظـري قـاس يتنـاول تعلّـم النظـام المرصـوص، وتفكيـك وتركيـب المسـدس والبندقيـة الحربيـة، مـع حفـظ أسـماء كل قطعـة فيهـما، مـع الطـول والـوزن وتاريـخ الصنـع وبلـد المنشـأ، بالاضافـة إلى محـاضرات في علـم الحـرب.. وكان علينـا أن نرتـدي الثيـاب الكاكيّـة والحـذاء المطاطـي، ونخضـع للأوامـر في كل الظـروف، وإلا تعـرّض المشـاكس والرافـض للعقـاب؛ الركـض حـول محيـط الملعـب، أو السـجن في غرفـة الصـف، والوقـوف في طريقـة محـددة وصعبـة، مـن هـذه الوسـائل.. وفي نهايـة السـنة نخضـع لامتحـان شـفوي وخطـي وإفـادة بمـا أنجزنـاه..

في أول أيلـول 1968 إلتحقـت بمخيـم التدريـب العسـكري في بيـت الديـن بعـد فـوزي بشـهادة البكالوريـا القسـم الأول في الـدورة الأولى مـن السـنة نفسـها.. كان علينـا أن نحمـل معنـا بعـض مـا يلزمنـا مـن الاسـتعمالات اليوميـة، ملابـس داخليـة وصابـون وأدوات حلاقـة ومنشـفة.. وصلنـا إلى أرض المخيـم ونحـن لا نعـرف شـيئاً عـما ينتظرنـا.. جمـوع كثـيرة مـن الطـلاب وأهاليهـم مـع عسـكر بأعـداد كبـيرة وضبـاط يتجمعـون في السـاحة الواسـعة ذات العلـم المرفـوع في الوسـط.. إلتحقنـا بهـم وانتظرنـا الأوامـر..

جـاء ضابـط برتبـة عاليـة، عقيـد عـلى مـا أظـن، وبـدأ بقـراءة الأسـماء مـن لوائـح معـدّة مسـبقاً، عـلى أن يلتحـق مـن يذكـر اسـمه في هـذه المجموعـة، بإمـرة المـلازم محمـود، ومجموعـة ثانيـة بإمـرة المـلازم عبداللـه، وهكـذا.. كانـت مجموعتـي بإمـرة المـلازم عبداللـه

الطرابلسي الذي صار عميداً فيما بعد ودكتوراً في التاريخ، وهو اليوم من أعز أصدقائي.. وما عزز هذه الصداقة أنه كان وإخوته ووالده من زبائن أخي في محل الحلاقة..

عند توزيعنا على الخيم، كان نصيبي في خيمة كبرى تتسع لثمانية عشر متدرباً، من أصل أربع خيم في الموقع، وبقية الخيم تتسع لسبعة أشخاص فقط.. خفت في البداية من هذا العدد الضخم في الخيمة الواحدة.. ولكن بعد أيام غمرني فرح لا يوصف بعد تعرّفي على زملائي في الخيمة.. كانوا من مختلف المناطق اللبنانية، من عكار إلى بشري وصولاً إلى النبطية وصيدا.. كان منهم عازف الناي، وصاحب النكتة بكل ألوانها، وذو الروح المرحة التي تشعلنا ضحكاً، والمغروم الذي لا يتعب من التعبير عن اشتياقه، والرصين الذي نجحنا بعد محاولات عدة بإقناعه لمشاركتنا صخبنا وضحكنا، والمشاكس الذي يحرص دائماً على إفساد ما نحن فيه أوقات سماع حنين الناي في عزفه الحزين؛ العزف الذي ينفخ فينا أشرعة الحنين إلى أيام مضت خطفتها منا قواعد ونظم عسكرية صارمة، ما كانت في وارد الكثيرين منا، ولو إلى حين. في هذه اللحظات، كان يتعرّض المشاكس إلى الضرب المبرح ليسكت، فيسكت. ويعود الوئام ويعلو صوت الموسيقى..

ضبطنا بالصدفة، وفي دورية تفتيش أن أحدنا يخبّئ تحت بطانياته مجلة تتعاطى بأمور الجنس والإباحية بقصصها وصورها الفاضحة.. لم يخلص صاحبها من السخرية والتلطيش والاتهام بالزعرنة، ونحن كلنا لم نتجاوز الثامنة عشرة، عِزُّ مراهقتنا في تلك الأيام.. ولم ينته الحديث بعد تلك المعاناة التي ألبسناه إياها، إلا عندما اقترح يوسف الحدشيتي، صاحب الروح المرحة، أن تدور المجلة على الجميع، وعن طيبة خاطر من صاحبها؛ وكذلك في حال أتته مجلة جديدة. وافق الجميع على ذلك، وانتهى البحث

في الموضـوع. هكـذا تعرّفنـا عـلى كيفيـة الاطـلاع عـلى مـا يشـبه التابـو في مجتمعنـا التقليـدي.

كانـت المجلـة مفتـاح حديـث طريـف اقترحـه يوسـف.. وهـو تأسـيس نقابـة تمثّلنـا، نحـن وحدنـا، قاطنـي الخيمـة، تحـت اسـم «نقابـة الحمـير»، لم أعـرف لمَ سـمّاها هكـذا، حتـى هـو لم يعـرف عندمـا سـألته.. مهمـة أعضائهـا التجمـع في المـكان الـذي يسـمعون فيـه صـوت نهيـق، وهـو صـوت الحـمار. وغالبـاً مـا كان يصـدر عنـد رؤيـة فتـاة جميلـة وصلـت إلى المخيـم، بعـد منـع المتدربـين مـن الخـروج منـه في عطلـة الأحـد الأسـبوعية.. ولهـذا المنـع قصـة طريفـة..

وصلنـا إلى المخيـم يـوم الجمعـة.. يـوم الأحـد عطلـة.. والمتدربـون على شـوق للتعـرف عـلى المنطقـة، وأهـم مـا فيهـا قـصر بيـت الديـن.. المقـر الصيفـي لرئيـس الجمهوريـة طيلـة شـهر أيلـول.. ومـن البديهـي أن تمتلـئ سـاحة القـصر بالطـلاب القادمـين مـن مختلـف المناطـق اللبنانيـة.. عمّـت الفـوضى وتصاعـد الضجيـج، وتجـوّل الطـلاب بحريـة زائـدة، هـذا مـن خلـع قميصـه، وذاك مـن أظهـر القسـم الأعـلى العـاري مـن جسـده، وآخـر لم يتـوان عـن لبـس الشـورت.. وصـودف أن جـاء قائـد الجيـش إميـل البسـتاني لزيـارة رئيـس الجمهوريـة شـارل حلـو، فـرأى هـذه المناظـر التـي لا تليـق بمقـام القـصر ورئاسـة الجمهوريـة. وكان أن أصـدر أمـراً في اليـوم التـالي بمنـع خـروج الطـلاب مـن المخيـم، وفي كل الظـروف.

لم أكـن قبـل الظهـر في المخيـم. انتقـاني آمـر الخيمـة العريـف هاشـم، مـع أربعـة مـن رفاقـي لنشـكّل دوريـة انضبـاط لمراقبـة سـلوك المجنديـن خـارج المخيـم، في القـرى المجـاورة.. كانـت مهمـة دوريتنـا المراقبـة في بلـدة بعقلـين القريبـة.. توجهنـا إليهـا في سـيارة عسـكرية، وجلنـا في حاراتهـا وعدنـا أدراجنـا مـن طريـق ثانيـة تخـترق بسـاتين البلـدة.. دهشـنا مـن جـمال منظـر التفـاح المتـدلي فـوق الطريـق.. لم

نستأذن الآمر.. مدّ كل منا يده ليقطف..

- كلوا ما استطعتم.. ولكن ممنوع على أي نفر منكم أن يحمل شيئاً..

هكذا فعلنا.. ولكن ما أدهشني أن الآمر هاشم لم يذق تفاحة واحدة.. ولم أدرِ لماذا..

عدنا الى المخيم، وتجوّلنا بعد الظهر في ساحة القصر، وكانت المرة الأولى والأخيرة..

ما ترسّخ في ذاكرتي من أيام المخيم، الزيارة الوحيدة المقررة إلى عين مرشد المعلَم السياحي الجميل في الشوف.. حيث تغدينا والتقطنا الصور التذكارية، والحادثة الطريفة التي حصلت في إحدى ليالي المخيم، واختطاف صورة محبوبتي من يدي..

في الحادثة الأولى، كان على كل واحد منا أن يقوم بنوبة حراسة بجانب خيمته لمدة ثلاث ساعات ليلاً.. الأولى من منتصف الليل إلى الثالثة، والثانية من الثالثة إلى السادسة صباحاً.. كانت نوبتي في الثالثة.. وقد تدرّبنا على كيفية التصرف.. يحمل كل منا بندقية بدون ذخيرة.. إذا مرّ أحد بقربنا، علينا أن نقول: من القادم؟؟ يعرّف عن نفسه.. نطلب منه النطق بكلمة المرور.. ينطقها.. نسمح له بالمرور.. لم يقل لنا المدرب ماذا علينا أن نفعل إذا لم يذكر اسمه، أو لم يتوقّف، أو يقل الكلمة الخطأ.. كانت كلمة المرور وقت نوبتي: جزرة..

رأيت أحدهم قادماً بعد ساعة من البدء..

- من القادم؟؟

- الملازم سمير..

- كلمة المرور؟؟

- جزرة..

- تفضل..

تجاوزني الملازم ووصل إلى الخيمة المجاورة.. طبعاً هو يقوم بدورية لمراقبة حسن سير العمل، وما إذا كان أحدهم نائماً..

- من القادم؟؟ سمعت جاري المناوب يصرخ..

- أنا..!

- من أنت؟؟

- أنا..!

- اضطرب جاري الخفير، ولم يدرِ ما عليه أن يفعل.. وإذ به يقول:

- كلمة المرور؟؟

- لا أعرف..!

زاد اضطرابه، بان ذلك من صوته.. أعاد عليه السؤال؛

- كلمة المرور؟؟

- لا أعرف.. وما زال واقفاً مكانه..

- قول جزرة..

- جزرة..

- إيه حطها بقفاك..! قالها بالعامية الفجّة..

– إيه لاقيني عالساحة بكرا، عالتمانية..

وكان أن جمع آمر المخيم كل المتدربين مع الضباط والآمرين ليشرح ما حصل، وفي الوسط يجلس المتدرّب على كرسي، والحلاق بجانبة يحمل ماكينة الحلاقة.. لم يخرج المتدرب من بين يديه إلا ورأسه ووجهه سيّان.. حلاقة عالصفر.. مع حبس في الخيمة لثلاثة أيام.. صار المتدرّب الطرابلسي بصلعته اللماعة نجم المخيم لما تبقّى من أيام..

أما الحادثة الثانية، فقد حصلت على غفلة مني.. كنت أنفرد عن المجموعة قبل مغيب كل يوم، جالساً على صخرة في طرف المخيم.. وأخرج صورة محبوبتي من جيب القميص وأتأملها بعيون زائغة وقلب مع مزيد نبضاته، وأناجي الوجه الذي لم يمر على مفاتحة صاحبته بمشاعري أكثر من ثلاثة أشهر، وأنا لما أزل في الثامنة عشرة، وهي الأصغر بسنة واحدة.. وأنا غارق في تأملاتي وعواطفي، إذ فجأة تنسلّ الصورة من بين يديّ بخفةِ وسرعة الريح.. تطلّعت مذهولاً وإذا بيوسف يحمل الصورة راكضاً، وهو ينهق، باتجاه الرفاق، المتجمعين والمتلهّفين لمعرفة ما يحمله في يده..

هكذا تعرّف الرفاق، أعضاء النقابة، على وجه الفتاة التي أحب. أزعلني ما قام به يوسف.. قاطعته لثلاثة أيام.. واشترطت لأصالحه أن لا يأتي ورفاقي على ذكر ما حصل، وينسوه وكأنه ما حصل.. كانت الفرقة هذه أول من عرف بأنني مغروم.. محبوبتي هذه، هي التي أصبحت زوجتي بعد تسع سنوات. وهي الباقية معي منذ اثنتين وخمسين سنة، وستبقى إلى أن يأخذ الله أمانته..

كان علينا أن نجتمع داخل الخيمة في التاسعة.. وفي العاشرة تُطفأ الأنوار، لأن علينا أن ننام.. ولا نوم.. الكلام المنخفض والضحك

المكتـوم، كانـا سـبب غضـب الآمـر منـا، لأن عليـه أن ينـام ليسـتفيق باكـراً ويدعونـا إلى النهـوض بفمـه ويـده ورجلـه.. ننهـض ونحـن أنصـاف نيـام، والليـل مـا زال يبسـط ظلالـه عـلى المخيـم. علينـا أن نرتّـب فرشـنا وأغطيتنـا.. هـي كالفـرش والأغطيـة، كلهـا عبـارة عـن بطانيـات ثـلاث لـكل واحـد منـا.. بطانيتـان كفـراش وبطانيـة كغطـاء. ومـا كان ذلـك يقينـا صلابـة الحجـارة والأرض غـير المسـتوية التـي ننـام فوقهـا.. ولم يكـن غـير الحـذاء مغطّـى بالمنشـفة، مخـدة للأكثريـة منـا، مـا عـدا الذيـن تدبّـروا أمـر إحضـار مخـدة، إمـا بنـاء لنصائـح مـن قِبـل مـن سـبقوا، أو لفطنـة تبـدّت لهـم.

كانـت أجمـل ليلـة وأكثرهـا بهجـة تلك التـي سـبقت ترحيلنـا والعودة إلى بيوتنـا.. بقينـا الليـل بطولـه سـاهرين.. رقصٌ وغنـاء وصراخ وضحك ولعـب إلى الدرجـة التـي أعجـزت العريـف هاشـم عـن النـوم؛ وهـو الـذي عليـه أن يبقـى لعمـل طويـل ينتظـره في تفكيك الخيـم وترحيلها مـع غـيره مـن الجنـود. لم ندعـه ينـم.. نحملـه ونـدور بـه، ونرميـه عـلى غيرنـا مـن الرفـاق، ليحملـوه ويـدوروا بـه إلى أن داخ ووقـع دون حـراك.. عملنـا عـلى إنعاشـه واسـترضائه.. بقـي معنـا سـاهراً، مشـترطاً أن نسـاعده في تفكيـك الخيمـة وتوضيبهـا، وهكـذا كان.

كانــت محبوبتــي معــي في حــلّي وترحــالي في الــروح قبــل الجســد.. وأنـا لا أزال طالبـاً في المرحلـة الثانويـة.. وفي بدايـة حيـاتي العمليـة إلى جانـب حيـاتي الدراسـية.. كانـت علاقتـي بهـا تحصيـل حاصل، ومسـألة لا نقـاش فيهـا، ولا إمكانيـة للتفكـير في تجاوزهـا.. هـذا كان مـن طرفها كـما مـن طـرفي.. كانـت تعلـم أننـي لا أزال بعيـداً عـن التفكـير في الـزواج.. وأنهـا لا تـزال بعيـدة عـن التفكـير بـأن تصـير زوجـة لي.. ومـع ذلـك بقيـت وانتظـرت.. وأتى مـن حـاول أن يطلـب يدهـا، ورفضـت حتـى دون أن أعلـم.. ولم تجـد الـضرورة في إبلاغـي ذلـك لأن لا شـأن لي بهـذه المسـألة، كـما لا شـأن لأحـد في معرفـة سـبب

الرفض.. كانت الثقة إلى جانب المحبة التي جمعتنا القيمتين اللتين جعلتاها تنتظر دون وجود أي أفق مفتوح، لا من جهة قدرة الأهل على تحمل مسؤولية الزواج، ولا قدرة صاحب الشأن في تأمين أي إمكانية لعقد زواج قريب.

كان عامل الثقة والاطمئنان بإمكانية الاقتران برفيقة العمر، حافزي الأساسي لمواصلة السير في طريق تحصيلي العلمي، ومن ثم التدرج من وظيفة إلى وظيفة أرقى، إلى أن سمحت الظروف بعقد زواجي في 5 حزيران 1977، بعد تسع سنوات من مفاتحتها بمشاعري..

بنيت صداقات كثيرة مع زميلات في الجامعة وفي العمل، قبل الزواج وبعده.. قبل الزواج كنت أحرص على إعلان خطوبتي أمام الجميع، حتى أقطع الطريق على أي إمكانية لتجاوز علاقة الصداقة.. ربما خوفاً على نفسي منهن، أو خوفي عليهن مني.. لا أعرف. أكسبني هذا الموقف صداقات عديدة مع النساء أعتزّ بها، تحولت إلى صداقات عائلية لا تزال مستمرة إلى اليوم.

كل ما كان يحصل في علاقاتي مع النساء، وهي بطبيعتها علاقات مودّة بريئة، كان مدار أحاديث بيني وبين خطيبتي، وعرّفتها على من كن قريبات من مكان إقامتنا، إن كان في الضيعة، أو بعد زواجنا في المدينة.. كانت الطريقة الأثيرة لترسيخ الثقة فيما بيننا، والعامل المساعد للانصراف إلى الدرس والتحصيل.. لا أعلم لماذا كانت هذه الاعترافات تريحني وتريحها. كان ذلك متماثلاً، على ما أظن اليوم، مع سرّ الاعتراف الكنسي الذي يسمح في البوح بكل مكنونات الصدر لتلقّي المغفرة، وتنقية القلب.. ومن ثم العود على بدء لطلب المغفرة من جديد.. في كل حال كنت أعتبر أن اطلاع محبوبتي على ما كنت أنسجه من علاقات وما أمرّ به من أحداث كانت السبب في ترسيخ علاقتنا وفي حمايتها من أي

إمكانيـة للخـداع أو المواربـة في قـول الحقيقـة..

وما رسّـخ محبتـي وزاد مـن ثقتـي بنفـسي موقـف أهلهـا منـي.. فلـم يشـغل والدهـا ووالدتها أي هـم أو قلـق تجاهـي.. فقـد وضعـا ثقتهـما بابنتهـما، وهـي كبـيرة الأسرة، أولاً، وبي ثانيـاً.. وقـد عشـت في كنفهـما، ومـع أخوتهـا، وكأننـي الأخ الأكـبر، وأباحـوا لي التـصرف عـلى أننـي فـرد مـن العائلـة، حتـى قبـل أن يطلـب أهـلي وأقربـائي يدهـا بسـنتين، حسـب مـا هـو متّبـع في عـادات الضيعـة وتقاليدهـا.

وأنـا أعـترف اليـوم، وبعـد هـذه السـنين الطويلـة، أن مـا وصلـت إليـه في التحصيـل العلمـي، ومـن ثـم الارتقـاء الوظيفـي مـا كانـا ليحصـلا لـولا هـذه الرعايـة والاهتـمام اللذيـن لقيتهـما مـن خطيبتـي أولاً، ومـن ثـم زوجتـي فيـما بعـد.. ومـا أنـا عليـه اليـوم، ومـا عليـه أسرتي، مـا كانـا عـلى مـا هـما عليـه، لـولا رعايتهـا وتفانيهـا..

11
من الضيعة إلى بيروت

عندما أنهيت المرحلة الثانوية، ومع بداية العام الدراسي 1970-1971 انتسبت إلى معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية لسببين اثنين؛ الأول قصر الدراسة فيه إذ تبلغ ثلاث سنوات للحصول على الاجازة التعليمية في العلوم الاجتماعية؛ والثاني لأنني أحببت المواد الاجتماعية منذ المرحلة الابتدائية، وكنت أحصّل فيها أعلى العلامات، ولأنني انتميت إلى حزب يعطي للمجتمع ومشكلاته وأهمية بعث نهضته الاهتمام الأكبر. وكان أن بدأ اهتمامي هذا بالتبلور في بداية مرحلتي الثانوية، وبعد ملاحظة ومعايشة أساتذة حزبيين متفانين في عملهم، ومخلصين في نقل المعرفة إلى تلامذتهم في أوقات الدوام وخارجه، وفي أيام العطل الرسمية، وخصوصاً في المرحلة الابتدائية والمتوسطة.

في ربيع 1971 تقدّمت إلى المدرسة الحربية بناء على رغبة والدي، مع أن الحياة العسكرية ما كانت تشدّني لأنتمي إليها. في هذه الفترة كنت أتلقّى محاضرات المعهد يومين في الأسبوع، الثلاثاء والخميس. أما بقية المحاضرات فتبقى خارج متناول يدي، وما كنت أعرف أحداً بعد، لأستعير منه بقية المحاضرات، أو بعضها على الأقل. كان رفاقي الحزبيّون، يؤمّنون بعضاً منها عندما تيسّر لي التعرف على بعضهم. وكانت الطريقة أن أحضر المحاضرات المكتوبة باليد وباختصار، وأنسخها، إذ لم يكن التصوير منتشراً بعد، ومن ثم أعيدها إما يوم الثلاثاء أو الخميس التاليين. وهكذا حصلت على بعض المحاضرات لا كلّها، وكانت أهم المحاضرات التي لم أحصل عليها هي الرئيسية ذوات الأربعين علامة؛ والمواد أثنتا عشرة مادة منها النصف على 20 والنصف على 40. والمجموع

يسمح للطالب بالفوز أو يجبره على الرسوب في دورتين، الأولى في حزيران والثانية في أيلول. وكان أن رسبت في أربع مواد رئيسية مهمة من تلك التي لم يتسنَّ لي الحصول على ما هو مقرّر منها، وهي مراحل البحث الاجتماعي، والتحليل الوصفي للظواهر الاجتماعية، وعلم النفس والفلسفة. ذلك أنني درست هذه المواد في كتب كلاسيكية لم تلحظ ما هو مقرر للامتحان، وكان الطالب ينجح أو يرسب حسب ما جاء في مسابقته من معلومات ألقيت في الصف، دون أخذ معلومات المراجع بعين الاعتبار. لذلك رسبت في الدورة الأولى على أمل الحصول على المقررات كافة ليتسنى لي التقدم والفوز في الدورة الثانية.

أثناء انعقاد الدورة الثانية من الامتحانات في أيلول 1971 صودف إجراء امتحانات المدرسة الحربية، ما اضطرني إلى ترك الامتحان الجامعي والخضوع للامتحانات الصحية في المدرسة الحربية التي امتدت على مدى أربعة عشر يوماً.. نجحت فيها، وخضعت إلى الامتحان النفسي من بعدها. حملت لي رسالة من اللجنة الفاحصة تنبئني بأنني لم أستوفِ الشروط المطلوبة. لم أدرِ ما هي هذه الشروط، أنقصٌ في قواي النفسية أو في المعلومات التي دوّنتها في طلب التقدم إلى المدرسة الحربية، ومنها عدم التصريح عن تحزّبي. على أي حال خسرت السنة الجامعية، ولم أوفّق في الدخول إلى المدرسة الحربية.

سنتان من عمري انقضتا دون فائدة تذكر.. بعد ذلك، سارت السنوات الثلاث الخاصة بالاجازة بسلاسة، ولم يعكّرها إلا الخوف في السنة الثانية لعدم فهمي شيئاً في مادة الاحصاء ذات الجداول المزدوجة والمعادلات المعقدة، لعدم تمكّني من حضورها، ولعدم فهمها دون شرح مستفيض. كان يشاركني هذا الخوف زميلي في التحصيل العلمي والتعليم الجامعي محمد الأسعد. وكان الأسعد لا

يقبل إلا أن يكون الأول في الصف، فكيف عليه أن يعوّض علامات مادة الاحصاء؟ وهل يمكن، فوق ذلك، أن يرسب؟ هنا حظينا معاً بطالبة من الصف لم نعرفها مسبقاً.. تبرّعت بمساعدتنا، هي مهى المصري، الزميلة التي لن أنسى جميلها..

طمأنتنا مهى بقولها سأشرح لكما مادة الاحصاء بيومين وستنجحان. انفرجت أساريرنا. كان ذلك في شهر رمضان، فقدِمت إلينا بعد ظهر يوم السبت، وبقيت معنا حتى العاشرة ليلاً دون إفطار، وكذلك محمد. وغادرتنا بسيارتها على أمل الحضور في التاسعة صباحاً من يوم الأحد، اليوم الوحيد الذي لا امتحانات فيه. حضرت وبقيت معنا طيلة النهار، حتى ما بعد موعد الافطار. أحسسنا أننا سننجح في المادة بعد أن استوعبنا جزءاً كبيراً منها. وهكذا كان. أسوق هذا الكلام لأدلّل على أهمية ما كان عليه المعهد في بدايات السبعينيات قبل أن يتفرّع إلى خمسة في نهايتها.

كان الجو الأكاديمي ممتازاً في العلاقة بين الأساتذة والطلاب في المعهد، ولكن على منحيين إثنين. أساتذة يتعاطفون مع طلاب الشعبة العربية لليسار والمستقلين، وآخرون يتعاطفون مع طلاب الشعبة الفرنسية، لليمين والمستقلين أيضاً. لم تظهر على الأثر الانتماءات الدينية والطائفية، بل لبست لباس القومية والوطنية، وإن كانت الأكثرية الساحقة من طلاب اليمين ينتمون إلى المسيحية، والمارونية بالتحديد، وطلاب اليسار كانوا على اختلاط من المذاهب كافة، وإن كان للمسلمين، بطوائفهم، الكفّة الوازنة.

هذا التعاطف مع الجهتين لم يكن بتقديري على حساب المستوى التعليمي، وإن كان ثمة بعض الأساتذة قد قدّموا دروساً لمن يحضر من الطلاب إلى منازلهم خارج الدوام الأكاديمي.

عـلى أي حـال، كان الانقسـام السـياسي سـائداً، تقـوده أحـزاب مـن اليمـين، وغيرهـا مـن اليسـار. وكان الانتـماء الحـزبي سـمة تلـك الفـترة مـن تاريـخ لبنـان. وقلّـما كنـا نجـد طلابـاً لا ينتمـون إلى هـذا الجانـب أو ذاك. منهـم مـن كان ملتزمـاً، ومنهـم مـن كان منـاصراً، لدرجـة أن الإيديولوجيـا السياسـية كانـت طاغيـة عـلى أي توجّـه علمـي أو سوسـيولوجي في المعهـد أو في أي ميـدان آخـر. في هـذا الجـو نمـا معهـد العلـوم الاجتماعيـة. وخـارج هـذا الاطـار كان المعهـد بإدارتـه وأسـاتذته وطلابـه وكأنهـم عائلـة واحـدة. فقـط في الانتخابـات الطالبيـة، كانـت تحتـدم المناكفـات والخلافـات، وتصـل إلى حـد التضـارب بالأيـدي والعـصي والكـراسي، وتهـدأ بعـد إصـدار النتيجـة، ويعـود الجميـع إلى سـابق عهدهـم بـصرف النظـر عـن الفائزيـن.

في السـنة الرابعـة، الجـدارة، تسـجّلت في اختصـاص علـم الاجتـماع القانـوني، واقـترح عـلي د. مسـعود يونـس عقـد مذكـرة عـن العلاقـة بـين الزعامـة السياسـية وسـلطة الدولـة، ودور القضـاء في ذلـك. والمثـال علاقـة حركـة 24 تشريـن المتوتـرة مـع الدولـة، وكيفيـة تـصرف القضـاء في حـال إصـدار حكـم في قضيـة مـن قضايـا الخـلاف. ومـن سـوء حظـي لم أصـل إلى نتيجـة لانـدلاع الحـرب في لبنـان في نيسـان 1975. وتوقفـت عـن الدراسـة. وفي منتصفـه، بعـد مجـزرة بوسـطة عـين الرمانـة بيومـين صـدر قـرار تعييننـا مراقبـي أسـعار في وزارة الاقتصـاد. وبدأنـا بتوزيـع البطاقـات التموينيـة في كل المناطـق اللبنانيـة عـلى وقـع الحـرب وأصـوات القذائـف والفـرز السـكاني.. وفي هـذا كلام آخـر..

اسـتأنفت الدراسـة في العـام 1979، وحصلـت عـلى شـهادة الجـدارة في علـم اجتـماع العائلـة ودبلـوم الدراسـات المعمقـة في علـم الاجتـماع السـياسي في العـام 1981. وكان مـن محاسـن الصـدف أن أكـون الأول عـلى دفعتـي في هـذا الاختصـاص، والثـاني عـلى صعيـد طـلاب الدبلـوم



انا وأخي لطيف 1957



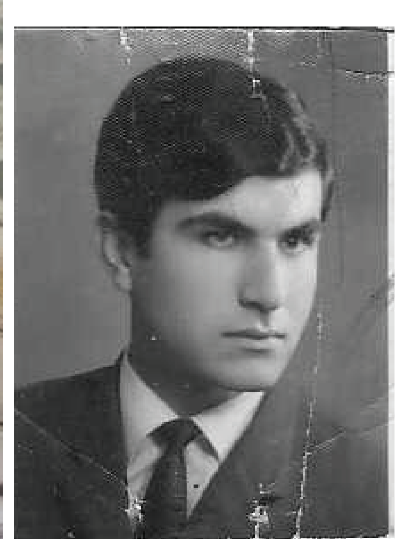
الصف الأول في المدرسة الرسمية 1957



مع بعض الرفاق 1959



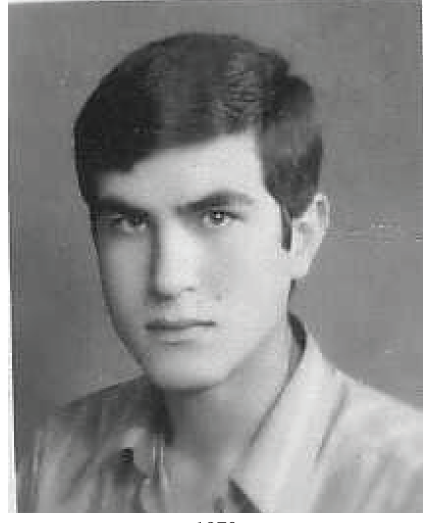
التدريب العسكري 1968



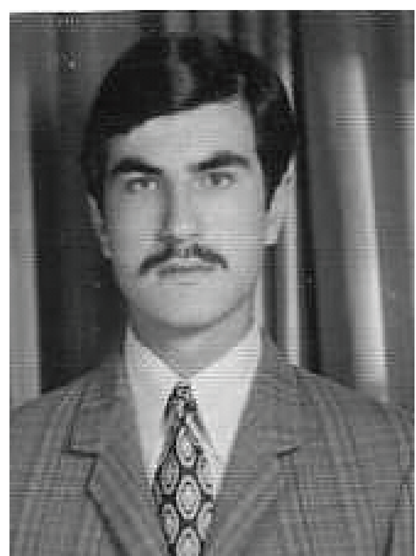
أنا 1968



قبل أن تصبح كاملة خطيبتي 1968



1970



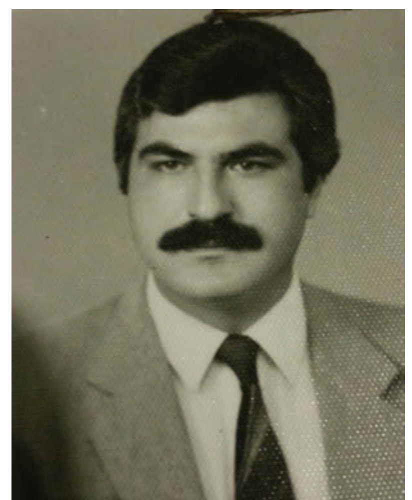
1971



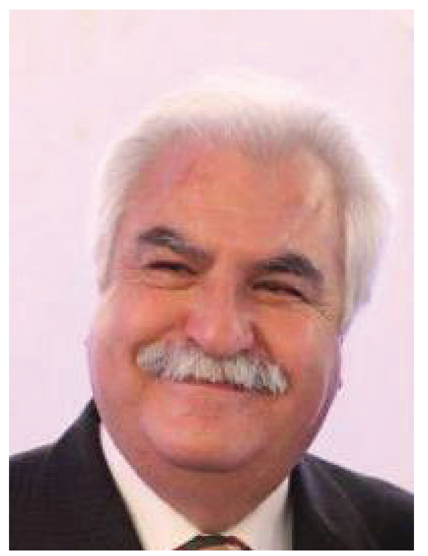
كاملة خطيبتي 1973



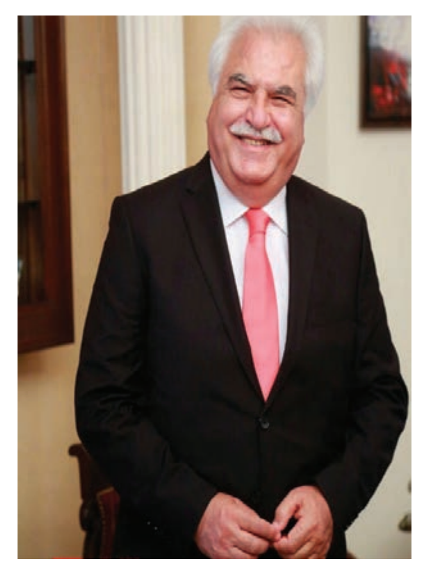
في حفل الاكليل 1977



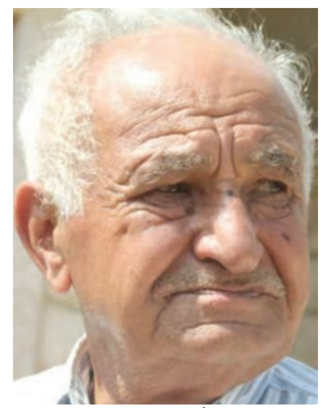
1983



2012



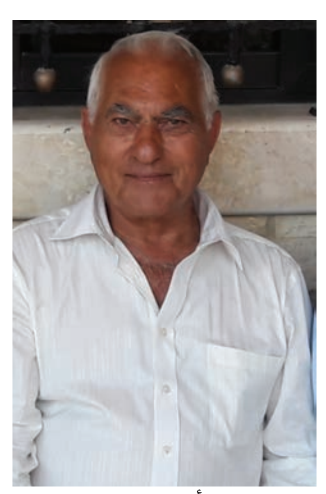
2017



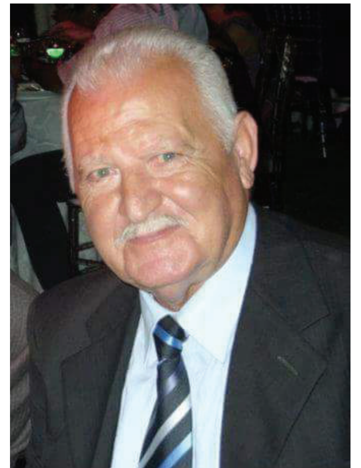
أخي محرز



أبي وأمي مع الحفيدين شوقي ووسام



أخي نافذ



أخي ملحم



أخي لطيف



أنا وشقيقتاي جانيت وجولييت



أنا وزوجتي



شوقي



وسام



مع زينة بعد التخرج

زينة في الثانية



شوقي ووسام



مع المفكر الفلسطيني هشام شرابي



التكريم بعد التقاعد



تكريم بعد إحدى الندوات



في مناقشة إحدى أطاريح الدكتوراه



في المكتبة



أنا وزوجتي في عرس شوقي



الأسرة في عرس شوقي

شوقي وفرنسواز وعاطف الثاني



زينة



عاطف الثاني

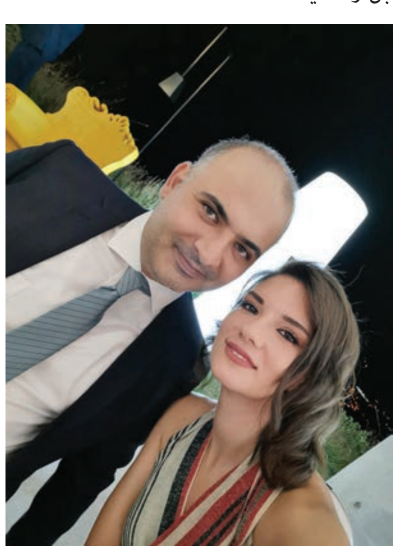




مع الحفيد



الأب والابن والحفيد



شوقي وفرنسواز



فرنسواز


مؤتمر في عمان الأردن


هيئة العمل القومي في زيارة الرئيس إميل لحود



جلسة في أحد المؤتمرات



حفل افتتاح أحد المؤتمرات

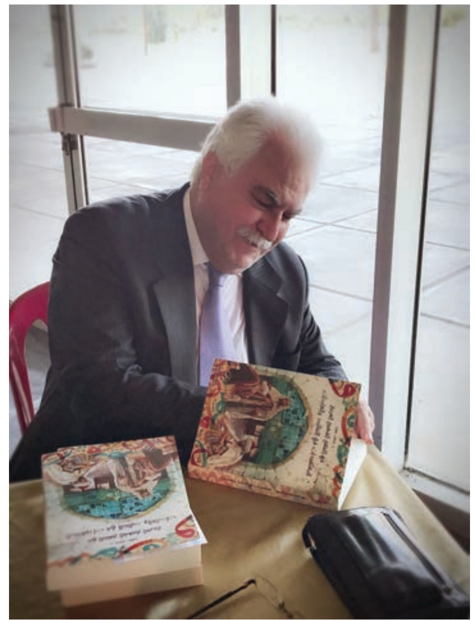


جامعة الدول العربية في القاهرة



مداخلتي في جامعة الدول العربية - القاهرة


من عرس ابن أخي علي في أستراليا


في احتفال توقيع أحد الكتب

في هـذه الـدورة، علـماً أننـي لم أحـضر الـدوام المقـرر نظـراً لصعوبـة الطريـق والحواجـز بـين طرابلـس وبـيروت. فكانـت التزكيـة مـن د. وضـاح شرارة الـذي عملـت بإشرافـه، لتسـمح لي الإدارة بإجـراء الامتحـان وتجـاوز مسـألة الـدوام. كان ذلـك في تشريـن الثـاني 1980. وقـد حصلـت عـلى شـهادتي بتاريـخ 16 تشريـن الثـاني 1981؛ ومـن محاسـن الصـدف أيضـاً، ومـع طـول مسـافة الزمـن، حصلـت عـلى شـهادة الدكتـوراه اللبنانيـة بعـد جلسـة المناقشـة التـي انعقـدت في 16 تشريـن الثـاني 1991. ذلـك أننـي انتظـرت طيلـة هـذه السـنوات العـشر لأحصـل عـلى الدكتـوراه، لأنهـا كانـت مطمحـي منـذ البدايـة رغـم قـصر ذات اليـد الـذي منعنـي مـن السـفر لإكـمال دراسـتي، ورغـم تأسـيسي لأسرة مؤلفـة مـن الزوجـة وثلاثـة أبنـاء.

كانـت الوظيفـة التـي شـغلتها مـع كثيريـن غـيري ممـن يحملـون الإجـازة الجامعيـة، بعيـدة كل البعـد عـن الاعتبـارات الأكاديميـة والتحصيـل العلمـي. وكادت تخرجنـي مـن جـو العلـوم الاجتماعيـة، إلى أن قُيّـض لي التعاقـد مـع ثانويـة طرابلـس المتاخمـة للـسراي الحكومـي، مركـز عمـلي. درّسـت فيهـا مـادة الفلسـفة العربيـة الاسلامية وتاريخ العلـوم عنـد العـرب مـدة سـبعة عـشر عامـاً، ومـن ثـم مـادة علـم الاجتـماع للصفـوف الثانويـة بعـد تغيـير المناهـج. هـذا مـا أبقـاني قريبـاً مـن الشـأن الثقـافي والفعـل العلمـي.

وكان أن أجـازت رئاسـة الجامعـة تدريـس وتحضـير شـهادة الدكتـوراه في المعهـد في السـنة الدراسـية 1985 - 1986. تلقّـف د. فردريـك معتـوق، مديـر الفـرع الثالـث، الأمـر، وهـو المهيّـأ أكاديميـاً لقبـول مشـاريع طـلاب الدكتـوراه التـي سـتُنجز بإشرافـه. فكنـت مـن الدفعـة الأولى التـي تسـجلت، بالاضافـة إلى عبـد الغنـي عـماد والمرحومـة فاطمـة بـدوي وفـؤاد خليـل. وقـد تخرّجنـا معـاً في أواخـر 1991 وبدايـات 1992.

مـا يمكـن ذكـره في هـذا المقـام أن د. فردريـك قـدّم لي طلـب تعاقـد للتدريـس في المعهـد في نيسـان 1991، أي قبـل مناقشـتي للأطروحـة بسـبعة أشـهر، ودون علمـي. وقـد أسرّ لي بذلـك أمـين سر المعهـد في معـرض الكتـاب في تلـك السـنة. بـادرة منـه لا يمكـن أن أنسـاها، رغـم كل شيء. بـدأت التدريـس في 19 شـباط 1992، بعـد توقيـع العقـد مـن قبـل رئيـس الجامعـة. هـذا مـا لم يعـد معتمـداً اليـوم بوجـود عقــود المصالحــة؛ العقــود التــي وضعــت ولا تــزال تضــع الرئيــس والادارة المركزيـة أمـام الأمـر الواقـع، رغـم وجـود المجلـس العلمـي.

في أول نيسـان 1996 تفرّغـت في المعهـد مـع ثلاثـة مـن زمـلائي دون وسـاطة مـن أحـد، بشـهادة مديـر المعهـد د. ماهـر مرعبـي الـذي كان يقـول لي دائمـاً «عـلى حجّـة الـوردة بتـشرب العليقـة»، للتدليـل عـلى أن وسـاطة واحـدة كانـت كفيلـة بإدخـال الأربعـة. كان التفـرّغ لا يناسـبني بانتظـار تثبيتـي في وزارة الاقتصـاد مـن أجـل ضـم سـنوات الخدمـة. لم يحصـل ذلـك، ووصـل الأمـر إلى أن خدمـت سـبعاً وثلاثـين سـنة في حالـة التعاقـد عندمـا دخلـت إلى المـلاك، مـا أجـبرني عـلى دفـع مبلـغ لا أظـن أن أحـداً مـن زمـلائي دفـع نظـيراً لـه: مئـة وثلاثـون مليـون لـيرة مقسّـطة عـلى سـتة وسـبعين شـهراً، دفعـت منهـا سـبعين، مـع دفعـة أولى معلومـة. ومـن ثـم تعـدّل مرسـوم ضـم الخدمـات، بحيـث أعيـد لي مبلـغ ضخـم بـدون الفائـدة التـي تأكلهـا الدولـة.

في آواخـر سـنة 2006 وبعـد عـشر سـنوات مـن التفـرغ، بلغنـي بعـد خروجـي مبـاشرة مـن عمليـة جراحيـة بـأن رئيـس الجامعـة كلفنـي بـإدارة المعهـد، بعـد أن تركـه المديـر السـابق بتقديـم اسـتقالته. وانهالـت عـلي التهنئـة مـن زمـلاء أعـزاء..

بـدأت العمـل في اليـوم الثالـث مـن العمليـة الجراحيـة، وأنـا بالـكاد أسـتطيع الـكلام. كانـت إدارتي في البدايـة صعبـة للغايـة، إثـر تغـير نمـط التعامـل مـع الأسـاتذة والطـلاب والموظفـين بـين مديـر سـابق

قـدم اسـتقالته وتـرك الادارة قبـل تكليـف بديـل عنـه.. وبينـي. كانـت حالـة التراخـي سـائدة بـين الموظفـين إلى الدرجـة التـي جعلـت الواحد منهـم يسـتغرب ويتعـوّذ باللـه عنـد تكليفـة القيـام بـأي عمـل. وبعـض الأسـاتذة يحضرون ويختـصرون الوقـت ويغيبـون دون سـائل أو مهتـم بمـا يحصـل. والطـلاب يدخلـون ويخرجـون دون رقيـب أو حسـيب.

حاولـت أن أضبـط الوضـع أولاً بالتشـديد عـلى دقـة الـدوام، وانتظـام الحضـور للأسـاتذة، وتوزيـع المهـام بالتنظيـم الـلازم لحسـن سـير العمـل، مـع تكليـف مسـؤول في كل قسـم عـن ضبـط الوضـع في قسـمه، وعقـد اجتماعـات أسـبوعية لتقييـم الوضـع، مـع تهنئـة الجادّيـن وتحذيـر المهملـين.. كذلـك التأكيـد عـلى أهميـة ملازمـة المكاتـب، وعـدم التجمـع في مكاتـب بعينهـا.. في مـدى شـهرين بـدأ الوضـع يتحسـن والنظـام يسـود، والمحـاضرات تعطـى في أوقاتهـا، مـع عـدم اختصـار المـدة المخصصـة للمحـاضرات.

كان مـن دواعـي ارتياحـي ملاحظـة التحسـن الواضـح في مسـيرة المعهـد. هـذه الشـهادة تلقّيتهـا مـن الكثيريـن، ومـن العميـد ورئيـس الجامعـة بالـذات، وإن كانـت لا تـرضي بعـض المتضرريـن، مـن بـاب نجاحـك يعنـي فشـل غـيرك. بـدأت أولى ردات الفعـل مـن قبـل الأسـاتذة الذيـن يتهاونـون في توقيـت الـدوام، أو في إنهـاء الـدروس أو في طريقـة المراقبـة في الامتحانـات. فكنـت أسـتوعب هـذه الأمـور مـن خـلال الإبقـاء عـلى العلاقـة الجيـدة مـع الأسـاتذة والتفاهـم لإزالـة مـا يمكـن أن يترسّـب مـن خـلال العلاقـة المتبادلـة. وغالبـاً مـا كنـت أنجح في ذلـك، إلا مـع بعـض العاملـين الذيـن لم يسـتطيعوا تجـاوز آثـار الملاحظـات التـي كنـت أبديهـا عـلى تعاطيهـم مـع شـؤون المعهـد.

مـع انتهـاء السـنة الأولى، كنـت أعتـبر أن النجـاح في إجـراء عمليـة الامتحانـات هـو نجـاح للمعهـد بإدارتـه وأسـاتذته وموظفيـه.. هكـذا

انصبّ الاهتمام لإنجاح هذا الاستحقاق، مع أخذ كل الاحتياطات اللازمة..

تتحول علاقة الإدارة والأساتذة مع الطلاب، في زمن الامتحان، إلى ما يشبه العلاقة بين اللص والشرطي.. تفرضها أقلية ضئيلة، ويعاني منها كل الطلاب.. ذلك أن الغش تحوّل من استعمال الأوراق الصغيرة، إلى الهواتف الذكية مع تقدم وسائل التواصل، إما من خلال تسجيل مواد الامتحان وأرشفتها إلكترونياً، أو من خلال التواصل المباشر مع الخارج بعد رمي ورقة الأسئلة إلى الخارج والسماعات في الداخل.. مع ابتكار وسائل جديدة بعد انكشاف الوسائل المضبوطة..

كان علينا أن نشدّد المراقبة، ما أوقعنا في إحراج تجاه الأكثرية الساحقة من الطلاب.. ومما يؤسف له أن أكثرية المضبوطات كن من المحجّبات، لسبب بسيط لا علاقة له بالالتزام الديني أو الإيمان، وهو أن الحجاب يغطي الأذنين وما يمكن أن يكون فيهما من أدوات السمع التقليدية والمتطورة.. ما اضطرنا إلى التفتيش عما يمكن أن تحمله الأذن.. كنت أكلف موظفتين بتفتيش الآذان بعد إخراج الذكور من الصفوف. طبعاً هذا أدى إلى إشكال أخذ طابعاً طائفياً، إذ كيف يمكن أن تمتدّ اليد إلى الحجاب، ولا تمتد إلى أماكن أخرى لدى الأخريات؟؟ علماً أن السافرات لا يستطعن وضع شيء في الأذن لأنها ظاهرة.. والأمكنة الأخرى يمكن أن تنكشف بالمراقبة.. حمل لواء الاحتجاج أحد الأساتذة الملتزمين دينياً..

- يا أستاذ.. لا داع لتفتيش السافرات لأن آذانهن ظاهرة..

- ولو كان.. على الموظفات أن يفتشن كل الطالبات..

كان علينا أن نستجيب لطلبه، وإلا دخلنا في متاهة جديدة. فزدنا

مـن تدابـير التفتيـش ليصـل إلى الصـدر والسـاقين.. ولـكل الطـلاب.. تماشـياً مـع منطـق المحتجّـين..

مـن المهـم هنـا القـول إن مراقبـة الامتحانـات وضبطهـا المدمـاك الأول في رفـع مسـتوى التأهيـل الجامعـي، وترسـيخ المعرفـة لـدى الطالـب، إذ لا يسـتوي الذيـن يعرفـون والذيـن يغشّـون.. لم يكـن المراقبـون مـن أسـاتذة وطـلاب عـلى السـويّة نفسـها مـن الجديـة في التعاطـي مـع الامتحانـات، إن كان في المراقبـة أو في التصحيـح.. منهـم مـن كان يسـتغل المراقبـة مـن أجـل تصحيـح المسـابقات لديـه.. ومنهـم مـن كان يجـري الأحاديـث مـع زملائـه، مـع تـرك المراقبـة لشـأنها.. والأهـم مـن ذلـك، أن الطـلاب كانـوا يعرفـون بالتـمام مـن هـو الجـدّي والصـارم في المراقبـة ومـن هـو المتهـاون والمهمـل.. ويتصرفـون عـلى هـذا الأسـاس. يفرحـون بوجـود هـذا، ويغتمّـون بوجـود ذاك.

هنـا، كان عـلي أن أتنقّـل مـن غرفـة إلى أخـرى في محاولـة لضبـط العمليـة قـدر المسـتطاع، مـا أعطـى للمراقبـة أهميتهـا وجدّيتهـا.. وكثـيراً مـا اصطدمـت مـع أسـاتذة وموظفـين أهملـوا واجباتهـم، ووصـل بالبعـض منهـم إلى الخصومـة الشـخصية..

أمـا المسـألة الثانيـة التـي تـدل عـلى جديـة الامتحانـات وتنظيمهـا، فهـي عمليـة إصـدار النتائـج.. في هـذه الحالـة، كانـت الفـوضى المسـتشرية أسـاس التشـكيك في صحـة النتائـج.. كان يُـترك الأمـر إلى الأسـاتذة في نقـل علاماتهـم بمسـاعدة الموظفـين دون رقيـب أو مدقّق.. كانـت الأخطـاء بالجملـة بالاضافـة إلى إمكانيـة التلاعـب بالعلامـات.. وقـد لمسـت ذلـك أكـثر مـن مـرة قبـل إدارتي للمعهـد. وأفـدت مـن التجربـة، وتفاديتهـا. ذلـك أني قمـت بنقـل العلامـات إلى سـجلاتها الخاصـة وحـدي بمسـاعدة مـن سـحر أو مطانيـوس، رئيـسَي قسـمين موثوقـين، ومراجعتهـا مرتـين قبـل التوقيـع عليهـا.. وكان لذلـك سـببه المنطقـي.

سابقاً، كثيراً ما كانت أوراق النتائج تُنزع من الجدران لتغيير علامة هنا أو هناك.. ما أعطى للطلاب، وخصوصاً الراسبين، الفرصة للتشكيك بالنتائج، ولا يهمّ، من بعد، إذا كان لتصحيح الأخطاء أو نقصان بعض الأسماء أو العلامات.

على أي حال، جاءت النتائج على أفضل ما يمكن. ولم يسجَّل تغيير علامة واحدة إلا في حالة لم تخطر على بال أحد منا. وفي ذلك كلام يأتي في حينه.

في نهاية العام الدراسي 2007 - 2008 إنتقلنا إلى المقر الجديد الذي بُني بموجب معطيات قدمتها الادارة المركزية بالتعاون مع كلية الهندسة. استلمناه وهو غير مجهّز إلا بما أتينا به من المقرّ القديم. لا مقاعد كافية ولا مكاتب ولا قاعات مهيأة للتدريس. كان علينا إما أن نفترش الأرض أو نمدّ اليد لمؤسسات المجتمع المدني في المدينة. ذلك أن إدارة الجامعة ما كان بقدرتها أن تفعل شيئاً في ذلك الحين، إلا أن تقول: «دبّروا حالكم». وكانت نتيجة هذا التدبير أن جهّزت مؤسسة عصام فارس قاعة المحاضرات على الشكل الذي طلبناه، وجمعية العزم والسعادة جهّزت قاعة المكتبة على الشكل الذي طلبناه أيضاً. وجهّزت مؤسسة الصفدي قاعة متميّزة من قاعات التدريس في السنة الأولى بمدرّجاتها وأجهزة التواصل فيها.

لم يتبق من النواقص التي نحن بحاجة إليها إلا ما يمكن أن يجهّز المكاتب بمستلزماتها، والصفوف بمقاعدها. فاستأنفنا مسيرتنا بما هو متوفر. وفي السنة التالية 2008 - 2009 استكملنا تجهيز المعهد بما قدمته الادارة المركزية، وكان كافياً؛ ومنها المكيّفات والأدوات السمعية البصرية.

في هذه الفترة حصلت حادثتان، دمغتا المعهد بالجدية والصرامة

وذيـوع الصيـت الحسـن. الأولى، شـكوى تقدمـت بهـا إحـدى الطالبات بحـق أسـتاذ اتهمتـه بالرشـوة لقـاء تقديـم علامـات عاليـة بعـد وضـع علامـة مميـزة عـلى المسـابقة. وبنتيجـة التحقيـق أوقـف الأسـتاذ لمـدة خمسـة وخمسـين يومـاً. وغُـرّم بعـد توقيفـه عـن التدريـس وإحالتـه عـلى التقاعـد بمبلـغ خمسـة وعشريـن مليـون لـيرة، مـع إدانتـه بتهمـة إلحـاق الـضرر بسـمعة الجامعـة وسـمعة أسـاتذتها.

أمـا الحادثـة الثانيـة، فلـم تقـلّ خطـورة عـن الأولى، لأنهـا طالـت إحـدى الطالبـات وأصابتهـا بعـارض نفـسي كاد أن يـودي بهـا. ذلـك أنهـا جـاءت بنـاء عـلى طلبنـا لإبلاغهـا أنهـا رسـبت في مـادة محـددة بعـد أن أعلنـت النتائـج فوزهـا فيهـا نتيجـة لخطـأ مـادي. جـاءت لتسـتوضح الأمـر، وقـد اعتـبرت أن هـذه المسـابقة كانـت مـن أفضـل المسـابقات التـي قدمتهـا، وقـد بـدت في حالـة نفسـية متوتّـرة. وكان مـن عـادتي أن أنظـر في كل مسـابقة مشـكوّ منهـا. أحـضرت مسـابقتها وأريتهـا إياهـا وهـي تحمـل علامـة 35 مـن 100. تطلّعـت فيهـا مليّـاً وصرخـت،

– هذه ليست مسابقتي.

استفزّني تصريحها وصراخها.

– مسـابقة مـن هـي إذن؟ قلـت. لا بـد أن أحـداً كتبهـا لـك باسـمك. وهـذا يسـتوجب عقابـاً مضاعفـاً.

مـا حـدث بعـد ذلـك مـا كان ليخطـر في بـالي يومـاً. لقـد قفـزت الطالبة كالمجنونـة وبـدأت تقفـز وتهبـط وهـي في صراخ مسـتمر حتـى كاد يلامـس رأسـها السـقف. وهـذا مـا أرعبنـي. جـاء رئيـس قسـم اللـوازم المسـؤول عـن حفـظ المسـابقات يـسرّ في أذني، بعـد سـماعه الـصراخ، دعنـا نتحقـق مـن بعـض الأمـور قبـل البـتّ في هـذه القضيـة. نظرنـا أولاً في ختـم المسـابقة في نصفيـه، الأول عـلى الورقـة الملويـة وهـي

الملصوقة بالورقة الرئيسية، والنصف الثاني على صفحة الورقة الأساسية. والمفاجأة كانت عدم تطابق النصفين. هدّأ ذلك من روعي في تلك اللحظة، وفتّح نظري على أمر آخر ما كان ليخطر ببالي مطلقاً، وهو استبدال الاسم باسم آخر على الورقة نفسها. ولزيادة التأكد طلبت من مطانيوس معوض (الموظف رئيس القسم) أن يُحضر مسابقات أخرى للطالبة على سبيل المقارنة. زاد اليقين عندما تأكدنا أن الخط مغاير وفيشة التعريف على المسابقات تختلف عن فيشة المسابقة المعنيّة. هنا ظهر التزوير بأوضح معانيه. جاء أحدهم وأزال اسم الطالبة عن المسابقة الراسبة ووضع اسمها على مسابقة فائزة، وأعاد الكرة معكوسة، أي وضع اسم الطالبة الثانية على المسابقة الراسبة. نجّح في ذلك الطالبة الراسبة، وأسقط الطالبة الفائزة. والسؤال هنا كيف بدأت العملية؟ وبعد صدور النتائج؟

الطالبة نفسها المساهمة في عملية التزوير جاءت تشتكي بأن ثمة خطأ في نقل العلامات لأنها قدمت مسابقتين جيدتين ومن المستحيل أن ترسب فيهما، مع اسمَي المسابقتين، وطلبت منا فقط مراجعتهما للتأكد. وعند المراجعة ظهر الخطأ وبان الصح (المزور) واعتذرنا من الطالبة (المزوِّرة). ولأن النتائج صدرت وظهر نجاح الطالبة في المادتين، وبالتالي رسوب طالبتين بعد نجاحهما بالمادتين ذاتهما، استوجب ذلك تصحيح النتائج، وبالتالي إبلاغ كل من الراسبتين في إحدى المادتين بعد نجاحهما، والسبب باعتقادنا، هو وضع العلامتين في غير مكانهما الصحيح. هنا ظهرت الطالبتان الراسبتان، واكتشفنا مكمن التزوير بمراجعة إحداهن. بعد إعادة الوضع إلى ما كان عليه، إلتفتنا إلى مكان آخر لنعرف من قام بهذه العملية، وبهذا الاحتراف؟

ما كان يحمل مفاتيح مكتب الادارة إلا المدير، هكذا كان على حدّ

علمـي. ولم أدرِ أن مفاتيـح الادارة معطـاة مـن قبـل المديـر السـابق إلى حاجـب المعهـد يدخـل إليهـا ويخـرج منهـا سـاعة يشـاء في غيـاب المديـر. ولم يخطـر في بـالي تغيـير الأقفـال. بعـد تحقيقـات مطوّلـة رفضـت الطالبـة ذكـر اسـم مـن قـام بعمليـة التزويـر، لخوفهـا منـه، والمتهـم الوحيـد أنكـر مـا نُسـب إليـه. وصـل الأمـر إلى المباحـث وإلى الإدارة المركزيـة. لم نصـل إلى أي نتيجـة. وانتهـى الأمـر بـأن طُـردت الطالبـة مـن المعهـد وسُرّح الحاجـب مـن العمـل. وانتهـى الأمـر عنـد هـذا الحـد. في السـنة نفسـها، تعـرض مكتبـا الادارة وأمانـة الـسر إلى عمليـة سرقـة في فـترة الامتحانـات. دخـل السـارق مـن نافذتـين بعـد لـوي شـباكهما، فوُفـق في مكتبـي، ولم يوفـق في مكتـب أمانـة الـسر. وكان مـن ضمـن اهتمامـي بالامتحـان أن يـأتي الأسـتاذ بثلاثـة نمـاذج مـن الأسـئلة قبـل موعـد تقديمهـا بيـوم واحـد، عـلى أن أطبعهـا حسـب نمـوذج أسـئلة موحـد صبيحـة يـوم الامتحـان.. أنتقـي أسـئلة مسـابقة مـن الثـلاث. وأوزعهـا عـلى الصفـوف لحظـة بدايـة الامتحـان.. ألغيـت بذلـك أي إمكانيـة لتسريـب الأسـئلة، والفـوضى في ترتيـب مضمـون المسـابقات. بعـد كل ذلـك أضـع الأسـئلة في الخزنـة الحديديـة، يومـاً بيـوم. وكان أن فتـح السـارق الخزنـة في الادارة بسـهولة لأنهـا كانـت مغلقـة بالمفتـاح بسـبب الاسـتعمال اليومـي.. بينـما فتـح خزانـة أمـين الـسر مـن أسـفلها بنـار الأوكسـجين. مـزق السـارق بعـض مغلفـات الأسـئلة، ولأنـه لم يجـد شـيئاً، عـفّ عـن البقيـة.. ووُفّـق بمبلـغ مـن المـال كنـت قـد أودعتـه فيهـا بمـا أنـه يخـصّ المعهـد وبعـد نصيحـة أمـين الـسر بـأن لا أبقـي عـلى مـال في المكتـب.. خـسرت المـال وربحـت الخزنـة.. وخـسر أمـين الـسر الخزنـة دون أن يخـسر مـالاً.. حـضرت الشرطـة والمباحـث الجنائيـة، قامـوا بمـا عليهـم وذهبـوا.. لم أفصـل بـين مـا حصـل هنـا ومـا حصـل هنـاك، ولكـن لا دليـل يديـن..

لم يقتـصر عمـلي في الادارة عـلى تسـيير المعهـد وقيامـي بالتدريـس بنصـاب كامـل، بـل تعـدّى الأمـر ذلـك إلى تنظيـم المؤتمـرات العلميـة

ابتـداء مـن العـام 2008، بالمشـاركة مـع د. مهـا كيـال. وكان أن انعقـد أربعـة مؤتمـرات بـين عامـي 2008 و2014 باسـم المعهـد بالمشـاركة في اثنـين منهـا مـع جامعـة البلمنـد والجمعيـة اللبنانيـة لعلـم الاجتـماع؛ هـذا بالاضافـة إلى تنظيمـي وإعـدادي لسـتة مؤتمـرات ونـدوات وورش عمـل مـن 1999 إلى 2003.

في العـام 2004 تـمّ ترشـيحي، دون علمـي، لمنصـب العميـد في معهـد العلـوم الاجتماعيـة. لا أدري حتـى الآن مـن الـذي رشّـحني. تبلّغـت أننـي فـزت بنتيجـة الاقـتراع مـع اثنـين مـن زمـلائي: فردريـك معتـوق وابراهيـم مـارون. كان ذلـك بسـبب ترقيتـي إلى رتبـة أسـتاذ في العـام 2003. وكان زميـلاي قـد نالاهـا منـذ مـدة طويلـة. أحدهـما كان زميـلَ الدراسـة منـذ أيـام الثانويـة، والثـاني كان الأسـتاذ المـشرف عـلى أطروحتـي للدكتـوراه.

كان الزميـل رشـيد شـقير عضـو مجلـس الجامعـة في ذلـك الحـين، قـد اقـترح الأمـر للتـداول في مجلـس الجامعـة، باعتبـار أن الثلاثـة مسـيحيون، ولا بـد مـن التنويـع كي لا يُفـرض عـلى المعهـد عميـد مـن خارجـه، حسـب التقسـيم الطائفـي. وهاتفنـي ليبلغنـي ذلـك حتـى لا أتلقّـى الخـبر مـن غـيره، أو أعتـبر أن هـذه الخطـوة موجهـة ضـدي. فطَمأنتُـه وشـكرته. في مجلـس الجامعـة تـمّ انتخـاب الثلاثـة المذكوريـن، ومنهـم طبعـاً اسـمي. لم أدر بـكل مـا حصـل لا في مجلـس الجامعـة، ولا قبـلُ في مجلـس المعهـد. هاتفنـي د. جـان جبـور ممثـل كليـة الآداب في مجلـس الجامعـة ليعاتبنـي لأننـي لم أشـكره عـلى اقتراعـه لصالحـي. فأخبرتـه بأننـي لا علـم لي بـكل هـذا الأمـور. بقـي الأمـر بـين أخـذ وردّ مـا يقـارب السـنة. وفي بدايـة 2005 بـدأ يظهـر اسـمي كعميـد لمعهـد العلـوم الاجتماعيـة منفـرداً في الصحـف عـلى مـدى أسـبوع كامـل، وظهـر في ترجيحـات بقيـة الكليـات والمعاهـد مرشـحان أو ثلاثـة، عـلى أن يختـار مجلـس الـوزراء واحـداً مـن كل

كلية أو معهد. بقي الأمر على هذه الحال لفترة، إلى أن تحدّدت جلسة لمجلس الوزراء في 16 أو 17 شباط 2005 للبت بالأمر والتعيين. وكان أن استشهد الرئيس الحريري في 14 منه، كما هو معروف، وبقي عمداء الجامعة بالتكليف حتى عُيّنوا رسمياً بعد إحالتي على التقاعد في العام 2014.

ما يمكن ذكره في هذه الفترة، والجدير بالاعتبار، هو استياء العميد المكلّف من ذكري المتواصل في الصحف باعتباري المرشح الوحيد، فأوصل لي خبراً بأنه مستاء ولا يريد رؤيتي في غداء الباحث عزمي منصور الأردني الذي علينا مناقشة أطروحته للدكتوراه سوية، قبل دعوة الغداء. فإذا حضرت أنا سيتغيّب هو أو العكس. ما كان مني إلا أن بكّرت في الحضور إلى المعهد لمعرفة السبب الذي لم يكن إلا المنافسة على عمادة المعهد، باعتباره. وهو ما لم يخطر على بالي قط، لأن العميد يدرك تماماً أن لا علم لي بترشيحي، فهو رئيس مجلس المعهد وعضو مجلس الجامعة ويعرف كل شيء في هذا الخصوص. شرحت له الأمر الذي هو أدرى به مني. فطلب مني أن أوضح ذلك للملأ. فكان أن أرسلت توضيحاً لصحيفة النهار أذكر فيه مدى صلتي بالعميد ودرجة علاقتي به، وأنني غير منافس لأحد ولم أترشح في الأصل، وأترك الأمر لمجلس الوزراء ليقرّر ما يراه مناسباً.

انتهى الأمر عند هذا الحد، ولكنه لم ينتهِ عند العميد، اذ قطع استمراره في الطلب مني إلقاء محاضرات في علم اجتماع المعرفة لطلاب الدبلوم في بيروت، بعد أن كان يصرّ عليّ ويلحّ للقبول بهذا الأمر، وخصوصاً بعد أن تم تعييني مديراً للمعهد في نهاية العام 2006. إلا أن علاقتي بقيت جيدة معه من باب الوفاء والصداقة. وما يجدر ذكره في هذا الاطار هو خسارتي للسنة السابعة الوحيدة التي تستحق لي بسبب إدارتي للمعهد، وبإصرار من العميد ورئيس

الجامعـة. فكنـت الوحيـد الـذي قضيـت في الجامعـة إثنتـين وعشريـن سـنة ولم أحصـل عـلى إجـازة السـنة السـابعة، وخرجـت منهـا دون كلمـة «يسـلمو»، إلا، والحـق يقـال، مـا قـام بـه مديـر المعهـد اللاحـق غسـان الخالـد مـن طقـوس التكريـم لي ولزمـلائي، ومنهـم العميـد.

قبـل نهايـة مـدة خدمتـي أصيـب المعهـد بلوثـة المحـاور. وظهـر مـا لم يظهـر سـابقاً مـن شـهوة ركـوب المراكـز، إن كان عـلى مسـتوى الادارة أو العـمادة. وقـاد العمليـة مـن كان لـه أن يـورّث هـذا المركـز لمـن يرتئيـه هـو بـصرف النظـر عـن الكفـاءة أو الجدّيـة في العمـل الاداري، فقـط مــن أجــل إظهــار مــدى تحكّمــه بمصــير المعهــد وتوجّهــه، انطلاقـاً مـن علاقاتـه الشـخصية، ومـا يمكـن أن تجـرّ مـن منفعـة. وهكـذا بـدأ الـصراع مرفقـاً بالكيديـة والانقسـام، وتـم تكليـف عبـد الغنـي عـماد عميـداً، وإقصـاء البقيـة، مـن قبـل رئيـس الجامعـة، إلى أن تـم التعيـين الرسـمي مـن قبـل مجلـس الـوزراء لعميـد أصيـل لم يتبـقّ لـه في الخدمـة أكـثر مـن سـنة ونصـف. ونتيجـة للوسـاطات، وباسـم الطائفـة والطائفيـة أقـصي العميـد المكلـف، بعـد سـتة أشـهر مـن تكليفـه، وعُـيّن العميـد الجديـد لمـدة سـنة ونصـف، وهـو مـا كان مخالفـاً للقانـون ولمتوجّبـات التعيـين.

في هـذه الفـترة بـدأ الانهيـار المريـع للمعهـد، إن كان بالنسـبة لممارسـة الكيديـة في التعاطـي مـع الأسـاتذة، فيقصيهـم العميـد عـن لجـان المناقشـة، وعـن أي نشـاط للمعهـد، حتـى أنـه سـحب مواضيـع وألغى ذكـر أسـماء مـن مجلـة المعهـد وهـي في المطبعـة. وأغـدق العضويـة لآخريـن دون وجـه حـق، تجمعـه بهـم المصلحـة الشـخصية والمنفعـة المتبادلـة دون أي اعتبـار للمصلحـة الأكاديميـة. يقـرّب هـذا ويبعـد ذاك، في شـكل سـافر، ويقيـم الـدروس الخصوصيـة لطـلاب الدبلـوم والأسـاتذة في المنـزل والمعهـد لقـاء بـدل مـادي، مـا أدى إلى ذيـوع صيتـه بـين الأسـاتذة والطـلاب بالجهـر والهمـس. هـذا مـن ناحيـة؛ أما

مـن الناحيـة الثانيـة، فقـد أدّى تنزيـل الحـد الأدنى لعلامـات القبـول للتسـجيل في شـهادة الدكتـوراه إلى كارثـة حقيقيـة مـا زال المعهـد يعـاني منهـا إلى اليـوم؛ إذ ظهـر في المشـهد الأكاديمـي مئـات الطـلاب الذيـن حصلـوا عـلى شـهادة الدبلـوم منـذ عقـود، وصـار بإمكانهـم التسـجيل لمرحلـة الدكتـوراه، مـع سـهولة إمكانيـة التسـجيل بعـد مناقشـة المـشروع مـن قبـل لجنـة توافـق عليـه في الأغلـب، مـع بعـض التعديـلات، مـن بـاب تبـادل المنفعـة. صـار لـدى المعهـد مئـات الطـلاب يعملـون للحصـول عـلى شـهادة الدكتـوراه. ضاق المعهـد بهم، وقـلّ عـدد الأسـاتذة المخوّلـين الاشراف عـلى طـلاب الدكتـوراه. وتـم العمـل عـلى ترفيـع المعيديـن والأسـاتذة المسـاعدين بآليـة متسـاهلة للحصـول عـلى أكـبر عـدد ممكـن منهـم، حتـى ولـو كانـت مقالاتهـم منشـورة في الصحـف اليوميـة، أو لا علاقـة لهـا بأختصاصهـم، أو ذات منهجيـة تقنيـة لا علاقـة لهـا بالأصالـة وبالأبحـاث الجـادّة. ذلـك كلـه لاحتـواء العـدد المتزايـد مـن الطـلاب، مـن ناحيـة؛ ولفتـح السـقف للأسـاتذة الذيـن بأكثريتهـم يسـتحقون ذلـك، نظـراً لمـا قدمـوه مـن أبحـاث أكاديميـة جديـرة بالاعتبـار والتصنيـف، مـن ناحيـة ثانيـة. ونتيجـة مـا حصـل، بعـد ذلـك، معروفـة لأهـل المعهـد وخرّيجيـه..

أمـا في مـا يخصنـي، فقـد نلـت رتبـة أسـتاذ في علـم الاجتـماع في العـام 2003، وحتـى العـام 2020 لم يتخـرّج مـن الطـلاب بـإشرافي إلا سـبعة.. لا أريـد أن أذكـر السـبب، ولكـن المهـم القـول إن الذيـن تخرجـوا بـإشرافي هـم مـن أفضـل الأسـاتذة في معهـد العلـوم الاجتماعيـة وكليـة التربيـة، ومـن أفضـل المتخرجـين. وواجـب الإخـلاص لهـم وللسـنوات التـي قضيتهـا معهـم لا بـد مـن ذكرهـم، وهـم عـلى التـوالي: لبنـى عطـوي، عبـد الإلـه شـميس، سـليمة عبـد الباقـي، يوسـف كنعـان، إيمـان شـعيب، نـوري الحجاجـي (مـن ليبيـا)، ومـاري خـير.

ليـس هـذا فحسـب، بـل عملـت الادارة المركزيـة بشـخص رئيسـها

ومجلسـها بحرمـان الأسـاتذة مـن سـنوات الاشراف بحجـة تجـاوز الطـلاب الفـترة المقـرّرة لإنجـاز أطاريحهـم، وبالتـالي لا يحـقّ للأسـتاذ تعويضـات الإشراف عليهـا خـارج هـذه المـدة المقـررة، أولاً بثـلاث سـنوات، ومـن ثـم بخمـس. والأهـم مـن ذلـك أن هـذا القطـع قـد تـم بعـد تنفيـذ فـترة الاشراف بسـنتين أو ثـلاث سـنوات. إنجـاز لم تفعلـه أي شركـة خاصـة في لبنـان. ذلـك كلـه باسـم إيقـاف الهـدر، والتقشـف الـذي لا يـسري إلا عـلى الأسـاتذة والمسـتلزمات الأكاديميـة.

بالمقابـل، مـا كان عـلي أن أفعـل تجـاه جامعتـي وتجـاه معهـدي الـذي فيـه أكملـت اختصـاصي الأكاديمـي، ومارسـت التدريس؟

كنـت أمـارس البحـث السوسـيولوجي قبـل أن أنـال شـهادة الدكتـوراه. وقـد نـشرت بعـد نيـلي الجـدارة بحثـين أعتبرهـما مـن أهـم الأبحـاث التـي عقدتهـا؛ أحدهـما عـن الطائفيـة، البحـث الـذي كتبتـه قبـل نيـلي شـهادة الجـدارة العـام 1978، وهـو القسـم الأول مـن كتـاب «الدولـة المؤجّلـة» الـذي صـدر في العـام 2000. هـذه المعلومـة لم يعرفهـا أحـد مـن قبـل. أمـا الثـاني فقـد تنـاول منظومـة التسـميات في قريـة لبنانيـة، وقـد عقدتـه بعـد نيـلي شـهادة الجـدارة مبـاشرة، وقـد نـشر في مجلـة الفكـر العـربي العـدد 68، قبـل نيـلي شـهادة الدكتـوراه.

مـا أنجزتـه مـن أبحـاث وإشراف ومؤلفـات جـاء نتيجـة لشـغفي العلمـي في البحـث والكتابـة. نـشرت في أغلـب المجـلات الدوريـة اللبنانيـة وبعـض العربيـة. شـاركت في نـدوات ومؤتمـرات لبنانيـة وعربيـة باسـم معهـد العلـوم الاجتماعيـة، وشـاركت في أبحـاث نـشرت في كتـب لمجموعـة باحثـين، وشـاركت آخريـن في كتابـة مؤلفـات متخصصـة في السوسـيولوجيا. كـما وضعـت كتابـاً عـن سـيرة علـم مـن أعـلام الصحافـة في الشـمال بنـاء عـلى منحـة مقدمـة في هـذا الخصـوص. ووضعـت المؤلفـات في سوسـيولوجيا المعرفـة والثقافـة والسياسـة والديـن وصلـت إلى أربعـة وعشريـن كتابـاً، منهـا مدوّنـة

الثقافـة الشـعبية العربيـة (أربعـة كتـب منفصلـة). وكان لمؤلفـاتي صداهـا الإيجـابي بصفتـي أحـد أسـاتذة معهـد العلـوم الاجتماعيـة في الجامعـة اللبنانيـة. وقمـت بمـا يتوجـب علـي مـن نشـاطات وطنيـة واجتماعيـة وسياسـية لمـا يمكـن أن يسـمى بالعمـل الوطنـي لنـصرة قضايـا الحـق العربيـة ومنهـا قضيـة فلسـطين والقضيـة اللبنانيـة والقضايـا العربيـة الناشـئة عـن السـيطرة الاسـتعمارية، ونهـب المـوارد الطبيعيـة فيهـا.

قمـت بإجـراء مقابـلات إذاعيـة وتلفزيونيـة متعـدّدة شـملت إذاعـات لبنانيـة ودوليـة منهـا، إذاعـة النـور والاذاعـة اللبنانيـة وإذاعة الشـعب وإذاعـة مونتـي كارلـو الدوليـة والإذاعـة العربيـة وإذاعـة تريبل أس في ملبـورن – أسـتراليا؛ وفي أغلـب محطـات التلفـزة في لبنـان والمحطـات الفضائيـة: الجزيـرة، وأم بي سي، وفلسـطين اليـوم، والميادين والمنـار، والعـالم وسـمر الإيرانيتـين وغيرهـا. ومواضيـع البحـث كانـت تتنـاول مسـائل سوسـيولوجية، وباسـم معهـد العلـوم الاجتماعيـة في الجامعـة اللبنانية.

أمـا في مـا يتعلـق بإنجـازاتي العلميـة والأكاديميـة فيمكـن إيرادهـا كـما يـلي، هـذا طبعـاً بالاضافـة إلى الاحتفـالات والكلـمات التـي ألقيـت في حفـلات التكريـم والمناسـبات الوطنيـة.

السيرة الذاتية

عاطـف عطـيّه هاتف 9613738545 atefattieh@gmail.com

- مواليد مركبتا، قضاء المنية والضنية، 17 شباط 1950.
- أسـتاذ في المعهـد العـالي للدكتـوراه في الآداب والعلـوم الانسـانية والاجتماعيـة، في الجامعـة اللبنانيـة.
- مديـر معهـد العلـوم الاجتماعيـة، الفـرع الثالـث، طرابلـس (2007 - 2014). وأسـتاذ علـم الاجتـماع فيـه (1992 - 2014).

– نـال الإجـازة التعليميـة في العلـوم الاجتماعيـة سـنة 1974 مـن معهـد العلـوم الاجتماعيـة في الجامعـة اللبنانيـة.

– نـال الإجـازة التعليميـة في التاريـخ والآثـار سـنة 1977 مـن كليـة الآداب في الجامعـة اللبنانيـة.

– نـال شـهادة الجـدارة في علـم اجتـماع العائلـة سـنة 1979 مـن معهـد العلـوم الاجتماعيـة في الجامعـة اللبنانيـة.

– نـال دبلـوم الدراسـات المعمّقـة في علـم الاجتـماع السـياسي سـنة 1981 مـن معهـد العلـوم الاجتماعيـة، الجامعـة اللبنانيـة . وكانـت رسـالته «في السـلطة المحليـة».

– نـال دكتـوراه الدولـة اللبنانيـة في علـم اجتـماع المعرفـة سـنة 1991 مـن الجامعـة اللبنانيـة بدرجـة جيـد جـدّاً، عـلى أطروحتـه حـول الوحـدة والتنـوّع في العـادات والتقاليـد الاجتماعيـة اللبنانيـة.

– عضو الهيئة الادارية للمجلس الثقافي للبنان الشمالي.

– عضو اتحاد الكتّاب اللبنانيين.

– عضو الجمعية العربية لعلم الاجتماع.

– نـشرت لـه دار «جـرّوس بـرس»، طرابلـس، أطروحتـه كاملـة العـام 1992 تحـت عنـوان: «المجتمـع، الديـن والتقاليـد».

– نـشرت لـه دار «ريـاض الريّـس للكتـب والنـشر»، بـيروت، بالمشـاركة مـع آخرين،»كتـاب الناقـد»، العنـف الأصـولي ـ نـواب الأرض والسـماء، العـام 1995.

– نـشرت لـه دار «جـرّوس بـرس»، طرابلـس، بالاشـتراك مـع د. عبـد الغنـي عـماد، «البيئـة والإنسـان، دراسـات في جغرافيـة الإنسـان، المعـاش والسياسـة، العـام 1998. ونـشرت الطبعـة الثانيـة، المزيـدة والمنقحـة، دار مختـارات، الزلقـا، العـام 2002.

– نـشرت لـه «دار النهـار للنـشر»، بـيروت، دراسـة معرفيـة بعنـوان: «لطـف اللـه خـلاط، الصحافـة بـين الديـن والسياسـة»،

العــام 1999.

– نـشرت لـه «دار أمـواج» و«مكتبـة بيسـان»، بـيروت، دراسـة سوسيوسياســية بعنــوان: «الدولــة المؤجلــة، دراســة في معوّقــات نشـوء الدولـة والمجتمـع المـدني في لبنـان»، العـام 2000.

– نـشرت لـه «دار مختـارات»، الزلقـا، «تحـولات الزمـن الأخير» بالمشـاركة مـع د. مها كيـال، العـام 2001.

– نـشرت لـه «دار مختـارات»، الزلقـا، «التدخـل الاجتماعـي، المسـتويات، الميادين والتجـارب»، العـام 2002؛ الطبعـة الثانيـة، دار نلسـن، 2016، بـيروت.

– نـشرت لـه «دار الانشـاء ومركـز محمـود الأدهمـي الثقـافي»، طرابلـس، «في الاجتـماع اللبنـاني، جدليـة الوحـدة والتعـدد»، العـام 2005.

– نـشرت لـه «دار الانشـاء ومركـز محمـود الأدهمـي الثقـافي»، طرابلــس، «تشريــق وتغريــب، مقاربــات سوســيولوجية عربيــة»، العــام 2006.

– نـشرت لـه «دار مختـارات»، الزلقـا، «طرابلـس مـن الداخـل، دراسـة سوسـيولوجية أنتروبولوجيـة للمدينـة القديمـة»، بالمشـاركة مـع د. مهـا كيـال، العـام 2006.

– نـشرت لـه «دار مختـارات»، الزلقـا، «تنويعـات عـلى مقـام الوحـدة»، العـام 2008.

– نــشرت لــه «دار نلســن»، بــيروت، «في المعرفــة والثقافــة والعولمــة»، العــام 2011.

– نــشرت لــه دار نلســن، بــيروت، الثقافــة المعولمــة، العــام 2014.

– نـشرت لـه دار جـروس بـرس، طرابلـس، بالمشـاركة مـع د. شـوقي عطيـه، جغرافيـة السـكان، العـام 2016.

– نـشرت لـه دار جـروس بـرس، طرابلـس، في الثقافـة الشـعبية

العربيـة، بنـى الـسرد الحـكائي في الأدب الشـعبي، العـام 2016.

– نـشرت لـه دار جـروس بـرس، طرابلـس، في الثقافـة الشـعبية العربيـة، المعنـى في القـول والمغنـى، العـام2017.

– نـشرت لـه دار جـروس بـرس، طرابلـس، في الثقافـة الشـعبية العربيـة، المعتقـدات في التقاليـد والعـادات، العـام 2018.

– نـشرت لـه دار جـروس بـرس، في الثقافـة الشـعبية العربيـة، الرحمـة والحكمـة في الطـب والأمثـال، العـام 2019.

– في الإعـداد، الـتراث الشـعبي في المـشرق، لصالـح مركـز المـشرق للأبحـاث والدراسـات.

ـــ ظهـر لـه في دوريـات لبنانيـة وعربيـة متخصّصـة الأبحـاث التاليـة :

– الأسـماء المتداولـة في قريـة لبنانيـة ، «الفكـر العـربي» ، العدد 62 ، تشريـن الأول ـ كانـون الأول 1990 .

– الدولـة المؤجّلـة ، في العائلـة والسياسـة واللغـة والمـرأة ، «الناقـد» ، العــدد 55 ،كانــون الثــاني 1993 .

– هراطقــة وأطهــار ، العلمانيــون والأصوليــون في مجتمــع متعــدد ، «الناقــد» ، العــدد 71 ، أيــار 1994 .

– الدولـة المؤجلـة ، بحـث في أنتروبولوجيـا القبيلـة عنـد فـؤاد اسـحق الخـوري ، الاجتهـاد ، العـدد 17، خريـف 1992.

– قـراءة في دراسـة السـلطة في بـلاد الشـام ، الاجتهـاد ، العـدد 25 خريـف 1994 .

– المثقــف العــربي وصدمــة الحداثــة ،»المســتقبل العــربي» ، العــدد 199 ، أيلــول 1995 .

– تأسـيس العنـف الرسـمي ، في العلاقـة بـين الدولـة والمجتمـع، «الثقافـة»، العـدد 32 تمـوز 1995.

– الفكــر والممارســة في أيديولوجيــا الاســتنهاض اليهــودي، «الفكــر العــربي» العــدد 96 ربيــع 1999.

- جدلية النظرية والممارسة في فكر أنطون سعادة، إتجاه، العدد 15 ، كانون أول ـ شباط، 1999 - 2000 .

- الحس المدني بين الوعي والممارسة، العلوم الاجتماعية، العدد 6، أيار، 2000 .

- من النظام الأبوي إلى النهضة الشاملة، إتجاه، العدد 17 ، تشرين الثاني، كانون الاول، 2000.

- فلسفة الموت، الايمان والممارسة، الفكر العربي، العدد 99 ، شتاء، 2000 .

- الشباب والحداثة، فكر، العدد 75 ـ 76 ، شباط، أيار، 2001 .

- الهوية الوطنية وفخ العولمة، الدفاع الوطني، العدد 37، تموز 2001 .

- المتحد في نظرية سعادة الاجتماعية، إتجاه، العدد 19، أيلول، تشرين الأول، 2001 .

- حوار مطول مع المفكر العربي هشام شرابي، المستقبل العربي' العدد 276، شباط، 2002 .

- ثقافة العنف في سوسيولوجيا السياسة الصهيونية، المستقبل العربي، العدد 278، نيسان 2002.

- طرابلس بين حارات البلد وشوارع المدينة، بين الريف والمدينة، منشورات جامعة سيدة اللويزة، 2003، بيروت.

- التنمية الانسانية والديموقراطية، إضافات، العدد الرابع، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، 2003، بيروت.

- الدائرة الانتخابية والزعامة السياسية، الجغرافيا الانتخابية في لبنان، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم 2004، بيروت.

- تكنولوجيا العولمة وهوية المستقبل، فكر، العدد 85، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، 2004، بيروت.

- الاصلاح ومسألة الهوية، الاصلاح والتغيير، المنتدى الثقافي

اللبنـاني السـوري ومؤسسـة تشريـن للصحافـة والنـشر، 2004، دمشـق.

– الانتخابـات البلديـة بـين القانـون والممارسـة، اللامركزيـة الاداريـة والانمـاء والعمـل البلـدي، المركـز الوطنـي للأبحـاث والتوثيـق، 2005، طرابلـس.

– الصلاحيات البلدية بين القانون والممارسة، مرصد التشريع في لبنان، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم، 2005، بيروت.

– الاصلاح ومسألة الهوية، فكر، العدد 87، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، 2005، بيروت.

– استيعاب التكنولوجيا بين العولمة والحفاظ على الهوية، مجلة الجنان للبحث العلمي، جامعة الجنان، 2005، طرابلس.

– السلطة بين السياسة والدين، فكر، العدد91، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، 2006، بيروت؛ والحياة الطيبة، العدد 20، خريف 2006.

– المنطق المعولم بين الصدام والوئام، إشارات، العدد 6، صيف 2007.

– المراهقة بين حراك الهوية وحرارة الانتماء، الدراسات الأمنية، العددان 31-32، تموز- كانون الأول 2007.

– لبنان المجتمع والهوية، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد 15، صيف، 2007.

– طرابلس القديمة، الاقتصاد في المجتمع، العلوم الاجتماعية، العدد 10، أيار، 2007.

– موقع شرابي في الفكر العربي الحديث، فكر، العدد 111، صيف 2009.

– تبادل الخدمات بين الثقافة والسياسة، العلوم الاجتماعية، العدد 12، تموز 2009.

– الدين والدولة والعلمانية، تحولات مشرقية، العدد1،

صيـف 2013.

- العرب والغرب، تحولات مشرقية، العدد4، تموز 2014.

- العرب والعولمة، تحولات مشرقية، العدد 6، شباط 2015.

- العـرب بـين سياسـة المصلحـة ومصلحـة السياسـة، تحـولات مشرقيـة، حزيـران 2015.

- لبـاس المـرأة العربيـة بـين التقليـد والتعبـير عـن الهويـة، الثقافـة الشـعبية، البحريـن، العـدد29، ربيـع 2015.

- الثقافـة الشـعبية بـين المـادي واللامـادي، الثقافـة الشـعبية، البحريـن، العـدد31، خريـف 2015.

- الغـرب والآخـر، تداخـل العلمنـة والهيمنـة، الاسـتغراب، العـدد2، شـتاء 2016.

- القـول بالعاميّـة والشـعر الشـعبي، الثقافـة الشـعبية، البحريـن، العـدد 36، شـتاء 2017.

- المعتقـدات الشـعبية، أسسـها وتجلياتهـا في الممارسـة العملية، الثقافـة الشـعبية، البحريـن، العـدد 42، صيف 2018.

- الثقافـة الشـعبية أسـاس الحضـارة الانسـانية، الثقافـة الشـعبية، البحريـن، العـدد 43، خريـف 2018.

- الطـب الشـعبي العـربي، تقنيـات التـداوي بالأعشـاب، وعمليـات العـلاج، الثقافـة الشـعبية، البحريـن، العـدد 49، خريـف 2020

ــــ شارك في ندوات ومؤتمرات لبنانية وعربية عدة ، منها:

- نـدوة فكريـة بعنـوان: «تأسـيس العنـف الرسـمي»، في العلاقـة بـين الدولـة والمجتمـع بالاشـتراك مـع د. أحمـد برقـاوي، رئيـس قسـم الفلسـفة في جامعـة دمشـق، 30 تمـوز 1994 في بيـت شـباب، قضـاء المـتن.

- نـدوة فكريـة بعـنوان «أهمية الدور الحرفي والعمل النـقابي

في المجـتمع» بالاشـتراك مـع د. حنـان غـازي ود. مصطفـى علـوش في قاعـة نقابـة أصحـاب محـلات النجـارة والتنجيـد وتوابعهـما في الشـمال، بتاريـخ27 كانـون الثـاني 1995 .

– نـدوة فكريـة حـول كتـاب كـمال شـاتيلا «الوطـن أولاً» بالاشـتراك مـع د. مهـاب نجـا ونقيـب المحامين جـورج مـوراني نظمها المؤتمـر الشـعبي اللبنـاني في مركـز رشـيد كرامـي الثقـافي البلـدي في طرابلـس بتاريـخ 21 نيسـان 1995.

– نـدوة «الأوضـاع الصحيـة في الشـمال» بالاشـتراك مـع د. مصطفـى علـوش ود. بهيـج عربيـد ود. كـمال معـوض نظمتهـا مؤسسـة الرعايـة الصحيـة والاجتماعيـة في مركـز رشـيد كرامـي الثقـافي البلـدي بتاريـخ 28 نيسـان 1995 .

– نـدوة فكريـة حـول «الاسـتقلال ومفهـوم الدولـة الطائفيـة والمجتمـع المـدني» بالاشـتراك مـع د. خالـد زيـادة نظمتهـا جمعيـة العونـة في زغرتـا بتاريـخ 22 تشريـن الثـاني 1996.

– نـدوة فكريـة حـول كتـاب العميـد الدكتـور ياسـين سـويد «نحـو اسـتراتيجية جـادة لعمـل عـربي مشـترك» بالاشـتراك مـع د. مصطفـى الحلـوة ود. محمـود سـليمان ، نظمهـا اتحـاد الشـباب الوطنـي والمركـز الوطنـي للدراسـات في قـصر رشـيد كرامـي الثقـافي البلـدي ، طرابلـس، 3 نيسـان 1997.

– مؤتمـر «الهيئـات الاجتماعيـة العاملـة في كوسـبا قضـاء الكـورة» نظمتـه مطرانيـة طرابلـس والكـورة وتوابعهـما للـروم الأرثوذكـس، مجلـس رعيـة كوسـبا بتاريـخ 12 حزيـران 1997. وكانـت المشـاركة بمحـاضرة بعنـوان»دور الجمعيـات والأنديـة في حمايـة البيئـة والمجتمـع» بالاشـتراك مـع المطـران اليـاس قربـان ود. أنطونيـوس نعـوم.

– نـدوة فكريـة بعنـوان «أنطـون سـعادة مفكّـراً» أقيمـت في القـصر الثقـافي الملـكي في عـمّان ونظمتهـا الجمعيـة الفلسـفية الأردنيـة بالتعـاون مـع الجمعيـة الفلسـفية العربيـة بتاريـخ 20،

21 و22 أيلـول 1997، وكانـت المشـاركة ورقـة بعنـوان «التطـور الاجتماعـي في فكـر سـعادة».

– حلقـة متخصصـة حـول «البلديـات والانمـاء»، نظمتهـا الهيئـات الأهليـة للعمـل المـدني ـ لبنـان ومنظمـة فردريـش إيـبرت ـ لبنـان في منتجـع الميرامـار ـ القلمـون بتاريـخ 28 و 29 آذار 1998، وكانـت المشـاركة ورقـة بعنـوان «أهميـة التخطيـط والبرمجـة في العمـل الإنمـائي المحـلي».

– نـدوة فكريـة حـول «الإرهـاب والعنـف في الفكـر والمجتمـع الصهيـوني» نظمهـا اتحـاد الكتّـاب اللبنانيـين بالتعـاون مـع الجامعـة اللـبنانية في مركــز رشيــد كرامــي البلــدي بتاريـخ 8 أيـار 1998، وكانـت المشـاركة ورقـة بعنـوان «الفكـر والممارسـة في إيديولوجيـا الاسـتنهاض اليهـودي».

– مؤتمـر تربـوي نظمـه المعهـد الأنطـوني في بعبـدا بعنـوان «شـبابنا عـلى مشـارف الألـف الثالـث» وكانـت المشـاركة ورقـة بعنـوان «الشـباب والحداثـة» في جلسـة بعنـوان «الشـباب بـين الإرث والحداثـة اشـترك فيهـا د. مطانيـوس الحلبـي و د. بـشرى قبيـسي و د. منيـف حمـدان و د. كلوديـا أبي نـادر.

– ورشـة عمـل حـول «المشـاركة والإنمـاء المتـوازن في لبنـان» نظمتهـا الرابطـة الثقافيـة في طرابلـس بالتعـاون مـع برنامـج الأمـم المتحـدة U.N.D.P. وكانـت المشـاركة ورقـة بعنـوان «وضـع النقابـات في الشـمال» بتاريـخ 13 حزيـران 1998 في الرابطـة الثقافيـة، طرابلـس.

– نـدوة فكريـة حـول العـرب بـين الحتميـة والمبـادرة التاريخيـة، نظمتهـا صحيفـة السـفير بالتعـاون مـع الجامعـة اللبنانيـة، والجمعيـة العربيـة لعلـم الاجتـماع، والجمعيـة اللبنانيـة لعلـم الاجتـماع، في الادارة المركزيـة بتاريـخ 20 و21 آب 1998، وكانـت الورقـة بعنوان«العـرب بـين وعـي الـذات ومعرفـة الآخـر»، نشرتهـا السـفير بتاريـخ 26 /9 / 1998.

– حلقـة دراسـية نظّمهـا معهـد العلـوم الاجتماعيـة، الفـرع

الثالـث، بعنـوان « سوسـيولوجيا الانتخابـات البلديـة في شـمال لبنـان»، شـارك بورقـة «الحـس المـدني بـين الوعـي والممارسـة»، بتاريـخ 12 أيـار 1999.

– نـدوة «أنطـون سـعادة وتحديـات الألفيـة الثالثـة»، 10، 11 و12 أيلـول 1999، في ضهـور الشـوير وكانـت المشـاركة ورقـة بعنـوان» جدليـة النظريـة والممارسـة في فكـر انطـون سـعادة».

– نـدوة متخصصـة حـول «النقابـات والتقدمـات الاجتماعيـة» نظمتهـا الهيئـات الأهليـة للعمـل المـدني في 9 حزيـران 2000، في منتجـع الميرامـار في القلمـون وكانـت المشـاركة ورقـة بعنـوان «الواقـع الاقتصـادي وتأثـيره عـلى المجتمـع المـدني».

– ورشـة عمـل « المسـار الديموقراطـي في لبنـان»، تنظيـم مؤسسـة جوزيـف ولـور مغيـزل بالتعـاون مـع الاتحـاد الأوروبي والرابطـة الثقافيـة في طرابلـس بتاريـخ 12 أيـار 2001 ، وكانـت المشـاركة ورقـة بعنـوان «الحـس المـدني في طرابلـس، دراسـة ميدانيـة».

– نـدوة «الجغرافيـة الانتخابيـة في الشـمال، شروط التمثيـل الديموقراطـي»، مـن تنظيـم المؤسسـة اللبنانيـة للسـلم الأهـلي الدائـم ومرصـد الديموقراطيـة في لبنـان، والجمعيـة اللبنانيـة للعلـوم السياسـية بالتعـاون مـع الرابطـة الثقافيـة، بتاريـخ 13 نيسـان 2002 ، وكانـت المشـاركة ورقـة بعنـوان «الدائـرة الانتخابيـة والزعامـة السياسـية».

– مؤتمـر بـين المدينـة والريـف، المجـال والهويـة والتمديـن في شـمال لبنـان، مـن تنظيـم جامعـة سـيدة اللويـزة، برسـا الكـورة بتاريـخ 17-18 أيـار2002، وكانـت المشـاركة ورقـة بعنوان»طرابلـس بـين حـارات البلـد وشـوارع المدينـة».

– ورشـة العمـل العربيـة حـول تقريـر التنميـة العربيـة الانسـانية، وجهـة نظر علـم الاجتـماع، قـراءة ومقترحـات، مـن تنظيـم الجمعيـة العربيـة لعلـم الاجتـماع بالتعـاون مـع مؤسسـة فردريـش إيـبرت، فنـدق البريسـتول، بـيروت، 17 و18 كانـون

الثـاني 2003، وكانـت المشـاركة ورقـة بعنـوان «التنميـة الانسـانية والديموقراطيــة.

– نـدوة البعـد الاجتماعـي في العلاقـات اللبنانيـة السـورية، مـن تنظيـم المركـز الوطنـي للاحصـاء والتوثيـق والبحـوث التنمويـة والرابطـة الثقافيـة والأمانـة العامـة اللبنانيـة السـورية، في الرابطـة الثقافيـة بتاريـخ 21 و22 شـباط 2003، وكانـت الورقـة بعنـوان «من المجتمـع الأهـلي إلى المجتمـع المـدني، المؤسسـات المدنيـة، الواقـع والـدور».

– مؤتمـر البحـث العلمـي والتنميـة في لبنـان، مـن تنظيـم جامعـة الجنـان بالتعـاون مـع وزارة التربيـة والتعليـم العـالي، طرابلـس، لبنـان، 19 و20 كانـون الأول 2003، وكانـت المشـاركة ورقـة بعنـوان: «المجتمـع المحـلي والبحـث العلمـي».

– ورشـة عمـل حـول «الثقافـة والمثقـف في لبنـان»، جامعـة سـيدة اللويـزة بالتعـاون مـع نـدوة العمـل الوطنـي وآخريـن بتاريخ 31 كانـون الثـاني 2003، وقـدم ورقـة بعنـوان «المثقـف محكـوم بالأمـل».

– نـدوة فكـر سـعادة والمتغـيرات الراهنـة، جريـدة الوحـدة في عـمان الأردن، فنـدق أغاديـر، بتاريـخ 17 و18 نيسـان 2004، وقـدم ورقـة بعنـوان «المتحـد الاجتماعـي والقوميـة الاجتماعيـة».

– نـدوة «الانتخابـات البلديـة بـين التـوازن والقانـون»، المركـز الثقـافي القومـي والمركـز القومـي للاحصـاء والتوثيـق، بتاريـخ 15 نيسـان 2004، وقـدم ورقـة بعنـوان «الانتخابـات البلديـة بـين القانـون والممارسـة».

– نـدوة «العمـل البلـدي آمـال وآفـاق»، جمعيـة الرعايـة المسـتدامة، المنيـة، بتاريـخ 24 نيسـان، 2004 وقـدم ورقـة بعنـوان «الانتخابـات البلديـة والمجتمـع المـدني».

– الموتمـر الـدولي حـول» الدولـة القوميـة والتحديـات المعـاصرة»، مؤسسـة سـعادة للثقافـة، بتاريـخ 5 - 9 تمـوز 2004، وقـدم ورقـة بعنـوان» مفهـوم المتحـد في القوميـة الاجتماعيـة».

– الندوة اللبنانية الألمانية الأولى لسياسات الطاقة التقنية، جامعة الجنان ومنظمة VAEF الألمانية، بتاريخ 29-30 تموز، 2004، وقدم ورقة بعنوان «استيعاب التكنولوجيا بين العولمة والحفاظ على الهوية».

– الملتقى الرابع عشر لأجيال علماء الاجتماع العرب، الجمعية العربية لعلم الاجتماع وجامعة البلمند، بتاريخ 20-30 تموز 2004، وشارك في مشاريع الدبلوم والدكتوراه للطلاب العرب.

– ندوة مرصد التشريع في لبنان، المؤسسة اللبنانية للسلم الأهلي الدائم والرابطة الثقافية، طرابلس، بتاريخ 26 حزيران 2004، وقدم ورقة بعنوان «الصلاحيات البلدية بين القانون والممارسة».

– ندوة «الاصلاح والتغيير إرادة ذاتية أم فرض خارجي»؟ وزارة الاعلام في سورية والمنتدى الثقافي اللبناني السوري، المركز الثقافي العربي في دمشق، بتاريخ 5-6 أيلول 2004، وقدم ورقة بعنوان «الاصلاح ومسألة الهوية».

– ندوة الانتخابات النيابية في الشمال، المركز الوطني للاحصاء والمركز الثقافي القومي، بتاريخ 2 أيلول 2005، وقدم ورقة بعنوان «قراءة سوسيولوجية في الانتخابات البلدية في طرابلس».

– ندوة فكرية حول كتاب «هشام شرابي صحفياً»، الرابطة الثقافية في طرابلس، بتاريخ 14 نيسان 2006، وقدم ورقة بعنوان «هشام شرابي، الصديق، الصحافي والمفكر».

– ندوة «المجتمع الطرابلسي بين التقليد والحداثة»، لجنة التربية والثقافة في بلدية طرابلس، المركز الثقافي البلدي، بتاريخ 15 نيسان 2006، وقدم ورقة بعنوان «طرابلس بين التقليد والحداثة».

– ندوة ماذا يقرأ طلابنا، نادي روتاري طرابلس، معرض رشيد كرامي الدولي، بتاريخ 3 أيار 2006، وقدم عرضاً مكثفاً

لخلاصة الدراسة التي نفذها حول المطالعة في الصفوف الثانوية في مدارس طرابلس.

– مؤتمر العلمانيين في لبنان، الجمعيات العلمانية في لبنان والحركة الاجتماعية، الأونيسكو، بتاريخ 5 و 6 أيار 2006، وقدم ورقة بعنوان «من المجتمع الأهلي إلى المجتمع المدني».

– المؤتمر العربي الأول لصحة الأسرة والسكان، جامعة الدول العربية، القاهرة، بتاريخ 13 - 16 أيار 2006، وقدم ورقة بعنوان « المراهقة بين حراك الهوية وحرارة الانتماء».

– المؤتمر الأول لصحة المراهقين والشباب الذي نظمته وزارة الصحة في مملكة البحرين بتاريخ 20-21 حزيران / يونيو 2006، وقدم ورقة بعنوان «دور المدرسة والجامعة في التنشئة الاجتماعية للمراهق».

– ندوة نقدية حول كتاب د. منير خوري «حدود المجتمع» بتاريخ 3 تموز 2006 في نادي خريجي الجامعة الأميركية في بيروت، وقدم ورقة بعنوان «قراءة في حدود المجتمع».

– أعد ونظّم ندوة بحثية بعنوان: «العلاقات العربية الاوروبية، من الحذر والالتباس إلى الانفتاح والتكامل» باسم معهد العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية بالتعاون مع مؤسسة فردريش إيبرت، في 26 تشرين الأول 2002، في مركز رشيد كرامي الثقافي، طرابلس، وقد صدرت أعمال الندوة في كتاب يحمل العنوان نفسه.

– أعد ونظّم ثلاث ورش عمل في بيروت وطرابلس وصيدا، بعنوان: «الواقع والممكن في الممارسة الديموقراطية اللبنانية»، باسم معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية بالتعاون مع مؤسسة فردريش إيبرت وبدعم من الاتحاد الاوروبي، في 31 تشرين الأول و13 و20 كانون الأول، 2002، ونشرت أعمال الورش في كتاب يحمل العنوان نفسه، وله فيه ورقة بحثية بعنوان: «المجتمع اللبناني والديموقراطية».

– أعد ونظّم مؤتمراً عربياً في فندق البريستول في بيروت

بعنـوان: «تجـارب ديموقراطيـة في بلـدان عربيـة»، باسـم الجامعـة اللبنانيـة، معهـد العلـوم الاجتماعيـة، بالتعـاون مـع مؤسسـة فردريـش إيـبرت وبدعـم مـن الاتحـاد الأوروبي في 10 و11 كانـون الثـاني 2003 ، ونـشرت أعـمال المؤتمـر في كتـاب يحمـل العنـوان نفسـه.

– أعـد ونظـم مؤتمـراً بعنـوان: «الخطـاب السـياسي في لبنـان، المفهـوم والممارسـة»، باسـم المجلـس الثقـافي للبنـان الشـمالي، في فنـدق كواليتـي آن، طرابلـس، بتاريـخ 6 أيـار 2006.

– شـارك في مؤتمـر العلمانيـة في المـشرق العـربي، تنظيـم المركـز الثقـافي الدانمـركي ودار أطلـس ودار بـترا، في دمشـق 17 و18 أيـار 2007، وقـدم ورقـة بعنـوان «العلمانيـة بـين سـلطة الدولـة وسـلطة الديـن». وصـدرت أعـمال المؤتمـر في كتـاب يحمـل العنـوان نفسـه.

– شـارك في تنظيـم مؤتمـر المدينـة العربيـة بـين التغـيرات الاجتماعيـة وتحـولات المجـال، باسـم معهـد العلـوم الاجتماعيـة في الجامعـة اللبنانيـة في 18 – 20 كانـون الأول 2008، وقـدم ورقـة بعنـوان «تبـادل الخدمـات بـين الثقافـة والسياسـة». وشـارك في إعـداد وتحريـر أعـمال المؤتمـر وصـدرت في كتـاب يحمـل العنـوان نفسـه.

– قـدم محـاضرة في نـادي خريجـي الجامعـة الأميركيـة في بـيروت في 12 آذار 2009، بدعـوة مـن مؤسسـة سـعادة للثقافـة بعنـوان: «معوقـات نشـوء الدولـة الحديثـة في لبنـان».

– شـارك في مؤتمـر طرابلـس عيـش واحـد، تنظيـم مؤسسـة العـزم والسـعادة والمركـز الثقافي للحـوار والدراسـات، في 17 و18 آذار 2009، وقـدم ورقـة بعنـوان، «لطـف اللـه خـلاط، الأهـل والمدينـة». وصـدرت أعـمال المؤتمـر في كتـاب يحمـل العنـوان نفسـه.

– شـارك في مؤتمـر المجتمـع المـوازي بـين الهامشـية والوظيفيـة تنظيـم كليـة الآداب والانسـانيات في جامعـة منوبـة في الجمهوريـة التونسـية في 21-23 تشريـن الأول 2009 وقـدم ورقـة بعنـوان، «دولـة المطلوبـين في غيـاب الـدول». وصـدرت أعـمال المؤتمـر في

كتـاب يحمـل العنـوان نفسـه.

– شـارك في مؤتمـر الثقافـة العربيـة وأزمـة القـراءة، تنظيـم دار أطلـس ودار بـترا، في مكتبـة الأسـد في دمشـق، في 8 و 9 كانـون الأول 2009، وقـدم ورقـة بعنـوان «الثقافـة العربيـة وأزمـة القـراءة في عـصر العولمـة».

– شـارك في مؤتمـر صناعـة الكتـاب في محافظـة الشـمال بمناسـبة إعـلان بـيروت عاصمـة عالميـة للكتـاب، في القـصر البلـدي في الميـنـاء في 16 كانـون الثـاني 2010، وقـدم ورقـة بعنـوان، «الكتـاب أمـام تحديـات عـصر التكنولوجيـا». وصـدرت أعـمال المؤتمـر في كتـاب يحمـل العنـوان نفسـه.

– شـارك في احتفـال تكريـم شـعراء شـماليين راحلـين بمناسـبة إعـلان بـيروت عاصمـة عالميـة للكتـاب، تنظيـم وزارة الثقافـة والمجلـس الثقـافي للبنـان الشـمالي، في 19 – 21 نيسـان 2010، وقـدم ورقـة بعنـوان، «الأب طانيـوس منعـم، قـراءة في شـعره». وصـدرت أعـمال التكريـم في كتـاب بعنـوان شـعراء شـماليون رحلـوا.

– شـارك في تنظيـم مؤتمـر الشـباب الجامعـي والثقافـة باسـم معهـد العلـوم الاجتماعيـة في الجامعـة اللبنانيـة، في 22 – 24 نيسـان 2010، وقـدم ورقـة بعنـوان، «المجتمـع والقـراءة في عـصر العولمـة». وشـارك في إعـداد وتحريـر أعـمال المؤتمـر وصـدرت في كتـاب يحمـل العنـوان نفسـه.

– شـارك في نـدوة الوحـدة العربيـة في فكـر الداعيـة فتحـي يكـن وعـلى ضـوء المتغـيرات المعـاصرة، تنظيـم جامعـة الجنـان، 16 نيسـان 2011، وقـدم ورقـة بعنـوان: «العـرب بـين سياسـة المصلحـة ومصلحـة السياسـة».

– شـارك في تنظيـم مؤتمـر المرصـد الثقـافي وسياسـات المتاحـف بالتعـاون مـع جامعـة البلمنـد ووزارة الثقافـة ومنظمـة الأونيسـكو في لبنـان الـذي انعقـد في معهـد العلـوم الاجتماعيـة وجامعـة البلمنـد في 11 و12 و13 كانـون الثـاني 2012، وقـدم ورقـة بعنـوان «لبـاس المـرأة بـين التقليـد والتعبـير عـن الهويـة». وشـارك في إعـداد

وتحريـر أعـمال المؤتمـر وصـدرت في كتـاب يحمـل العنـوان نفسـه.

– شـارك في تنظيـم مؤتمـر العمـر الثالـث، التحـولات والحقـوق والسياسـات، بالتعـاون مـع الجمعيـة اللبنانيـة لعلـم الاجتـماع، الـذي انعقـد في معهـد العلـوم الاجتماعيـة في 11 و12 و13 شـباط 2014، وقـدم ورقـة بعنـوان «عـالم المسـنين، مـن الخـارج إلى الداخـل». وشـارك في إعـداد وتحريـر أعـمال المؤتمـر وصـدرت في كتـاب يحمـل العنـوان نفسـه.

– شـارك في نـدوة إدارة المصـادر التراثيـة تأصيـل الـتراث العربي، رؤيـة بـين الحداثـة والهويـة وتحديـات المسـتقبل، 9-11 حزيـران، 2014، تنظيـم جامعـة الـدول العربيـة ووزارتي الاعـلام والثقافـة في لبنـان، قـصر الأونيسـكو، بـيروت، وقـدم ورقـة بعنـوان «الثقافـة العربيـة بـين الأصالـة والتبعيـة».

– شـارك في مؤتمـر نحـو اسـتراتيجية ثقافيـة للوطـن، 30 تشرين الثـاني 2015، تنظيـم إتحـاد الكتّـاب اللبنانيـين، قـصر اليونيسـكو، بـيروت، وقـدم ورقـة بعنوان»الثقافـة العربيـة والتحديـات المعـاصرة».

ــــ كتـب مقـالات ودراسـات في صحـف يوميـة تحـت بـاب «قضايا النهـار» في «النهـار» و»دراسـات» في «الديـار»:

– - الانتخابـات النيابيـة وانتقـال الزعامـة، النهـار، 9 أيلـول 1992.

– - مجلـس نـواب أم مجلـس أعيـان؟ النهـار، 10 أيلـول 1992.

– مـع فردريـك معتـوق وسوسـيولوجيا الحـرب، الديـار، 1 حزيـران 1994.

– العـادات والتقاليـد أسـاس وحـدة اللبنانيـين، الديـار، 17 حزيـران 1994.

– العلمانيـة، الـصراع الجـدلي بـين العقـل والأيديولوجيـا،

الديــار، 22 حزيــران 1994.

– العلمانيـة، مـن تسـويغ الفلسـفة دينيـاً إلى تسـويغ العلمانية فلسـفياً، الديار، 23 حزيـران 1994.

– محاولـة في الكشـف عـن العلاقـة بـين الثقـافي والدينـي، الديــار، 30 حزيــران 1994.

– محاولـة في الكشـف عـن العلاقـة بـين الثقـافي والسـياسي، الديـار، 6 تمـوز 1994.

– التجليـات العمليـة للذهنيـة العربيـة، الديـار، 19 تمـوز 1994.

– مـن المجتمـع الأهـلي إلى المجتمـع المـدني، الديـار، 6 آب 1994.

– المجتمع الأهلي والدولة المؤجّلة، الديار، 11 آب 1994.

– تأسـيس العنـف الرسـمي، في العلاقـة بـين الدولـة والمجتمـع، الديـار، 21 آب 1994.

– طرابلس ، مدينة تستقطب التغيير، الديار، 28 آب 1994.

– مؤسسـات المجتمـع الأهـلي، الموقـع والطمـوح، الديـار، 8 أيلــول 1994.

– المجتمـع السـياسي وإشـكالية العلاقـة بـين التقليـد والحداثـة، الديـار، 15 أيلـول 1994.

– لبنـان بـين النظريـة الجيوسياسـية وأوهـام التقسـيم ، الديـار، 22 أيلـول 1994.

– النقــود العربيــة الإســلامية، قــراءة في كتــاب، الديــار، 30 أيلــول 1994.

– تكــوّن لبنــان الســياسي، الســلطة في مجتمــع الطوائــف، الديــار، 1 تشريــن الأول 1994.

– تكـوّن لبنـان السـياسي، السـلطة، القرابـة وسـطوة القبيلـة، الديـار، 9 تشريـن الأول 1994.

- المسألة الطائفية في لبنان، الجذور التاريخية، الديار، 15 تشرين الأول 1994.

- المسألة الطائفية في لبنان، الطائفية جسد السلطة وروحها، الديار، 7 تشرين الأول 1994.

- أصول النظام السياسي في لبنان، طائفة في مواجهة طوائف، الديار، 17 تشرين الثاني 1994.

- أصول النظام السياسي في لبنان، الطائفية في لباس القومية، الديار، 19 تشرين الثاني 1994.

- أصول النظام السياسي في لبنان، الأتراك والعرب، قومية تستنهض قومية، الديار، 1 شباط 1995.

- أصول النظام السياسي في لبنان، الأيديولوجيا الطائفية، الديار، 18 شباط 1995.

- المدينة العربية، التأريخ الملتصق بالحياة، الديار الثقافي، 21 كانون الثاني 1996.

- الحرفة بين الإبداع الفردي والعمل النقابي، الديار الثقافي، 3 آذار 1996.

- أجريت معه عشرات المقابلات الصحافية التي تناولت مواضيع اجتماعية متعددة.

- كتب عشرات المقالات في صحيفتي النهار والسفير في مواضيع سياسية واجتماعية متعددة.

12

في الجامعة

لا أستطيع أن أصف ما أحسست به عندما قدِمت إلى الجامعة مع كل المستندات المطلوبة للتسجيل في معهد العلوم الاجتماعية؛ المعهد الذي أحببت لحظة تعرّفي عليه.. بناء فخم من أربع طبقات في الرملة البيضاء، أحد الأحياء الراقية في بيروت.. قبالته فندق البوريفاج، وزرقة البحر الممتدة إلى أفق يضيع بين ماء وسماء.. صفوف فسيحة ومتوسطة المساحة لبيوت فخمة تحولت إلى صفوف جامعية.. مع كل ما يلزم.. وأشد ما أفرحني انتقالي من مواقع سابقة على قدّ الحال، على الأقل بالنسبة إلي، من مدرسة الضيعة، إلى مدرسة الزهرية، وثانوية الملعب، إلى رحاب الحياة الجامعية بكل ما فيها، إن كان بالنسبة لجوّ الدرس أو المكان الذي يشغله، أو المحيط به، أو كان بالنسبة للطلاب القادمين من شتى المناطق اللبنانية، أو الأساتذة الذين يحملون لقب دكتور؛ هذه الكلمة السحرية التي جعلتنا ننظر إلى أساتذتنا على أنهم فوق مستوى البشر، وإن بقي هذا الشعور إلى حين..

ما كان يحزّ في نفسي فعلاً، وأنا صرت في هذا الموقع من تحصيلي العلمي، أنني لم أمارس دوري الكامل باعتباري طالباً جامعياً.. ولا عشت فعلاً حياتي الجامعية كطالب، لا مع المحاضرات التي أتلقاها، ولا مع أساتذتي، ولا حتى مع رفاقي الطلاب؛ إلا بما تيسّر لي من فرص تدوين المحاضرات، واللقاء بالأساتذة والطلاب مرتين في الأسبوع، مقابل حضور كامل للكثيرين من أقراني، وكأن الصف الجامعي، بالنسبة إليهم، تكملة للصف المدرسي. ما كنت ألاحظه أن الطلاب المداومين، واختصاصنا يلزمه دوام كامل لتكون مجيداً في اختصاصك، كانوا على علاقة طيبة ووثيقة مع الأساتذة، ينادي

هـؤلاء عـلى أولئـك بالأسـم، مـا يثـير فينـا الغـيرة والاحسـاس بالغربـة، نحـن الذيـن لم يحظـوا إلا بدوامهـم الجـزئي، وبشـقّ النفـس.

تـرك هـذا الواقـع فينـا شـعوراً بالنقـص والتقصـير. وأجبرنـا عـلى قبولـه رغـماً عنـا. ولا حـل للتعويـض إلا بالاتـكال عـلى رفاقنـا المداومـين. لا أزال حتـى اليـوم أذكـر بالخـير الكثيريـن منهـم.. كـمال وحسـن ورفعـت وإدوار وفاطمـة ومهـى وكثيريـن غيرهـم.

عندمـا أنهيـت السـنة الأولى بنجـاح، انتميـت إلى كليـة الآداب لدراسـة التاريـخ، الاختصـاص الـذي أحببتـه منـذ زمن بعيـد. وكان أن تسـجّلت في السـنة الثانيـة بعـد إعفـائي مـن سـنة الثقافـة العامـة التـي كانـت تعـادل السـنة الأولى في العلـوم الاجتماعيـة، ونلـت عـلى الأثـر الإجـازة التعليميـة في التاريـخ في العـام 1975.

أنهيـت السـنتين التاليتـين عـلى هـذا المنـوال، ونلـت الإجـازة التعليمية في العلـوم الاجتماعيـة، والسـنة الثالثـة في التاريـخ مـن كليـة الآداب.. مـع أن حضـوري في الكليـة كان شـبه معـدوم.. أتقـدم إلى امتحانـات الـدورة الثانيـة وأنجـح مـع توفّـر مقـررات المـواد المطبوعـة، وهـو عـلى غـير مـا كان متـداولاً في المعهـد.

مـن حسـن طالعـي، توفـر لي مجـال الانتقـال إلى وظيفـة أعـلى رتبـة وراتبـاً بعـد نيـلي الإجـازة في أقـل مـن سـنة، فانتقلـت إلى وزارة الاقتصـاد، مصلحـة حمايـة المسـتهلك.. وقـد بيّنـت ذلـك في مـكان آخـر.. وبـدأت أحـوالي بالتحسـن.. مـن مـدرس متعاقـد بــ 225 لـيرة بـدل شـهري مقطـوع، إلى مراقـب أسـعار وقمـع غـش فئـة ثالثـة وراتـب 550 لـيرة، وبـدل نقـل وانتقـال، مـع تسـجيل في شـهادة الجـدارة في علـم الاجتـماع.. كان ذلـك كلـه مـع بدايـة الحـرب الأهليـة في 13 نيسـان 1975.

إن أهـم حدثـين مـررت بهـما في حيـاتي الجامعيـة ومـا زالا عالقـين في

ذاكرتي يلخّصان ما كنت أعانيه في تلك الفترة المفصليّة في حياتي.

الحدث الأول، وهو كذلك بالنسبة لي، كان يوم جمعة.. وقد سمحت ظروف التعليم أن أداوم ثلاثة أيام في المعهد.. محاضرة العميد نصر في علم النفس الاجتماعي باللغة الفرنسية للشعبتين في صف واحد، بعد رفضه تحويلها إلى العربية لتلقى في الشعبة العربية ب.. وكانت من الخامسة إلى السابعة مساء.. في السادسة علي أن أغادر لأستقل الباص الأخير إلى طرابلس.. ولا مال لدي سوى ليرتين وربع.. المبلغ الذي يوصلني إلى طرابلس بالباص.. وبأمان.. دون حساب أي احتمال آخر..

خرجت من الصف وانتظرت حتى وصل باص النقل المشترك.. راح الربع ليرة.. وصلت قبل السابعة إلى ساحة البرج.. لا باص في المدى المنظور.. اقتربت، سألت.. راحت الباصات والركاب كثر..

- متى يأتي الآخر؟؟ سألت بقلق..

- لا باصات اليوم.. إلى الغد.

أحسست وكأن شيئاً غادرني بغتة.. ما العمل؟؟ وأنا أدرك تماماً أن سيارات الأجرة ترفع تسعيرتها يومي الجمعة والسبت من ليرتين إلى ثلاث..! سألت سائقاً.. هكذا كان جوابه:

- إجرة الراكب 3 ليرات..

وأنا معي ليرتان لا ثلاث.. والعتمة غطت السماء، وإن كانت ساحة البرج مُنارة.. ماذا عليّ أن أفعل؟؟ ولا أحد أعرفه في بيروت، ولم يظهر أي شخص من معارفي في تلك الساحة المكتظة..!

تفتّق ذهني عن حل بسيط، وإن كان فيه شيء من المغامرة.. انطلقت من مبدأ أن عليّ البقاء في بيروت إلى الغد، ولا حلّ غير

ذلـك.. ولأن الحاجـة أم الاخـتراع، وبعـد حسـاب مـا أملكـه مـن مـال، قـررت أن أتعـشى لفافـة فلافـل مـن مطعـم فريحـة القريـب، بربـع لـيرة.. وأدخـل إلى سـينما شـهرزاد المقابلـة ذات العـرض المتواصـل بـ60 قرشـاً.. يبقـى لـدي مـن ثـروتي الصغـيرة لـيرة واحـدة وخمسـة عـشر قرشـاً.. لا بـأس.. أسـتطيع أن أعـود إلى طرابلـس في الغـد بلـيرة واحـدة في نقليـات سـعد بـدل الليرة والربـع في نقليـات شـمالي – أحـدب..

أكلـت الفلافـل وتمشّـيت في السـاحة، وتفرّجـت مليّـاً عـلى سـاعة الـورود الملاصقـة لتمثـال الشـهداء.. ويـدي في جيبـي تلتصـق باللـيرة والقـروش المتبقيـة. بـدأ المطـر بالهطـول.. مشـيت مسرعـاً إلى شـهرزاد وقطعـت تذكـرة حـوالي الثامنـة والنصـف.. ودخلـت إلى الصالـة المعتمـة بهـدي الضـوء الـذي ينبعـث مـن الشاشـة.. السـينما تعمـل مـن زمـان.. لا بـأس سـيعاد الفيلـم مـع إثنـين غـيره حتـى الخامسـة صباحـاً.. هـذا مـا قالـه قاطـع التذاكـر عندمـا سـألته عـن مـدة اسـتمرار العـرض.. عـال.. السادسـة يفتـح كـراج النقـل.. سـاعة هيّنـة.. ومـا زال معـي بعـض القـروش غـير اللـيرة الوحيـدة.

بقيـت سـاهراً إلى الواحـدة.. ومـن ثـم غلبنـي النـوم.. اسـتفقت عـلى ضجيـج خبـطٍ عـلى إحـدى الكـراسي.. وصـوت يقـول:

– يللـه شـباب.. خلـص العـرض.. قومـوا..! وغمـر القاعـة نـورٌ مبهـر..

إلتفـتّ وإذا بالعـشرات غـيري، نامـوا كـما نمـت.. واسـتفاقوا كـما اسـتفقت.. فأحسسـت براحـة لا أعـرف مـن أيـن جاءتنـي.. ثمـة الكثـيرون مثـلي.. وأنـا لسـت الوحيـد الـذي لا يملـك المـال لحظـة الحاجـة إليـه.. بـل ثمـة الكثـيرون الذيـن لا يملكـون إلا القليـل والشـحيح مـن المـال في كل اللحظـات.

خرجـت مـن القاعـة، والعتمـة لا زالـت مسـيطرة، والطقـس شـتاء.

مشـيت ومشـيت والمحـلات مـا زالـت مغلقـة، ولا مـكان أجلـس فيـه.. وصلـت إلى اللعازاريـة وتمثال الصلـح.. قليلـون كانـوا يمـرون بجانبـي أو عـلى الرصيـف المقابـل.. عـدت أدراجـي وإذا بنقليـات سـعد تفتـح قبـل الشـمالي.. أحسسـت وكأننـي وصلـت إلى طرابلـس.. دلفـت إلى الداخـل بسرعـة وإذا بي أمـام قاطـع التذاكـر.. ونفحتـه الليـرة.. بفخـر، وكأني أملـك المئـات منهـا.. قطـع التذكـرة ودفعهـا لي مـع عبـارة اسـتفتاحك مبـارك.. لا بوسـطة بعـد.. جلسـت وأنـا أتطلـع إلى الخـارج لأرى بـوادر ضـوء تلـوح فيـه.. وإذا بهديـر البوسـطة يقـترب.. وتتوقف بمحـاذاة البـاب.. فـإذا هـي أجمـل مـن أجمـل فتـاة، وأبهـى مـن أسـطع نـور.. لم أدر مـن أيـن جاءتنـي تلـك السرعـة التـي وضعتنـي عـلى أول مقعـد فيهـا..

لم أفكـر في أي شيء خـارج هاجـس الوصـول إلى طرابلـس.. وإذا بصـوت ينـادي، والبوسـطة عـلى أهبـة الإقـلاع، وفيهـا مـن لا يزيـد عـن سـبعة أشخاص..

– طيبين..

إلتفـتّ لأرى بائـع الكعـك البـيروتي ينـادي عـلى طيبـة كعكاتـه الطازجـة.. سـألته عـن الثمـن؛

– تلات فرنكات يا عيوني..

يا الله، ما أكثر كرمك..

– اعطيني واحدة..

تلقفتهـا منـه وبـدأت بقضمهـا مـع شـعور بلـذة قلـما أحسسـت بهـا مـن قبـل.

ووصلت بأمان إلى طرابلس..

عندما رويت حكايتي هذه على أبنائي.. كان جواب كبيرهم.. هكذا كانت أيامكم.. أما أيامنا فهي مختلفة.. وكأن بين أيامي وأيامهم مئات السنوات الضوئية.. وأبلغ جواب سمعته منه، مرة، وأنا ألومه على مبالغته في التبذير مقابل ما كنا نعاني منه:

- أنت أبوك فقير.. وأنا أبي غني..

وكأن بحبوحة حياة أبنائنا جاءت لتنتقم من تعثّر حياتنا وحياة آبائنا..

أما الحدث الثاني فقد أرهقني، مع وجود ما يكفي من المال في جيبي..

اختارني رفاقي أن أكون مشاركاً في عملية انتخاب مجلس فرع المعهد، على أن أكون ممثلاً لتحالف أنشأناه للفوز بالمجلس، أو بقسم منه، وذلك في غرفة الاقتراع كمراقب لصحة العملية وفرز الأصوات.. في عملية الفرز حصل خلاف حول صحة بعض الأوراق، ما أخّر عملية إصدار النتائج إلى ما بعد الحادية عشرة ليلاً.. وأنا نسيت في غمرة الحدث، أنني سأعود إلى طرابلس ولا وسيلة نقل لدي.. وكان أن صدرت النتائج ووقّعنا على صحّتها وشرعيتها.. دون أن يكون لنا أي مرشح في لائحة الفائزين.

بعد أن علقت النتائج على مدخل المعهد، وكنا لا نزال ننظم المحضر الرسمي، خرجنا من الغرفة. وإذا الهرج والمرج والرقص والصراخ للفائزين، ولا أحد من الخاسرين موجوداً إلا أنا، والمطر ينهمر بغزارة..

هنا تجلّى لي الموقف في أبهى صورة.. لا أحد سيهتمّ بي، ولا باص يمر في الجوار منذ ساعات، ومن الصعوبة إيجاد سيارة أجرة في هذا الوقت، وفي هذا الطقس الممطر.. ومن المستحيل البقاء

هكـذا دون حركـة..

مـا كان عـلي إلا السـير، عـلى أمـل الحظـوة بسـيارة.. ومشـيت.. كنـت ألبـس معطفـاً سـميكاً، ولا كتـب معـي لأن الدنيـا انتخابـات.. وضعـت يـدي في جيبـي وتوكلـت عـلى اللـه.. الرملـة البيضـاء.. اليونيسـكو، مدخـل فـردان.. الروشـة.. الحـمام العسـكري.. المنـارة.. السـفارة الأميركيـة.. لا سـيارة تتوقـف، عـلى قلّـة مرورهـا، ولا أنـا توقفـت.. ثـلاث سـاعات مـن المسـير تحـت زخّـات مطـرٍ لم يتباطـأ لحظـة واحـدة. وإذا بسـيارة تقـف بجانبـي تحمـل راكبـة واحـدة في الخلـف..

– على البرج؟؟

– طلاع..

نقدته الليرة ولم أنتظر أن يرد لي شيئاً..

– من وين الأخ وليش لهلأ؟؟

اختـصرت إخبـاره، وعـرف أننـي متوجّـه إلى طرابلـس.. إلتفـت إلى الـوراء وقـال:

– حظـك منيـح يـا سـت.. هيـدا رفيـق عطرابلـس.. عرفـت بعدهـا أنـه قـادم مـن المطـار ومعـه مغتربـة مـن أفريقيـا، وأهلهـا في مينـاء طرابلـس..

– أهلاً وسهلاً..

عرفـت مـن كلامهـا أنهـا تتعـثر في العربية، ولغتها الأساسـية الفرنسـية.. طمأنتهـا ووعدتهـا بـأن أوصلهـا إلى بيـت جدهـا في المينـاء.. طالمـا هـي تعـرف موقعه..

وصلنـا إلى سـاحة الـبرج، والمطـر مـا زال يهطـل بغـزارة.. سـيارة

عموميــة متوقفــة جانبــاً.. الســائق يســأل.. يتجــه نحونــا ويقــول..

- السيارة جاهزة تفضلوا..

كان داخـل السـيارة ثلاثـة.. إثنتـان بجانب السـائق.. ورجـل في الخلف، ظهـر وكأنـه نائـم.. وتبـين لي، مـن بعـد، أنـه مترنّح مـن السـكْر.. لحظة انطـلاق السـيارة.. ولحظـة فتـح فمـه مع السـؤال:

- شـو مشـينا؟؟ كانـت جلسـتي بينـه وبـين الشـابة المغتربـة.. وبـدأ حديثـه بالتوجـه إلى السـائق.. عنـد أول محـل بيبيـع نبيـد يـا ريـس..

- تكرم عينك.. أجاب السائق..

وتوقــف في محلــة الــدورة وخــرج ليأتيــه بالخمــر.. تلقّاهــا بلهفــة ونقـد السـائقَ مـالاً لم أعـرف مقـداره.. صمـت السـائق عـن البقيـة.. ودفعهـا صـوبي قائـلاً بصـوت ممغّـط:

- شراب يا أستاذ..

- شكراً ممنون..

- والنبي بدك تشرب يا ريس.. شربت..

دفع بها إلى جارتي.. رفضت.. أصرّ.. قلت له:

- ما بتشرب منكر.. أجاب:

- إيـييه تشرفنا..

- دفـع بهـا إلى السـيدتين في المقعـد الأمامـي.. فلـم تـردّا في البدايـة.. ومـن ثـم أجابـت إحداهـما:

- ما منشرب خمر..

بعد ذلك قدمها إلى السائق.. فأجابه:

- أنا مسلم ما بشرب خمر..

- وأنا مسلم.. وليكني هه عم أشرب.. أضحكني ردّه.

حوار طريف في آخر هذا الليل، زاد من دسامته السلوك الغريب للسيدتين اللتين أخذتا حريتهما في العناق والتقبيل على مرأى منا، دون أي حياء أو حرج.. عرفت من بعد، أن ثمة عشقاً بين النساء يماثل عشق الرجل للمرأة، والرجال للغلمان حسب ما أنبأنا التراث العربي.. وأبلغ ما سمعته من السكير الملتصق بي..

- أنو هيك بتعملو إدام العالم.. معليش.. بس ما بتشربو خمر.. عجايب..

لدى وصولنا إلى جونية، وكانت كما بيروت، لا تنام.. طلب جاري من السائق أن يحضر زجاجة ثانية، فلبّى طلبه، وقد شارفت الساعة على الثالثة. وأعاد الكرّة في تدويرها علينا.. رفضنا.. شربها بمفرده.. ولدى وصولنا إلى البترون صرنا ثلاثة في السيارة بعد أن غادرتنا السيدتان.. وبعد تقديم مشاهد إيروتيكية ما كانت لتخطر على بالي.

حاولت أن أجلس في المقعد الأمامي.. تمسكت بي السيدة وهمست بالفرنسية:

- لا تتركني وحدي معه.. قالت ذلك بخوف وتوسّل..

رضخت.. وقلت لجاري:

- نزال قعاد إدام..

- ليش أنا فيني إنزل؟؟

أوقف السائق السيارة وخرج ليفتح الباب الخلفي ويحمل الرجل

المترنح ليجلسه في المقعد الأمامي.. طاوعه الرجل وهو يقول:

– شوفو كيف بدكن توصّلوني عالبيت..

يا الله.. صارو تنين.. قلت في نفسي.. وأنا أحلم في الوصول إلى بيتنا بسلام.. أجابه السائق:

– ولا يهمك، ستصل إلى بيتك..

عندما وصلنا إلى طرابلس، طلبت مني السيدة أن نوصلها إلى الميناء وستدفع ما يريده.. كانت الساعة الخامسة، ولم يطلع الصباح بعد، طلبت من السائق أن يوصلها إلى الميناء.. فتوجّه إليها.. عرفت بسهولة مسكن أهلها.. خرجت من السيارة، حملت حقيبة كبيرة، وأخرى حملها السائق، وبعد برهة عاد.. وهو يقول:

– يعني عشرة دولار شو بيطلعو؟

– عشرين ليرة.. روح..

– هيدي بحسنة هالتعبان اللي بدنا نوصّلو على بيتو..

– إنت التعبان..

كان ظننا أنه يغط في نوم عميق، بعدما فرغ من النبيذ..

خرجنا من الميناء.. التفت السائق إلى الرجل الجالس بقربه وسأله:

– وين بيتك يا أخ..

– بالسويقة، حد النهر.. بس نوصل مقابيل القلعة بدلّك..

وصلنا إلى الجهة المقابلة للقلعة، على الضفة الشرقية للنهر..

– وقّف هون.. ونزّلوني.. ما فيني أوقف..

خرجـت مـن السـيارة وتعاونـت مـع السـائق عـلى إخراجـه منهـا.. طلـب منـا الصعـود مـن خـلال درج طويـل.. بدأنـا بالصعـود ونحـن نسـنده مـن إبطيـه.. وقطعنـا نحـو خمسـين درجـة.. سـمعناه يقـول:

– هون.. هون.. اتركوني هون.. دقّوا الباب بقوة.. واهربوا..

هـذا مـا كان.. ولم نعـرف إذا فتحـوا لـه البـاب أو بقـي خارجـاً إلى أن فرجهـا اللـه عليـه..

أنزلنـي السـائق قـرب بيـت أخـي في الزهريـة، وكان قـد طلـع الصبـاح وغمـر بنـوره المدينـة.

13

أنا والكتاب

كان ذلك في العام 1974، عندما بدأت رحلتي مع الكتاب في وكالة توزيع الصحف والمطبوعات، النواة الأولى لدار جروس برس. قبل ذلك، ومنذ العام 1969، كنت صلة الوصل بين مكتبة «فكر» لمؤسسها محمد عصام البابا، ووكالة التوزيع. ذلك أنني كنت على صلة وثيقة مع عصام المثقف الطرابلسي اللامع الذي حضنني بأبوّة حانية، وفتح لي باب الاطلاع على الكتب والمطبوعات التي تصله من دار التوزيع. وكان عادة ما يطلب مني إحضار هذه المجلة النافدة أو الصحيفة فأذهب إلى «أبو ناصر وأبو أكرم» لأحظى بما يريد وأعود مسرعاً.

كان ذلك يوطّد علاقتي مع عصام البابا وأنا على أبواب الجامعة، ومع الأخوين جرّوس في الآن عينه. فصار الأول يطلق يدي في المكتبة، وأبو ناصر يشير إلى أبي أكرم ليلبي طلبي بعد أن يذكرني بالإسم، وكان هذا يَسرّني.

كان عصام يشجعني على القراءة في مكتبته، مكتبة فكر، فأقرأ الصحف والمجلات، وأستعير ما لديه من كتب تهمني، وأنقلها معي إلى البيت وأردّها بعد الانتهاء منها. كل ذلك بطيبة خاطر من قبل عصام، ما حفّزني على مساعدته في جلب ما يحتاج إليه من الكتب والمطبوعات، أو إيداع ما لديه من أموال في المصرف.. كان وحيداً ورأيت من واجبي أن أساعده في عمله، وما كان يمانع من الاستدانة منه بانتظار قبض راتبي الشهري الذي يطول أجله ليصل إلى ستة أشهر.. وما كانت متعة القبض لتستمر بعد دفع ما يترتب علي من ديون، لأعود إلى الاستدانة من جديد.. وكان عصام، رحمه الله، المورد الوحيد.. حتى أنه يعرض عليّ المال دون أن أطلب منه..

مـن مآثـر عصـام العزيـزة عـليّ تعريفـي إلى صديقـه الأثـير حسـن نافـع، ومـن ثـم أسرتـه التـي كان يـتردد أفرادهـا عـلى المكتبـة.. توطـدت صلتـي بهـذا الرجـل إلى الدرجـة التـي اعتبرتـه فيهـا بمثابـة فـرد مـن أهـلي.. وإلى المـدى الـذي تجـاوز عصـام في علاقتـي معـه.. طيبـة.. وأخـلاق.. وتفـان.. ومحبـة تظهـر مـن خـلال سـؤاله الدائـم عـن أحـوالي، وبالطريقـة التـي تـدلّ عـلى مـدى الاهتـمام بالتفاصيـل الصغـيرة للتدليـل، بالعفويـة المطلقـة، عـلى عمـق علاقتـه معـي، واهتمامـه بأحـوال أسرتي، وبالطيبـة والمحبـة اللتـين لم يصـل إليهـما الشـك يومـاً. كان حسـن نافـع الطيـب والمتفـاني في علاقاتـه محطـة أساسـية في مسـيرتي. وكان منزلـه محـط زيـاراتي المتواصلـة، إن كنـت منفـرداً أو مـع أسرتي.. كـما كان هـو وأفـراد أسرتـه في علاقتهـم معـي.. تـوفي حسـن نافـع والتحـق بالرفيـق الأعـلى.. وسـيبقى ذكـره مرافقـاً لي مـا حييـت.

كنـت لا أزال مدرّسـاً وأحـضّر أول مذكـرة بحـث في العلـوم الاجتماعيـة عــن الطائفيــة في لبنــان، المشــكلة التــي لا تــزال تفعــل فعلهــا في إعاقـة أي تطويـر عندنـا، إلا بمـا يتناسـب معهـا. واحتجـت إلى كتـاب ليسـاعدني في عمـلي، و كان قـد صـدر حديثـاً لأسـد رسـتم حـول المتصرفيـة في لبنـان. فسـألت عصامـاً. وكان أن دلّنـي عـلى أبي أكـرم لطلبـه منـه. فذهبـت. وإذا بالكتـابِ بـين يـديّ، وبرقـم 13 ل. ل. أو مـا يعادلها،عـلى الغـلاف الأخـير. فسـألتُه عـن السـعر. تنـاول الكتـاب مـن يـدي ليقلبَـه، ويقـول 13 لـيرة.

يا الله، قلت في سرّي، بدل يوم ونصف من راتبي الشهري.

لم يـأت أبـو أكـرم عـلى ذكـر الحسـم، ولا أنـا خطـر لي ذلـك. تأبّطـت الكتـاب، ونقدتُـه المبلـغَ المطلـوب، لـيرةً في إثـر لـيرة. وكان ذلـك مـن دواعـي غبطتـي لامتـلاك الكتـاب، وإن رافقتـه حـسرةُ ذهـاب اللـيرات العديـدة.

أقـول اليـوم، إن هـذا الكتـاب مـن أغـلى الكتـب عـلى قلبـي، ومـن أقربهـا إليـه. ولا يـزال يحتـل مـكانَ الصـدارة في مكتبتـي.

جـاء انتقـالي إلى وظيفـة أخـرى مـع بدايـة الحـرب اللبنانيـة في العـام 1975. وكانـت بعيـدةً عـن أجـواء البحـث العلمـي، وعـالم الثقافـة. ولكنهـا أتاحـت لي، بنظـام دوامهـا، الدخـولَ إلى عـالم الكتـاب مـن بابـه الواسـع. وكان أن عـاد الإخـوة جـرّوس، أبنـاء أبي نـاصر، نـاصر وباسـل ورفيـق إلى طرابلـس، وشرعـوا في تأسـيس دار لتوزيع الكتب في الشـمال باسـم «جـروس بـرس». اكتفـت الـدار، في البدايـة، بتوزيـع كتـب أهـم دور النـشر في لبنـان، وبعـض البلـدان العربيـة، بالاضافـة إلى كتـب بعـض دور النـشر الأجنبيـة. كان ذلـك في العـام 1978. وبحكـم تـردّدي عـلى الوكالـة، تعرّفـت عـلى الأخـوة جـروس. وتوطّـدت علاقتـي مـع باسـل الـذي غادرنـا باكـراً. وصـار مـن الممكـن الاطـلاع عـلى الكتـب الـواردة إلى الـدار بسـهولة ويـسر. وقـد سـاهم باسـل في ذلـك بلطفـه وذوقـه، وبتسـاهله في التعامـل مـع الـرواد وبكميـة الحسـم التـي يهبهـا إلى المشـترين عـن طيـب خاطـر، والكلمـة الدائمـة: أهـلاً وسـهلاً.

كل هـذه الظـروف سـاهمت في التعـرف عـلى جـلّ ما يصـدر في بيروت مـن الكتـب. وكان ذلـك، بالإضافـة إلى الحسـومات الكبـيرة الصادرة عن يـد كريمـة، قـد شـجّعني، والكثيريـن غـيري، عـلى القـراءة، وخصوصـاً في مجـالات التخصـص الأكاديمـي، والمطالعـات الأدبية والسياسـية.

حفّـزني هـذا البـاب المفتـوح، عـلى غـير تكلفـة، إلا بمـا أريـد اقتنـاءه مـن الكتـب، كـما حفّـز الكثيريـن غـيري أيضـاً، عـلى زيـادة التعمّـق في الدرسـات العليـا. ومـا كان ذلـك متوفـراً لـولا تأمـين الوسـائل اللازمـة لذلـك. وكان الكتـاب المتوفـر في وكالـة التوزيـع أول هـذه الوسـائل، بمـا وفرتـه مـن القـدرة عـلى الاطـلاع والبحـث عـن المعلومـة بالمجـان، لمـن ليـس بقـادر عـلى اقتنـاء كتـاب، أو لمـن أراد تأجيـل اقتنائـه لمـن لا تسـاعده ظروفـه عـلى اقتنائـه لحظـة الاطـلاع عليـه. وأكـثر مـا كان يريحنـا، أن باسـل إذا عـرف بـضرورة اقتنـاء الكتـاب لأحدنـا، كان يـصرّ

عـلى تسـليمه إيـاه مـع الحسـم المقـرر، والدفـع عنـد الفـرج.. ولا ينـسى بعـد ذلـك مـن تقديـم فنجـان القهـوة. أمـا إذا كان المطلـوب غـيرَ متوفـر، كان باسـل يطلبـه مباشرة عـلى الهاتـف، ليقـع بـين يـديّ طالبـه بعـد أيـام معـدودة.

في بدايـة الثمانينيـات بـدأت دار جـروس بـرس في نـشر الكتـب. وكان أول مـا نشرتـه، وثائـق تاريخيـة تتعلـق بلبنـان. وقـد ترافـق ذلـك، مـع بدايـة إقامـة معـرض الكتـاب الـذي كان لجـروس بـرس الفضـل الرئيـس في إقامتـه. وهـو المعـرض الـذي صـار سـنوياً، ولا يزال مسـتمراً إلى اليـوم، وإن خـفّ وهجُـه، وقـلّ حضـورُ الـرواد إليـه، مـع وسـع المسـاحة وزيـادة الكتـب المعروضـة. وفي هـذه المسـألةِ شـأنٌ آخـر.

كان لنشـأة معـرض الكتـاب في طرابلـس الأهميـةُ القصـوى لتعريـف النـاس عـلى الكتـاب وأهميـة الكتـاب. وقـد بـدأ للوصـول إلى هـذه الغايـة، دون أن يكـون الربـح الحافـزَ الأول. ذلـك أن الحسـومات المعطـاة عـلى الكتـب، وبالتنسـيق مـع دور النـشر والمكتبـات الخاصـة المشـاركة مـن طرابلـس وبـيروت، وصلـت إلى 50% ولم تقـل عـن 25%. فسـاهمت المعروضـات والمحسـومات في تقريـب الكتـاب مـن متنـاول النـاس، ومـن إيقـاظ حـس الاطـلاع والمعرفـةِ لديهـم، بالاضافـة إلى تحفيـز الطـلاب عـلى الاسـتزادةِ مـن المعرفـة، وعـلى الاسـتمرار في التخصـص، لسـهولة الوصـول إلى الكتـاب، بهمّـة القيّمـين عليـه في المدينـة. وكان أكثرهـم نجاحـاً في حمـل هـذه الرسـالة، دار «جـروس بـرس». وكنـت أنـا واحـداً مـن هـؤلاء الذيـن يدينـون بإكمال تخصصهـم إلى هـذه الـدار، وإلى القيّمـين عليهـا.

كانـت معـارض الكتـب صلـةَ الوصـل بـين جـروس بـرس، وطـلاب المعرفـة والقـراء. وكانـت علاقتـي الحميمـة بالكتـاب تدفعنـي إلى المشـاركة في إحيـاء هـذه المناسـبة، فلـم أتأخـر عـن موعـد افتتـاح إي منهـا، كـما كنـت أبقـى إلى أن ينتهـي العـرض، عـلى حـسرة، بانتظـار اليـوم التـالي.

في هـذه الفـترة، فـترة الثمانينيـات الذهبيـة، كتبـت بخـط يـدي فهرسـاً بمحتويـات مكتبـة جـروس في شـارع عـز الديـن. فظهـر عـلى شـكل كتـاب وزّعتـه الـدار عـلى المكتبـات. ومـن ثـم انتقلـت المكتبـة إلى طريــق المينــاء، مــكان البــان دور اليــوم، في العــام 1986. ولمتانــة علاقتــي بالأخــوة جــروس، ولأننــي صرت مــن المداومــين في المكتبــة، تطوّعـت لأرشـفتها. وقـد ابتكـرت طريقـةً لذلـك تقـوم عـلى تسـجيل الكتـاب بـكل مواصفاتـه عـلى وجـه البطاقـة، وعـلى قفاهـا، خريطـة للمكتبـة في الطابـق السـفلي، مـع أرقـام تـدل بالتفصيـل عـلى مـكان وجـود كل كتـاب. وفي حـال شراء أي مـن هـذه الكتـب، تبقـى البطاقـة لتعـود نسـخةٌ ثانيـة إلى مكانـه. ولا تـزال كتـب كثـيرة تحمـل هـذه البطاقـة في طياتهـا، إلى اليـوم، في المكتبـة وفي مـكان تخزيـن الكتـب.

مـن خـلال علاقتـي بالكتـاب والمكتبـة والأخويـن جـروس، تسـنّى لي أن أعمـل في ترويـج الكتـاب، بالاضافـة إلى عمـلي في وزارة الاقتصـاد والتعليـم الثانـوي الخـاص.. كنـت في بحبوحـة ماديـة لم أعهدهـا مـن قبـل، وذلـك في بدايـة الثمانينيـات.. راتبـان ومبلـغ معتـبر مـن ريـع الكتـب والموسـوعات التـي وزّعتهـا بالتقسـيط المريـح نتيجـة لعلاقتـي الطيبـة مـع جـروس.. وقـد أخـذت عـلى نفـسي الوعـد بـأن أي مـال يأتينـي مـن بيـع الكتـب، هـو فقـط لـشراء الكتـب، ولا لأي شيء آخر.. والراتبـان الباقيـان يكفيـاني في إعالـة الأسرة ودفـع الأقسـاط المدرسـية..

بقـي الأمـر عـلى هـذه الحـال، إلى أن بـدأ التضخـم ينـوء بثقلـه علينـا.. بـدءاً مـن العـام 1987. وصـل الأمـر في نهايـة هـذه السـنة، ومـع بـدء السـنة التاليـة، إلى تـآكل رواتبنـا إلى الدرجـة التـي وصـل فيهـا راتبـي مـن الـوزارة 18 دولاراً في الشـهر.. في عـز هـذه الأزمـة طلبنـا رئيـس ثانويـة طرابلـس، مركـز عمـلي الثـاني، إلى اجتـماع مـع المعلمـين.. شرح مـا نحـن فيـه مـن ضائقـة ماديـة وتضخـم طـال القـوة الشرائيـة لللـيرة، وأبلغنـا قـراره بأنـه سـيحوّل رواتبنـا، المعتمـدة عـلى أسـاس تعليـم السـاعة الفعليـة، بدفـع شـهري، بالـدولار عـلى أسـاس سـعره في لحظـة الاجتـماع.. مهـما سـيكون سـعره في المسـتقبل.. وكان سـعر

صرف الدولار في تلك اللحظة 350 ليرة. وهذا يعني أن مجموع ما نتقاضاه شهرياً كحصيلة لمجموع ساعات التدريس سيقسم منذ تلك اللحظة وصاعداً على هذا الأساس.. فيتحول بذلك بدل أتعاب الساعة من الليرة إلى الدولار.. منذ ذلك الحين، بدأت أتقاضى 60 سنتا عن الساعة الواحدة، وما متوسط مجموعه شهرياً 25 دولاراً.. لقاء 10 ساعات تعليم في الأسبوع.. نعمة كريم.. مقابل 18 دولاراً كراتب بدوام كامل لوظيفة من الفئة الثالثة في القطاع العام.. والأستاذ الجامعي كان يتقاضى حينها 40-45 دولاراً في الشهر. وبدءاً من منتصف 1988 بدأ الحال بالتغير بعد زيادة الرواتب في القطاع العام 100% في تموز، و100% في كانون الأول من آخر السنة نفسها.. وهذا يعني أن راتبي انتقل من 7000 ليرة قبل منتصف 1988، إلى حوالي 30.000 ليرة في آخرها. وبقي في كل حال دون الـ 100 دولار، قبل أن يقفز قفزته الكارثية في 1989-1991 ليصل إلى 2800 ليرة للدولار الواحد.

بقي الكتاب صامداً على قدر اهتمام القراء به، من ناحية؛ وتسهيل اقتنائه وقراءته من قبل القيمين عليه، من ناحية ثانية. وذلك من خلال تنظيم المعارض المتعددة في المدينة، وخصوصاً في الرابطة الثقافية.. فجاء المعرض بمثابة المهرجان للكتاب والمكتبات والناشرين والمؤلفين والقراء.. مع التشجيع والحث على الشراء لقاء حسومات ضخمة.. وقُدّر لي أن أشارك في مساعدة جروس برس متطوعاً باستلام أحد مراكز البيع.. وكان باسل يعبّر عن كرمه تجاهي بأن يعفيني من دفع أثمان الكتب التي أنتقيها من كل معرض شاركت فيه.

مع تراجُع الطلب على الكتاب، وتراجُع الاهتمام به، بتغير نمط الاطلاع على المعرفة، رأى مدير الدار، ناصر، بالاضافة إلى النشاطات التي يقوم بها، بوصفه مسؤولاً في اتحاد الناشرين العرب؛ ما أدخل الكتاب الشمالي إلى الأسواق العالمية والعربية، وبما أنشأ من العلاقات مع مراكز الثقافة في العالمين العربي

والغـربي، لتحفيزهـا عـلى دعـم نـشر الكتـاب وترجمتـه إلى العربيـة، ومنهـا إلى اللغـات الأجنبيـة؛ ومـع زيـادة الضغـط عـلى دور النـشر، وانحسـار انتشـار الكتـاب كنتيجـة مبـاشرة للتضخـم المتفـشي؛ رأى مديـر الـدار، أقـول، وبالتعـاون مـع ثلـة مـن مثقفـي لبنـان والعـرب وأكاديميّيـه، أن ينـشر كتابـاً دوريـاً يتضمـن أبحاثـاً متعـددة لباحثـين لبنانيـين وعـرب. فيكـون بذلـك، قـد قـام بأمريـن إثنـين: الأول، تشـجيع الباحثـين عـلى الكتابـة، وبالتـالي تحفيزُهـم عـلى القـراءة والتعمّـق فيهـا لإكـمال بحوثهـم وتوثيقهـا، ومـن ثـم الافـادة منهـا في ترفيعهـم الأكاديمـي؛ والثـاني، الافسـاح في المجـال لهـؤلاء ليعملـوا عـلى توزيـع هـذه الأبحـاث عـلى طلابهـم مـن بـاب الأعـمال الموجهـة ليفيـدوا منهـا في زيـادة معرفتهـم، مـن ناحيـة؛ وزيـادة علاماتهـم في تقويـم نشـاطهم البحثـي واختباراتهـم الأكاديميـة، مـن ناحيـة ثانيـة. ولا أهميـة هنـا للمـردود المـادي، لا في الزيـادة ولا في النقصـان.

مأثـرة أخـرى تُـزاد عـلى مآثـر جـروس بـرس في التعاطـي مـع الكتـاب، ومـع أصدقـاء الكتـاب ومحبّيـه. كتـاب يحتضـن أبحاثـاً متعوبـاً عليهـا، فترتـاح بـين دفتيـه، وغـذاء أكاديميـاً معرفيـاً عـلى الطـلاب والمثقفـين النهـلُ منهـا، لتكتمـل مهمـة الكتـاب، ولتترسـخ رسـالة الـدار، باعتبارها صلـة الوصـل بـين الكتـاب والقـارئ.

مهمـة سـامية تضطلـع بهـا دار جـرّوس بـرس، بالتعـاون مـع هيئـة تحريـر لهـا البـاع الطويـل في عـالم التأليـف والترجمـة، وهيئـةِ مستشـارين معتبَريـن في عـالم الثقافـة والمعرفـة. فهنيئـاً لهـم هـذا الإنجـاز.

ومـا علينـا إلا الرجـاء باسـتقبال هـذه المبـادرة بالترحيـب، والمشـاركة في الكتابـة والقـراءة.

14

من الجامعة إلى الوظيفة العامة

كان إيماني الراسخ بأن لكل مرحلة شأنها واهتماماتها، ولكل مرحلة من المراحل اللاحقة الحلم الذي عليّ تحقيقه بكل صبر وأناة. بذلك انتقلت من صبي مكتب عليه كسب ما يسند حياته الدراسية قبل الحصول على الشهادة، إلى الوظيفة العامة؛ هذا ما خوّلني الدخول إلى سلك التعليم بالتعاقد بعد تعثّري في الدخول إلى جنة الملاك الرسمي.. كان التعاقد بمثابة خيرٍ لي، أوصلني إلى ما وصلت إليه بعد التنقل بالتعاقد، مع مواصلة الدرس والتحصيل.. التعاقد الذي أبقاني في حالة من التحرر والحركة الدائمة في طلب الوصول إلى الأفضل.. كان عدم الاستقرار الوظيفي الذي يوحيه التعاقد المحفز الأساسي للوصول إلى الأفضل.. سبع وثلاثون سنة وخمسة أشهر قضيتها متعاقداً مع إدارات الدولة ومؤسساتها من 1972 إلى 2010، ومن ثم دخلت ملاك الجامعة اللبنانية من 2010 إلى 2014، سنة إحالتي على التقاعد في 17 شباط..

سنوات التعاقد أظهرت وجودي غير الثابت في وظيفة محددة.. وإذا عليّ تفصيلها تكون كما يلي: ثلاث سنوات في التعليم الرسمي، عشرون سنة في وزارة الاقتصاد، فيها آخر أربع سنوات تعاقد بالساعة في معهد العلوم الاجتماعية، أربع عشرة سنة وخمسة أشهر بالتفرغ في المعهد؛ فتكون الحصيلة سبعاً وثلاثين سنة وخمسة أشهر، بالاضافة إلى أقل من أربع سنوات في ملاك الجامعة، ليكون مجموع الخدمة العامة في الدولة اللبنانية إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر. دفعت لضم سنوات الخدمة مئة وثلاثين مليون ليرة بالتقسيط مع الفوائد، أعيد لي منها ما يقرب من ثمانية أعشارها بعد تعديل مرسوم الضم، وحسم الفوائد

المدفوعة التي لا تعيدها الدولة..

من الصدف الجميلة في حياتي العملية، فتح المجال أمامي عند حصولي على أي شهادة تخوّلني الارتقاء في السلم الوظيفي.. بدءاً بالثانوية العامة مروراً بالإجازة، ووصولاً إلى الدكتوراه.. ولا وساطة تذكر إلا في محطة واحدة قدّمها لي صديق عزيز، وسياسي بارع رائد القومية العربية في منطقة المنية.. هذه قصة من الواجب حكايتها..

عرف مصطفى عقل، وهو صديق لي، أنني تقدمت بطلب إلى وزارة الاقتصاد لوظيفة متعاقد لتوزيع البطاقة التموينية في نيسان 1975. وكنت حينذاك مدرّساً بالتعاقد في النبي يوشع - المنية. أفادني صديقي أن الأستاذ محمود طبو صديق عزيز لوزير الاقتصاد عباس خلف.. وسيعرّفني عليه.. استقبلنا الأستاذ في مكتبه في طرابلس وعرضت عليه الموضوع.. أبدى استعداده وطلب مني أن أنتظره في ديوان مكتب الوزير في الطبقة الحادية عشرة من مبنى وزارة الاقتصاد في منطقة الحمراء في العاشرة والنصف. هذا ما كان.. انتظرت الأستاذ حتى الساعة الحادية عشرة موعد الاقفال يوم الجمعة.. خرج الوزير من مكتبه مع ثلاثة أشخاص ومروا قبالتي دون أن أحرّك ساكناً.. ماذا عليّ أن أقول..؟ انتابتني خيبة أمل كبرى.. وطار الموعد..

ما كان عليّ إلا أن أمشي خلفهم بصمت.. وعلى باب المصعد، فتح الحاجب الباب وإذا بالكهرباء تنقطع في اللحظة ذاتها.. وقف الجميع دقائق ومن ثم قرّر الوزير النزول سيراً من الطابق الحادي عشر. نزل الجميع وراءه وأنا منهم. ولدى إطلالة الوفد على مدخل المبنى سمعت صوتاً يقول:

- شو أبو ميشال، نازل مشي مبيّن؟؟

عرفت أن هذا صوت الأستاذ.. ولكن لم أعرف حتى تلك اللحظة أن عباس خلف مسيحي ويكنّى بأبي ميشال.. الأسماء تكشف المستور..!

ظهرتُ على الأستاذ، فقال ضاحكاً:

– هه وأنت هون كمان..

إلتفت الوزير خلفه ليعرف لمن توجّه الأستاذ بالكلام.. قال له الأستاذ محمود:

– هيدا الأستاذ عاطف كان ناطرني عندك بالديوان.

إلتفت ونظر إليّ.. مد يده للسلام فصافحته، وعاد ليقول:

– شو خير؟؟

– زيارة بسيطة للتعارف ونشرب قهوة..

توجه الوزير إلى أحد مرافقيه بالكلام، وقال:

– بلا هالروحة، الأستاذ محمود عنا..

لم نفهم قصده إلا عندما أوضح بالقول:

– لدينا زيارة رسمية مع فخامة الرئيس (سليمان فرنجية) لتهنئة رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى بمنصبه الجديد.. ليذهبوا هم، ولنبق معاً..

قال هذا الكلام وبدأ بصعود الدرج، وسمح لواحد من مرافقيه أن يبقى معه.

– يلله أستاذ ما بعدك شب؟؟ طلاع لنطلع..

لم أصدق ما أرى.. يصعد الوزير أحد عشر طابقاً سيراً على الأقدام

لمجرد زيارة تعارف وفنجان قهوة؟؟ تابعوا سيرهم صعوداً بخفّة ورشاقة، وأنا وراءهم، حتى وصولنا إلى مكتب الوزير.. طلب من مرافقه تحضير القهوة، ولم يقبل إلا أن يقدّمها بيده لنا. شربنا القهوة وعرف سبب مجيئنا، كان جوابه في قمة المودّة..

– هلأ جيتو وكسبنا شوفتكم.. بس ما في داعي للعذاب كنت حكيني عالتلفون.. والقصة ما بتحرز.. ورح ناخد كل مرشّح يحمل الاجازة.. وهلأ اعتبر حالك متعاقد معنا، ملتفتاً إلي.

لا أعلم لماذا أثّرت فيّ تلك المناسبة. وأنا في بداية معرفتي بالأستاذ محمود.. ولكن لمست قيمة التواضع الذي يتحلى به وزير في الدولة، ومدى قرب العلاقة مع صديق. أثبتت هذه المناسبة صدقها بالفعل لا بالقول وحده.

باشرت العمل في وزارة الاقتصاد باحتفال قسَم اليمين في قصر العدل في بيروت في 15 نيسان 1975، بعد يومين من مجزرة بوسطة عين الرمانة التي حصلت في 13 منه. وكانت بداية عملنا التجمع في الصالة الزجاجية لوزارة السياحة لإلحاقنا بمراكز توزيع البطاقة التموينية في المناطق اللبنانية كافة.. بدأنا في بيروت وجبل لبنان، ومن ثم في الشمال والبقاع والجنوب..

كان علينا أن نسلّم كل أسرة بطاقات على قدر عدد أفرادها بناء على إخراج قيد عائلي. ونستوفي نصف ليرة بدل البطاقة الواحدة.. سار العمل كما هو مخطط له.. إلا أن تفاوتاً في إنجاز العمل حصل بين المتعاقدين، من الإجادة التامة إلى ما يشبه الاهمال التام مع الفوضى في ترتيب الجداول وتبويبها. وانتهى الأمر بالمساواة المطلقة بين المُجيدين والمُهملين، كما يحصل عادة في ممارسات موظفي القطاع العام في غياب مبدأ الثواب والعقاب.

وكان أن تجمّعت البطاقات في أروقة الوزارة وغرفها، وضاق بها المكان.. ولم تنفع لشيء.. وزاد من نفقات هذا المشروع ما تم رصده من أموال لسحب المستندات المتعلقة به من الوزارة ومن ثم تلفها.

كان هذا المشروع بداية التفكير العملي في رعاية الأمن الغذائي للبنانيين قدّمه كمال جنبلاط.. وقد قوبل باعتراض الجهات المحافظة في مجلس النواب والقوى الرأسمالية في البلد، باعتبار أنه فاتحة دخول الاشتراكية إلى البلد، والقضاء على النظام الحر فيه.. على أي حال دفن المشروع في مهده، وجاءت الحرب الأهلية لتقضي على ما كان عليه لبنان دون أن يحلّ أي بديل مكان الذي كان. فسبقت الديموغرافيا النمو، وتغيّر توزيعها على وجه جديد فرضته توجهات الأحداث. وتوغّل لبنان في المجهول إلى أن استفاق على عجز في تدبير أي أمر مجتمعي، أو تغيير سياسي إلا إلى الأسوأ.. ولا نزال نتحمّل تبعات ذلك إلى اليوم، في كل القطاعات، ومنها طبعاً قطاع الفعل السياسي الذي ساهم ولا يزال في تأزّم الوضع اللبناني في انهيار مريع لا قاع له.

كشف توزيع البطاقة التموينية لنا السلوك اليومي والعفوي للناس في لبنان، وطريقة تعاملهم مع موظفي القطاع العام.. أقول هذا الكلام لأدلل على أن مهمتنا لا تفرّق بين الناس، ولا تستوجب وساطة أو تدخل من أحد.. على كل أسرة أن تحصل على بطاقاتها، ولا شيء غير ذلك. إلا أن ما لمسناه وتأكّدنا منه بالممارسة، أن الشعب اللبناني طيّب ومضياف، ومن السهولة التعامل معه وتوجيهه، إذا كان ثمة متعامل وموجِّه على الوجه الذي يخدم الدولة، وفعلها في تنمية المجتمع وتقدمه.

كانت مهمتي في غوسطا في قضاء كسروان من جبل لبنان مع اثنين من زملائي. تعهد رئيس البلدية بكل شيء. وحجز لنا الاقامة

في فنـدق باسـيل في حريصـا، مـع كل مـا يلـزم مـن وجبـات الطعـام، علـماً أن ذلـك لم يكـن مطلوبـاً لا مـن أشـخاص ولا مـن مؤسسـات، ولنـا في مهامنـا تعويضـات خاصـة.. اسـتشرنا مسـؤولي الـوزارة، أفـادوا بـأن البلديـات مسـؤولة معكـم، وإذا اعتـبر مسـؤولوها أنكـم ضيـوف لديهـا، فـلا بـأس عـلى أن لا يؤثـر ذلـك عـلى حسـن سـير العمـل.. بقينـا 20 يومـاً ولم يلزمنـا حتـى شراء التبـغ.. وتلقينـا الدعـوات مـن هيئـات وجمعيـات ورجـال أعـمال وأديـرة للغـداء والعشـاء.. لـن أنـسى مـا قدمـه لنـا الراهـب المسـؤول مـن قطـع النبيـذ الهلامـي في كاسـات مـن الفضـة، في قاعـة طعـام البطريركيـة الكاثوليكيـة، مـا جعلنـا عاجزيـن عـن الوقـوف لطيبـة مذاقـه، دون أي إحسـاس بثقـل الـرأس.. إلا عنـد محاولـة النهـوض.. في كـسروان، قمنـا بمهامنـا عـلى أفضـل مـا يكـون..

في المرحلـة الثانيـة، انتقلـت مهمتنـا إلى محافظـة لبنـان الشـمالي، بلدة بـشري.. اسـتقبلنا رئيـس البلديـة وقـدم لنـا قاعـة للعمـل، وأوعـز إلى أمـين الـسر أن يدلّنـا عـلى منـزل ذكـر لـه اسـم مالكـه ليكـون مسـكناً لنـا طيلـة فـترة بقائنـا.. شـكرناه وغادرنـاه.. كنـا إثنـين.

أوصلنـا الدليـل إلى قاعـة البلديـة للتعـرف عليهـا، ثـم سـار بنـا صعـوداً إلى مـكان بعيـد عـن المركـز وقريـب مـن طريـق بـشري الأرز.. منـزل جميـل ومفـروش.. ولكنـه بعيـد، ومتعـبٌ الوصـول إليـه.. قرّرنـا أن نقطـن في أوتيـل رحمـة المجـاور لمبنـى البلديـة مـع المجموعـة الثانيـة مـن زملائنـا التـي اقتسـمت معنـا قـرى القضـاء. وبمجـيء أحـد مختـاري البلـدة تغـيّر المسـار، إذ اقـترح علينـا اسـتئجار غرفـة في منـزل مواجـه لقاعـة العمـل طالمـا البلديـة متكفّلـة بالإيجـار.. وهكـذا كان..

في الأيـام العـشرة الأولى مـرّت الأمـور في سـلام، مـع بعـض الإحـراج لأنـه كان علينـا أن نمـرّ وسـط غرفـة تنـام فيهـا صاحبـة الـدار مـع ابنتيهـا، لنصـل إلى غرفتنـا.. في صبـاح أحـد الأيـام الأخـيرة العـشرة،

وهـي فـترة الخدمـة، طلبـت منـا صاحبـة الـدار أن ندفـع بـدل الإيجـار لأن البلديـة رفضـت الدفـع، بسـبب تغيـير المسـكن المقـرر. وطلبـت 200 لـيرة عـن العـشرة أيـام. ومثلهـا إذا مدّدنـا الاقامـة.. فوجئنـا بالأمـر وقررنـا الدفـع، وانتقلنـا إلى أوتيـل رحمـة، الأكـثر راحـة، وإن كان الأكـثر كلفـة.

لم نلـقَ في بـشري، الحفـاوة والتكريـم اللذيـن لقيناهـما في كـسروان، ولاحقـاً في الجنـوب والبقـاع..

كانـت مهمتنـا في البقـاع تنحـصر في بلـدة عرسـال فقـط.. بلـدة كـبرى وفيهـا الآلاف ومعزولـة، بعيـدة والوصـول إليهـا صعـب.. حاولـت تغييرهـا.. لم أفلـح.. مـا حصـل هـو إبـدال زميـلي بزميـل آخـر مـن طرابلـس يملـك سـيارة.. هانـت المسـألة لأن ثلاثـة مراكـز توزيـع تجمعـت في عرسـال والهرمـل.. ومـن حسـن طالعنـا أن تعرفنـا عـلى أسـتاذ متـزوج مـن سـيدة طرابلسـية، شـقيقة أحـد زملائنـا الـذي قـرر الاقامـة في منـزل شـقيقته، عـلى أن يقـدّم لنـا نـزار، صهـره، منـزلاً فارغـاً لعمّـه دون مقابـل.. كنـا نعمـل في عرسـال ونبيـت في الهرمـل.. ونقيـم في مقهـى ومطعـم عـلى العـاصي يملكـه حسـن قريـب نـزار.. الوجبـة الرئيسـية فيـه السـمك المـربّى في بـرك مـاء قريبـة.. نـأكل ونسـهر ونبيـت بانتظـار اليـوم التـالي..

لم نحتـج إلى العـودة في اسـتراحة الظهـيرة إلى الهرمـل.. كان الأهـالي يتنافسـون في الدعـوة إلى الغـداء، وأحيانـاً كان يسـود الهـرج والمرج، لأن رئيـس البلديـة أخـذ عـلى عاتقـه تأمـين الغـداء لنـا في المنـزل المجـاور لمركـز العمـل. لم يعجـب ذلـك المنافسـون مـن العائـلات الأخـرى.. ولمـا قلـت للرئيـس علينـا نحـن أن نحـل هـذه المشـكلة ونعـود إلى محـل إقامتنـا في فـترة الغـداء.. رفـض رفضـاً قاطعـاً، معتـبراً أن ذلـك أهانـة لكرامـة أبنـاء عرسـال.. ووافـق أن يجلـب الداعـي وجبـة الغـداء إلى مقـر البلديـة، بعـد تسـجيل أسـمائهم لحفـظ الـدور.. هكـذا انحلّـت

المشـكلة.. ومـا كان لافتـاً في بدايـة عملنـا أن نجـد أكـثر مـن وعـاء للقهـوة عـلى الطاولـة ونحـن في عـز عملنـا، بالاضافـة إلى علـب التبـغ المماثلـة لمـا أدخّنـه وزميـلي.. هـذا طبعـاً بالاضافـة إلى مـا كان يقدمـه الحـاضرون مـن مسـاعدة في تسـيير أعمالنـا..

كانـت الخدمـة في عرسـال والاقامـة مـع الزمـلاء في الهرمـل مـن أجمـل الأوقـات التـي قضيتهـا في تنفيـذ هـذه المهمـة..

لم يكـن الأمـر في الجنـوب مختلفـاً عـما شـهدته في البقـاع.. كان عـلي تنفيـذ مهمتـي في بلـدة كفرصـير في قضـاء النبطيـة.. لا أزال أذكـر التاريـخ جيـداً، 16 أيلـول 1975.. وصلـت إلى سـاحة البلـدة في سـيارة أجـرة مـن صيـدا.. شـاهدت هرجـاً ومرجـاً تعجّبـت منـه، وكان الدخـان لا يـزال عابقـاً في الجـو.. عرفـت أن مدينـة النبطيـة تعرضـت للقصـف مـن العـدو الاسرائيـلي قبـل وصـولي بنصـف سـاعة.. كانـت المـرة الأولى التـي تقصـف الأبنيـة السـكنية في هـذه المدينـة. أكملـت طريقـي إلى بلـدة كفرصـير وبحـوزتي أسـماء خمـس قـرى يشـملها توزيـع البطاقـات.. وصلـت إلى مبنـى قيـل لي إنـه مركـز البلديـة.. فـإذا هـو الطابـق الأرضي لفيـلا حديثـة يملكهـا الرئيـس.. اسـتقبلني الشرطـي أبـو عـلي ورحـب بي، وأبلغنـي بـأن رئيـس البلديـة محمـد رزق يرحـب بي ويضـع الفيـلا في تـصرفي، وهـو مقيـم في بـيروت، ويـزور البلـدة يـوم الأحـد.

انتظـرت زميـلي الـذي لم أتعـرّف عليـه بعـد.. فقـط اسـمه في حـوزتي.. مـضى نصـف النهـار ولم يصـل.. وأنـا وحـدي.. والجمـوع غفـيرة.. عرفـت بعـد الاتصـال أنـه تعـرّض لحـادث وهـو في المستشـفى، وعـليّ أن أتدبـر أمـوري بنفـسي..

طلبـت مـن الحاضريـن أن يسـاعدني اثنـان، عـلى أن يكونـا مـن الجامعيـين، والدنيـا صيـف.. تقـدم اثنـان، أعلمتهـما مـا عليهـما فعلـه..

عرفـت مـن بعـد، أن أحدهـما مـن قريـة مجـاورة ويعمـل أمـين سر بلديتهـا.. سـاعداني كثـيراً، واسـتطعت أن أقـوم بالعمـل عـلى أكمـل وجـه، وبالجـودة العاليـة، وكنـا نبقـى في زحمـة العمـل إلى العـاشرة مسـاء.. وأحيانـاً دون طعـام، مـع أنـه مكـدّس في الغرفـة المجـاورة.

في اليـوم الثالـث، اقـترح عـلي أمـين السر، وهـو حسـن معتـوق مـن صـير الغربيـة، أن ننتقـل إلى منزلـه، نرتـاح ونتعـشّى، ونسـتأنف العمـل بالهـدوء الـلازم، وبعـد تجميـع المسـتندات اللازمـة لتحريـر البطاقات.. وكان قـد أعلمنـي بأنـه سـيوفّر عـلى أبنـاء البلـدة القـدوم مـن بيروت، وأكثرهـم كان يقيـم في الضاحيـة الجنوبيـة. واقـترح عـليّ بأنـه سـينوب عنهـم في تقديـم المسـتندات، طالمـا هـي شرعيـة وموثوقـة.. اسـتمهلته لأستشـير رئـس المصلحـة في الجنـوب، الطيـب الذكـر مجيـب البـزري. ولمـا وافـق وأطلـق يـدي، وافقـت.. وهكـذا كان. أنجـزت في خمسـة أيـام أكـثر مـن خمسـة آلاف بطاقـة. في اليـوم العـاشر، وصلـت إلى المركـز موظفـة مـن مصلحـة صيـدا، بعـد إلحـاح منـي لارسـال مـن يسـاعدني..

كانـت نـدى موظفـة نشـيطة، ولكنها كانـت تنهـي عملهـا قبـل الدوام لتعـود إلى صيـدا، ولأعـود أنـا إلى العمـل مـع أحدهـما. معتـوق قبـل الظهـر في الضاحيـة لإحضـار المسـتندات التـي علينـا إنجـاز بطاقاتهـا بعـد الـدوام، ونـدى بعـد الظهـر لاضطرارهـا للعـودة إلى منزلهـا باكراً..

في خضـم العمـل تلقيـت اتصـالاً مـن رئيـس مصلحـة الاقتصـاد، للتخفيـف مـن توتّـري، يبلغنـي بـأن وزيـر الاقتصـاد في الحكومـة العسـكرية أرسـل إلي كتـاب تنويـه وشـكر عـلى إخـلاصي في العمـل.. وهـو بحوزتـه، وبانتظـار حضـوري لاسـتلامه.. شـكرته.. مـرّت الأيـام ولم أسـتلمه..

مـا رسـخ في ذاكـرتي مـن أحـداث توزيـع البطاقـات التموينيـة حدثـان

جديـران بالذكـر..

الأول، في اليـوم الثالـث لحضـور نـدى، كان ثمـة شـاب يبـدو أنـه أعجـب بهـا.. بـدأ بقـول الشـعر الشـعبي الغـزلي الموجّـه إليهـا، ومـن ثـم صـار يـأتي يوميـاً للتغـزل بقـول الشـعر.. كان زجّـالاً لطيفـاً.. في اليـوم الرابـع دعانـا إلى الغـداء في مطعـم عـلى ضفـاف الليطـاني في بلـدة قاقعيـة الجـسر.. سـألتها.. وافقـت.. لا سـيارة معنـا.. يملـك هـو سـيارة.. في الواحـدة حـضر، وأقلنـا.. شـبعنا شـعراً وغـزلاً قبـل أن نصـل. طلـب الرجـل مـا لـذّ وطـاب مـن المأكـولات، مـع المـازة والعـرق.. أكلنـا وشربنـا.. نهـض ليطلـب الفواكـه ومـن ثـم القهـوة.. طالـت غيبتـه.. لاحـظ صاحـب المطعـم التفاتنـا الدائـم ناحيـة المـكان الـذي خـرج منـه.. اقـترب منـا.. سـألته عـن رفيقنـا، وكنـا لا نـزال لا نعـرف اسـمه؛

- رحل منذ نصف ساعة بسيارته..

عرف أننا خُدعنا.. كما عرفنا نحن.. خرج ولم يعد..!

عندما طلبت الفاتورة، رفض أن يأتي بها.. لشهامته..

- خلوها علينا.. إنتو بضيافتي..

أصرّيت.. جاء بالفاتورة..

يـا اللـه.. خمـس وخمسـون لـيرة عـدّاً ونقـداً.. ونحـن لم نقبـض رواتبنـا الأولى مـن الـوزارة..! ومـا معـي مـن مـال اسـتدنته بانتظـار مـا سـيأتي.. دفعـت.. وكانـت أغـلى الـليرات التـي دفعتهـا في حيـاتي..

أمـا الحـدث الثـاني الأكـثر طرافـة، فهـو مـا حصـل معـي عندمـا اسـتضافني مختـار كفرصـير..

كان المختـار مـن جماعـة سـميح عسـيران الخصـم اللـدود للرئيـس

كامل الأسعد، النائب اللامع ورئيس مجلس النواب حينها.. وكان أن حصل أحد مناصري الأسعد من أصحاب محلات السمانة تصريحاً ببيع السكر المدعوم من الدولة لتوزيعه على الأهالي.. ولأن البلدة منقسمة بشدّة، وضع لافتة على باب محله تقول «هنا يباع السكّر الأسعدي».. ليضمن بذلك توفير حصة الأهالي من الخصوم الذين لن يقبلوا ما يستحق لهم من السكّر القادم إليهم على صهوة الأسعديين.. ضجّ العسيرانيون في البلدة.. وصلت الشكوى إلى مصلحة الاقتصاد في صيدا.. فما كان من رئيس المصلحة إلا أن اتصل بي طالباً تزويد أحد الأهالي بتصريح ليستلم حصة نصف القرية من السكر.. وهكذا كان.. وحصل العسيرانيون على السكر، كما الأسعديون..

رأى مختار البلدة العسيراني أن يشكرني على فعلتي هذه، ودعاني إلى تناول العشاء في منزله مع من أحب.. لبّيت الدعوة مع حسن معتوق.. فوجئت بوجود الكثيرين من أهالي البلدة. كانت مأدبة عامرة دلّلت على كرم المختار ولطفه.. أثناء تناول الشاي وفي وجود المدعوّين جميعهم بدأ المختار حديثه الطريف بعد الترحيب والتأهيل وإظهار التشرف بالمعرفة.. كان في السبعين وأنا في الخامسة والعشرين، وما زلت عازباً..

- من وين إنت يا عم؟؟
- من الشمال يا مختار..
- يعني من وين بالتحديد؟؟
- من قضاء طرابلس، من قريه اسمها مركبتا..
- اسمك الأستاذ عاطف.. عاطف شو؟؟
- اسمي عاطف جميل عطيه يا حاج..
- إنت شو بتجي من إخواتك؟؟

– أنا السادس يا مختار، الرابع بين الأخوة الشباب..

حملق بي، ورأيت أنه مصمم على الدخول بالتفاصيل أكثر..

– مـا شـاء اللـه، يعنـي تلاتـة أكـبر وواحـد أصغـر.. لم يـأت عـلى ذكـر الأخـوات.. عيـب..

– نعم يا مختار..

– أسماؤهم حلوة متل إسمك..؟

فهمـت إلام يريـد الوصـول.. جاريتـه وسـط همهمـة وهمسـات الحاضريـن..

– أخـي البكـر يـا حـاج اسـمه محـرز، وأبي مشـهور في المنطقـة باسـم بـو محـرز. الثـاني ملحـم وهـو حـلاق مشـهور ومعتـبَر، ونافـذ في أسـتراليا منـذ خمـس سـنوات، وأخـي الأصغـر لطيـف خريـج دار المعلمـين، وينتظـر الالتحـاق بسـلك التعليـم..

لم يُشـبع الجـواب فضـول المختـار. قـرّر اسـتكمال المسـيرة ليصـل إلى مـا يريـد.. وأنـا سررت بهـذا التشـويق الـذي رأيتـه مرتسـماً عـلى وجـوه الحاضريـن.. لم يسـأل عـن اسـمّي أختـيّ البنـات.. ليـس مـن المسـتحب السـؤال عـن الحريـم..

– بعدك أعزب يا أستاذ؟؟

– نعـم.. ولكننـي في مرحلـة الخطوبـة.. وعـن قريـب سـأتزوج بـإذن اللـه..

لم يسـأل المختـار عـن اسـم الخطيبـة، ليـس السـؤال هـذا مـن آداب الحديـث. انتقـل إلى ميـدان الـزواج..

– بس مؤكد يا أستاذ أنو أخوتك مجوّزين..

– نعم يا مختار.. أنا وأخي الأصغر عازبان..

– أكيد عندهم أولاد.. قال بفضول.. يريد حسم الأمر، ولا بد منه مع معرفة أسماء الأولاد..

– أخي البكر يا حاج له ثلاثة صبيان وبنت، جميل على اسم الوالد وحسن وعامر.. ووداد على اسم الوالدة..

– شو بدي باسم البنات ما بيهموني.. قال للتدليل على أنه لا يقصد معرفة أسماء الإناث بالجملة.

– طيب يا مختار.. أخي ملحم له جهاد وزياد.. وأخي نافذ له علي وعماد.. هودي هني يا مختار..

– يعني بفهم إنو انتو مسلمين سنّة؟؟ لإنو ما على علمي في شيعة بطرابلس..

– لا يا مختار في شيعة بطرابلس، وبالكورة في كتير وبالبترون كمان.. بس ضيعتنا كلها روم.. ما فيها لا سنّة ولا شيعة..

ضجّ الحاضرون بالضحك والتصفيق وسط دهشة المختار وإحساسه بالحرج.. كان على الطرّاحة متربّعاً.. قفز قفزة الشباب وانتصب واقفاً.. أمسك بيدي وسحبني بقوة، واتجه بي إلى غرفة داخلية وسط دهشتي ودهشة الحاضرين.. وإذا بي في غرفة نومه، المكان الذي لا يدخله مخلوق من خارج المنزل.. فقط ليدلّني على صورة مريم العذراء المعلقة فوق سرير من سريرين، وصورة أخرى لم أتبيّنها فوق السرير الآخر.. عرفت بعدها أنها للإمام علي..

كانت ردة فعله أكثر من المتوقع، إن كان مني أو من الحاضرين.. قصة طريفة ما زلت أردّدها كلما سنحت الفرصة للكلام في طيبة المنتمين إلى الطوائف، وخبث ومضار الطائفية.. وخطورة الطائفيين مستغلي طيبة الناس إلى أي طائفة انتموا..

15

العمل القومي والمحلي

نشأت في جوّ علماني منفتح، إن كان بالنسبة لانتمائي العائلي أو الطائفي والديني.. علاقات أبي وصداقاته مع الكثيرين من المسلمين ومن الموارنة المحيطين بضيعتنا.. تربّينا على ذلك، وساهم في انطلاقتنا إلى خارج العائلة، عملُ أبي في الضيعة وما نشأ عنه من مودّة أجمعت الأهالي على إظهارها في كل المناسبات.

من هذا الجو المنفتح في الضيعة، امتدت علاقاتنا إلى الخارج، وإلى الاهتمامات التي تسود في الخارج، مع تنامي المد القومي العربي بقيادة عبد الناصر، والقومي السوري بزعامة أنطون سعادة. كان من جملة الأساتذة الذين تعاقبوا على التعليم في مدرسة الضيعة ثلاثة، منهم اثنان أشقاء كانا من أقاربي اللزم، والآخر من خارج الضيعة.. لفتني في هؤلاء، الاخلاص في العمل والتفاني فيه، وإتقانه، واهتمامهم بإنجاح التلاميذ من خلال تقديم الدروس خارج أوقات الدوام، وفي العطل.. ظهر الاهتمام بالحزب وبأفكاره كنتيجة للممارسات العملية لهؤلاء، دون التفوّه بأي كلمة لها علاقة بالحزب.. ولم نعرف هذا الالتزام الحزبي إلا بعد الانقلاب الذي قام به القوميون في أول 1962. وكنا في صف الشهادة الابتدائية. تعطّلت المدرسة لأن أحد الأخوين كان كل أفراد الهيئة التعليمية لخمسة صفوف، قبل أن يأتي مدرس ثان في منتصف هذه السنة. والمدرس القومي الثالث لم يكن قد أتى بعد..

تفتحت أعيننا على مسلك جديد لم نكن نعرفه عن المدرّسين وهو الانتماء الحزبي.. فأرجعت كل التفاني والاخلاص في العمل والجدّية في التعاطي مع التلاميذ إلى هذا المسلك.. فتعلّقنا به دون أن نعرف شيئاً عنه، وكنا ما زلنا دون الثانية عشرة، إلا في

القليـل الـذي تجـاوز هـذا السـن.

لم أتعـاطَ في شـؤون الحـزب وعقيدتـه ومبادئـه إلا في السـنة الأولى مـن المرحلـة الثانويـة.. تعرفـت عـلى مطانيـوس، المـدرّس الجديـد القومـي الـذي اتخـذ الضيعـة مقـرّاً لـه. كنـت ألتقـي بـه مـع رفاقـي عنـد قدومـي إلى الضيعـة كل يـوم سـبت. كان الأسـتاذ مطانيـوس مجلّيـاً في بنـاء علاقاتـه الاجتماعيـة. كان حديثـه في كل شـؤون الحيـاة ينطلـق مـن عقيدتـه القوميـة.. كان الحـزب ولا يـزال مالئـاً جوارحـه.. ووصـل بـه الأمـر إلى إعـداد أطروحتـه للدكتـوراه عـن مؤسسـه في علاقتـه مـع النظـام اللبنـاني، حصـل عليهـا وهـو في السـبعين. وكثـيراً مـا كان يثيرنـا حديثـه المتواصـل عـن العقيـدة والحـزب، ويوصلنـا إلى الخصـام. فيعـود لـيردّ الأمـور إلى طبيعتهـا، بهـدوء طبعـه ومودّتـه.. ومـن ثـم للتحـدث مـن جديـد عـن شـؤون العقيـدة والمبـادئ القوميـة.. مـا اضطـرني إلى التفتيـش عـن المراجـع التـي تناهـض فكـر الحـزب لمناقشـته فيهـا.. وكان أحـد هـذه المراجـع كتـاب سـاطع الحـصري «العروبـة بـين دعاتهـا ومعارضيهـا»، وخصوصـاً في الفصـل الـذي يبحـث في كيفيـة تغيـير حـدود الأمـة السـورية مـما دون العـراق، إلى جمـع العـراق معهـا.. وغيرهـا مـن الأمـور الخلافيـة.. كان نقاشـنا اللبنـة الأولى في تكويـن وعيـي القومـي.. ومـا حفّـزني لمتابعـة أفـكار هـذا الحـزب علمانيتـه التـي تجمـع كل أبنـاء المجتمـع عـلى اختـلاف انتماءاتهـم العائليـة والطائفيـة والدينيـة تحـت لـواء الوطنيـة الجامعـة، بعـد الوعـي بهـا بمـا أضفـاه مفهـوم القوميـة عليهـا.

لم يطـل الأمـر، بعـد ذلـك، أكـثر مـن سـنتين.. انتميـت إلى الحـزب القومـي في 19 تشريـن الأول 1969، وأنـا في صـف الفلسـفة.. بشـهادة ميشـال الحـاج أطـال اللـه بعمـره، وأحمـد هاشـم بإمـرة المنفـذ العـام محمـد عصـام البابـا، طيّـب اللـه ثراهـما. وكان ذلـك في منـزل البابـا في أبي سـمراء، والتحقـت بمديريـة أبي سـمراء الثانيـة التـي كان يديرهـا سـليم صـافي حـرب.

كنت أعتبر، كما اعتبر الكثيرون غيري، وفي عمر مبكر، أن علينا فِعل شيء لتغيير أحوال المجتمع والدفع به نحو التقدم والرقي.. أفكار مثالية ومراهَقة شغلتنا، ورأيت من جانبي أن العمل الحزبي يُسهم في ذلك باعتباره الوسيلة التي نحصل من خلالها على التغيير.. عملت بإخلاص. وكنت أحرص على تسديد اشتراكاتي الحزبية رغم ضيق ذات اليد.. وأنجزت حلقات إذاعية كثيرة مستمعاً ومحاضراً. واستلمت مسؤوليات متعددة في المديريات والمنفذية، وقمنا بجمع التبرعات وبيع جريدة البناء وصباح الخير.. ونفّذت كل ما طُلب مني من أعمال.. إلى أن دخل الحزب في مرحلة الحرب الأهلية..

كان الحزب يعيش أزمة داخلية منذ بدايات السبعينيات ولم تفسّر خارج إطار الصراع على السلطة، بعد مؤتمر ملكارت وتغيير النظام الداخلي للحزب.. ما حدا بوسيم زين الدين(أبو واجب) أن أعلن حالة الطوارئ في مؤتمر صحافي، واتخذ منحى مغايراً لما كان سائداً..

كان وسيم زين الدين أستاذي في المعهد، إذ انتميت إلى صفه في شهادة الجدارة، لتحضير مادة علم اجتماع التنمية، وهي المرافقة لمادة علم الاجتماع القانوني التي قرّرت أن أحضّر بحثي فيها.. بعد رفض زين الدين تسجيل بحثي لديه لأن المادة ليست من اختصاصه.. وهو متخصص في علم النفس الاجتماعي؛ التخصص نفسه لعميد المعهد قيصر نصر.. لم يتنازل نصر عن مادته، وأعطى غيرها لزين الدين بعد التوصية التي حملها هذا الأخير من أستاذه جون ستوتزل، أهم باحث في علم النفس الاجتماعي في فرنسا، وصديق مقرّب من قيصر نصر. تعاقد العميد نصر مع زين الدين بالرغم من الخلاف العقائدي العميق بينهما.

في 23 أيار 1975، قرأت خبر اغتيال وسيم زين الدين في بيروت.. كنت أعمل في غوسطا بتوزيع البطاقات التموينية، وكانت

ارهاصات الحرب متجلية في أوضح صورها، والجبهة مشتعلة بين عين الرمانة والشياح. وكثيراً ما كان يأتي المقاتلون الكتائبيون إلينا للحديث عن سير المعارك ومغامراتهم فيها.. هزّني خبر الاغتيال، وشعرت بحزن عميق، لأنني تعرفت عليه كأستاذ، وقد أحببته لِما كان يتمتع به من صفات الأستاذ: عمق المعرفة، قوة الشخصية، الدقة في استعمال المفاهيم والمصطلحات، اللغة العربية السليمة مع مرادفات المفاهيم السوسيولوجية باللغة الفرنسية والانكليزية، والاهتمام بكيفية بناء تصميم البحث كمشجّر يبدأ من المقدمات والتساؤلات واستعراض النتائج المحتملة التي عرفنا فيما بعد أنها الفرضيات.. مع استخلاص ما قدمه البحث..

على أي حال، ضاعت سنة الجدارة عليّ، بسبب الحرب، أولاً، وعدم تمكّني من إنجاز مذكرتي البحثية التي كانت مرتبطة بخلاصة حكم المحكمة، لأبني عليها نتيجة بحثي.

انقسم الحزب بعد ذلك إلى قسمين: الطوارئ، القسم الذي أنجزه وسيم زين الدين؛ والمجلس الأعلى، المعبَّر عنه باعتباره حزب المؤسسة.. وبدأ الصراع الداخلي المكشوف بينهما، مع احتدام الحرب الأهلية التي عمّت أكثر المناطق اللبنانية.

لا أريد أن أدخل في تفاصيل هذه المرحلة المرعبة من تاريخ لبنان، وتاريخ الحزب. ولكن من المهم أن أسجل انطباعاتي عن هذه المرحلة.. وهي ليست أكثر من تحليل شخصي لما مررنا به..

صارت منفذية طرابلس منفذيتين، كما أكثر المنفذيات في لبنان والخارج.. كنت مع فئة دون أخرى، لاحساسنا بالحالة غير السليمة التي يعاني منها الحزب، وأملنا بالخروج منها من خلال ما طرحه زين الدين في مبادرته الانقاذية.. مع التأكيد على دوام العمل من أجل رأب الصدع.. تطورت الأمور، واستنتجت بعد طول جهد أن ثمة من يلعب بمصير الحزب من خارجه، باستغلال

تناقضاته الداخلية وتضخيم النزعة الفردية لدى الفريقين..

ناقشت أكثر من مرة مسيرة الحزب السياسية مع أكثر من منفذ في طرابلس.. ووصلت في آخر نقاش مع أحدهم..

- يا حضرة المنفذ، لماذا لا نستبدل علم الحزب بعلم حزب البعث ونرتاح من هذا الانفصام؟؟

- هذه هي مسيرة الحزب بأوامر من المركز. إذا لم يعجبك ذلك يمكنك الالتحاق بالمجلس الأعلى، ربما ياسر عرفات أفضل..

صدمني هذا الجواب، وكان ذلك آخر كلام عقدته مع مسؤول حزبي.. وكنت أدرك تماماً أن الحرب ستنتج سلوكاً مغايراً لما تعوّدنا عليه في أيام السلم والحياة العادية.. وصل هذا التغير إلى حالات كثيرة من الصدام مع الحلفاء والخصوم.. منها، محاصرة اثنين من أبرز وجوه الحزب ثقافةً وخبرةً ميدانية وعسكرية، كمال خير بك الشاعر والأكاديمي والمناضل الصامت، وبشير عبيد في منزل هذا الأخير لأكثر من ست ساعات على بعد بضع مئات من الأمتار من المركز في فردان.. لم ينجح الحزب في فك الحصار عنهما.. وقد أدى ذلك إلى استشهادهما مع سيدة قريبة عبيد. ودارت على الأثر معركة عنيفة في المنطقة لم تسلم منها المنازل والمحال التجارية والسيارات، مع سقوط الكثيرين بين قتلى وجرحى.

ترافق ذلك مع احتدام الصراع بين المنقسمين ووصل الأمر إلى القتل والاغتيال.. وذهب ضحية ذلك كثيرون من أطيب وأخلص القوميين منهم محمد سليم وحبيب كيروز وهنيبعل عطية وإيلي الجقل.. إما على يد رفقائهم، أو باستغلال الخصام من خلال عمليات مخابراتية لزيادة الفرقة بين الفريقين..

كنت في تلك الفترة أقوم بنشاط ملحوظ في طرابلس، وحميت مع رفقاء لي بيوت الكثيرين من المسيحيين في طرابلس، وكنت

مسـتعداً للمـوت في كل مهمـة أنيطـت بي.. دون أن أحمـل بندقيـة أو مسـدس. كان برفقتـي شـباب شـجعان وطيبـون فهمـوا العقيـدة القوميـة بالعفويـة والبسـاطة اللتـين جعلتـا منهـم قادريـن عـلى فهـم الأمـور وتحليلهـا بالحـس السـليم والصفـاء الـذي افتقـر إليـه الكثـيرون مـن المتعلمـين.

مـع بدايـة العـام 1982، أحسسـت بمـا لا يمكـن تناسـيه للحظـة، وهـو أن هـذا الحـزب الـذي انتميـت إليـه، غـير الحـزب الـذي أعيـش في كنفـه.. برمـتُ الأمـور في كل الاتجاهـات، ووصلـت إلى مرحلـة مـن عـدم الثقـة بموقعـي الـذي أنـا فيـه.. خفـت مـن الـكلام، مـن التحليـل والتفسـير.. خفـت مـن ذكـر الأمـور كـما هـي.. كنـت مقتنعـاً بـأن الحـزب منقسـم بـين الموالـين لسـورية والموالـين لمنظمـة التحريـر.. قسـم مـع حافـظ الأسـد وقسـم مـع يـاسر عرفـات.. انعكـس ذلـك الـصراع بـين القمتـين، عـلى الـصراع بـين الفئتـين، مـع التغذيـة الدائمـة لمنـع أي إمكانيـة للإلتقـاء أو الدمـج.

كل ذلـك، دفعنـي إلى إعفـاء نفـسي مـن اسـتمرار عمـلي في الحـزب. وقـررت الاعتـكاف، مـع المراقبـة الدقيقـة لـكل مـا يجـري منـذ ذلـك الحـين إلى اليـوم. وخلصـت بنتيجـة مفادهـا أن مـن لا يملـك مالـه لا يملــك قــراره.. وأن دقـة أي مرحلـة تسـتدعي القـادة الكبـار أو تُوجدهـم.. وفي حـال فقـدِ هـؤلاء، أو أولئـك، يصـير الفعـل القومـي الكبـير في حالـة انفعـال.. والانفعـال لا يصنـع مصـيراً ولا وطنـاً.

توقّفــي عــن النشــاط الحــزبي والالتــزام المؤســسي لم يمنعــاني مــن البحـث والتفكـير بالمنهجيـة القوميـة الاجتماعيـة، وبالانتـاج البحثـي الـذي يصـب في هـذا المنحـى.. وأنـا أعـترف، بـكل بسـاطة وثقـة، بـأن مـا حصّلتـه مـن ثقافـة ومـا أنتجتـه مـن أبحـاث ودراسـات، ناشـئةٌ عــن تربيتــي القوميــة الاجتماعيــة، وعــن فهمــي العميــق لمبادئهــا وتوجهاتهـا.. مـع معرفتـي الأكيـدة والموثوقـة أن لا فكـر قـادر عـلى الحلـول محلهـا، حتـى وإن بقيـت عـلى حالهـا كـما أورثهـا لنـا أنطـون

سـعادة. وإذا جُـرّدت مـن تربيتـي هـذه، لـن يبقـى منـي إلا الجلـد والعظـم.

فصَلــتُ نفــسي عــن الحــزب، وانكفــأت عــن القيــام بــأي نشــاط لــه علاقــة بالحــزب، حتــى وإن كان نــدوة أو محــاضرة أو احتفــالاً. كان ذلـك انطلاقـاً مـن اعتبـاري أن الحـزب دخـل في لعبـة النظـام اللبنـاني؛ النظـام الـذي كان المحفـز لتأسـيس الحـزب والعمـل عـلى بعـث نهضـة قوميـة تعيـد للأمـة اعتبارهـا ووجودهـا في عـالم لا وجـود لغـير القـوي بالحـق فيـه.. وبعـث النهضـة لا يقـوم عـلى التحالـف أو مهادنـة أسـاطين السياسـة اللبنانيـة القائمـة عـلى الطائفيـة، المجبولـة بالفسـاد، والعاملـة عـلى تأبيـد النظـام.. تحالـف هـذا شـأنه، لا يوصـل إلى التغيـير حتـى ولـو في القليـل، بـل يسـاعد عـلى ترسـيخ أسسـه وتأبيـد ممارسـته بمـا يـودي بنـا إلى نتائـج مخالفـة للأسـس والمبـادئ التـي انطلقنـا منهـا، لأن فاقـد الـشيء لا يعطيـه، والـورود لا تنبـت مـن العوسـج.

عـلى أي حـال، انكفـائي عـن العمـل الحـزبي، لم يمنعنـي مـن المشـاركة في الشـأن العـام، والنشـاط في لقـاء جمَـعَ ثلـة مـن شـباب المدينـة والمناطـق، أطلقنـا عـلى أنفسـنا «اللقـاء الشـعبي». أسـس هـذا اللقـاء الإعلامـي محمـد مصطفـى علـوش وابنـه د. مصطفـى الجـراح الناجـح والنائـب لاحقـاً بعـد التحاقـه بتيـار المسـتقبل. وكان لولـب اللقـاء الـذي لا يـكل شـيخ معمّـم ومنفتـح وخبـير في بنـاء العلاقـات مصطفـى درويـش، طيّـب اللـه ثـراه.. وقـد التحـق باللقـاء شـيوعيون وقوميـون عـرب وسـوريون، وإسـلاميون ومسـتقلون.. تخـرج مـن هـذا اللقـاء ثلاثـة نـواب: هاشـم علـم الديـن الـذي غادرنـا باكـراً إثـر مـرض عضـال، ومصبـاح الأحـدب مفاجـأة اللقـاء، ومصطفـى علـوش.

كان يضـم اللقـاء شـخصيات سياسـية متمرسـة مـن طرابلـس ومـن خارجهـا، أذكـر منهـم، بالاضافـة إلى مـن سـبق: خلـدون نجـا، مصطفى عجـم، زهـير حكـم، طـلال عسـاف، فـاروق حـداد، طـارق الحلـوة.

وكان ينضم إلينا بين الحين والآخر: النائب محمد كبارة، د. محمد المرقباوي، أسعد المكاري من زغرتا، وجوزيف مخايل من عكار، وغيرهم ممن لم تحضرني أسماؤهم.

مما لا شك فيه أن الكثيرين من هؤلاء التحقوا باللقاء على أمل الدخول في نشاط سياسي يؤهّلهم لخوض معترك العمل السياسي في المدينة للوصول إلى مجلس النواب.. ولكن من المهم القول إن اللقاء ما كان ليصل بعد إلى التأثير في هذا التوجه ودعمه، لطراوة عوده أولاً، ولعدم تفكير الأغلبية فيه بركوب موجة العمل السياسي.. هنا، يمكن أن أكون قد أخطأت التقدير في حينه.. ولكن هذا ما تبدّى لي في تلك الأيام.. وإن خرقه تخرّج ثلاثة نواب منه، إثنان انتميا، من قبل، إلى تيار المستقبل، ومصباح الأحدب، مفاجأة الانتخابات كلها..

كان مصباح الأحدب الصامت الوحيد في كل الاجتماعات التي عقدها اللقاء، في أكثريتها، في منزل محمد علوش في الزهرية، أو منزل ابنه مصطفى في الميناء.. وكانت متعة اللقاء تلك الجَمعة التي يعقدها الشيخ مصطفى في منزله على ترويقة الفول.. كان فول الشيخ مصطفى أطيب فول ذقته في طرابلس.. ربما كان للجَمعة تأثير، ولكنه كان فولاً طيباً بشهادة الجميع، وجلّهم طرابلسيون يعرفون طعم الفول جيداً. كانت هذه الترويقة أسبوعية، وغالباً يوم الأحد. تجلّت فائدتها في شد عصب اللقاء، وعقد الصداقات الحميمة فيما بين أعضائه وقد نشأ عنها أضخم احتفال شعبي حصل في طرابلس، وبعد انقطاع طويل، بمناسبة يوم التضامن مع الجنوب والبقاع الغربي في آذار 1995. حضره جمع غفير ضاق به ملعب مدرسة السلام في التبانة على وسعه، وامتلأت أسطح البنايات وشرفاتها بالمشاركين.. وقد ذاع صيت اللقاء بعد هذا الاحتفال، وتزاحم الطامحون في خطب ودّه.

بعد سطوع نجم رفيق الحريري، وإصابة الشيخ مصطفى بمرض

عضال أقعده ومن ثم أودى به، خمدت حركة اللقاء وضاع أثره بعد حين.

أما النشاط الثاني، فكان تأسيس هيئة العمل القومي، بعد التحضير لها، واختيار مؤسسيها، أعلن عنها في مؤتمر صحافي النائب والوزير السابق حسن عز الدين، طيّب الله ثراه، في المركز الثقافي البلدي في طرابلس. وضمت الهيئة، بالاضافة إليّ، النائب السابق عبد الرحمن عبد الرحمن، عبدالله خالد، زهير حكم، سمير شركس، كمال مولود، خليل الشتوي، سليم مسعد، محمود شحادة، غازي الأدهمي وبطرس سكر.. توزّعت المهام، وبدأنا العمل على إيجاد تيار لا طائفي في الشمال يعمل على توحيد الجهود، لإيجاد مجتمع محلي لا طائفي يقوم على غرس القيم الوطنية والقومية- وشجب الطائفية والعمل الطائفي في السياسة وفي المسلك الاجتماعي في شكل عام..

كان الاجتماع الأسبوعي يحصل في مكتب النائب عبد الرحمن.. ويتم التداول في شتى الأمور المتعلقة بالمدينة، والطرق التي يمكن معالجتها، وإبداء الرأي في كل ما يحصل فيها وفي لبنان ككل.. مع صدور تصريح مفصّل يُنشر في الصحف المحلية، وبعض الصحف المركزية.. وعملنا على تنظيم مؤتمر يتناول مسألة المواطنة وكيفية تنمية الحس المدني، وقد جاءت ظروف معاكسة عطّلت المؤتمر، ومن ثم ساهمت في فرط عقد الهيئة وتلاشيها، دون أن يكون لها أي تأثير يذكر في المدينة.

أما في المجال الثقافي، فقد انتسبت إلى اتحاد الكتّاب اللبنانيين، وإلى الجمعية العربية لعلم الاجتماع، والمجلس الثقافي للبنان الشمالي.. كنت أمين شؤون الندوات والمؤتمرات في اتحاد الكتّاب لدورتين متتاليتين.. إلا أن الظروف لم تكن مؤاتية للقيام بنشاطات تذكر خارج إطار الاجتماعات الدورية التي كنت أحضرها قادماً من طرابلس، مع ملاحظة أن قاطني بيروت والجوار كانوا في

أغلبهـم لا يحـضرون. ولمـا رأيـت أن لا جـدوى مـن العمـل، تنحّيـت. وكذلـك الحـال بالنسـبة للجمعيـة.. أمـا المجلـس الثقـافي فقـد نشـطت فيـه إلى جانـب زمـلاء أعطـوا للعمـل الثقـافي الأهميـة اللازمـة، وقمنـا بنشـاطات عديـدة كان لهـا الصـدى الإيجـابي في المدينـة والجـوار، عـلى أيـام تـولّي رئاسـة المجلـس مـن قبـل نزيـه كبـارة، ومـن ثـم صفـوح منجـد.. ولا أزال ناشـطاً في هـذا المجلـس.. وكان أن انتميـت مـع د. عـلي لاغـا وآخريـن إلى الهيئـة التأسيسـية للمؤسسـة العاليـة للبحـث العلمـي، وأقمنـا مؤتمـراً حـول تنميـة الضنيـة عمليـاً لرفـع شـأنها تنمويـاً وثقافيـاً، خرجنـا منـه بكتـاب يوثّـق أعـمال المؤتمـر تحـت عنـوان «الضنيـة عـام 2025»، كان ذلـك في تشريـن الأول 2018.

لم يكـن كل ذلـك وليـد لحظاتـه، بـل سـبقَهُ تعـوّد عـلى العمـل في الشـأن العـام، يعـود إلى العـام 1968، بتأسـيس نـادي النهضـة الثقـافي الاجتماعـي في ضيعتـي مركبتـا.. وقـد كان لـه تأثـيره الفعـال في إيجـاد نهضـة ثقافيـة وتنمويـة فيهـا، مـن خـلال العمـل عـلى صـبّ الطرقـات والعبّـارات وتعليـم وتثقيـف التلاميـذ ومحـاولات محـو الأميـة، إلى أن وصلـت القريـة إلى صفـر أميّـة بعـد رحيـل كبـار السـن الذيـن لم يلتحقـوا لا بمدرسـة أبي ولا بالمدرسـة الرسـمية. ولا يـزال النـادي حتـى اليـوم يقـوم بالنشـاطات اللافتـة، ومنهـا إنشـاء المجاريـر ووصلهـا بمحطـة تكريـر عـلى الطريقـة الحديثـة، قبـل أن تحصـل في المدينـة وبمسـاعدة مبـاشرة مـن وكالـة التنميـة الأميركيـة والبعثـة البابويـة، بالاضافـة إلى العمـل عـلى إنشـاء تعاونيـة زراعيـة تعنـى بتصريـف الانتـاج الزراعـي، ومنـه زيـت الزيتـون عـلى الخصـوص.

مـن المهـم التأكيـد هنـا عـلى أن مركبتـا، ضيعتـي، تطـورت في شـكل ملفـت خـلال نصـف قـرن مـن الزمـن، ونهضـت مـن حـال الفقـر الشـديد والبيـوت الترابيـة في أكثريتهـا السـاحقة، وطرقهـا الملتويـة المليئـة بالحفـر والوحـول، ونقـص مقومـات الحيـاة الأساسـية مـن ماء، إلا عـين الضيعـة، والكهربـاء، والوظيفـة العامـة، والمواصلات؛ حتـى أن السـيارة كان مـن الصعـب أن تصـل إليهـا في أيـام الجفـاف، ومـن

المستحيل في أيام الشتاء بتحول الطريق إلى خنادق وتجاويف، قبل وصول الزفت إليها..

في الفترة التالية ومنذ السبعينيات، بدأت الأحوال بالتغير.. كان لدخول المدرسة إليها، ومن ثم الكهرباء والماء إلى كل بيت، المؤشّر الرئيس للتغيير.. دخلت القرية بقوة في الوظيفة العامة العسكرية، ومن ثم المدنية بما أنتجه التعليم. وبدأت الافادة من المهاجرين الذين توجهوا إلى أستراليا، على الخصوص، بما أرسلوه من أموال، ومن ثم عملوا على جلب غيرهم ممن هم بحاجة إلى عمل ولم يحظوا بفرصة في لبنان. وخفّت وتيرة الهجرة بعد الطلب المتزايد على الشباب للدخول في السلك العسكري، حتى ولو كان العمر دون المطلوب، وكان ذلك من حسن حظ الضيعة في انتمائها الديني نظراً لحاجة المعنيين في إيجاد نوع من التوازن في الانتماء الطائفي في الوظائف العسكرية. كل ذلك ساهم في نهضة اقتصادية كبرى ساهمت في تملّك الكثيرين لأراضيهم في الضيعة؛ وهي الأراضي التي كانت في الأساس ملكاً «لأفندية طرابلسيين»، من أيام العهد العثماني. هذا طبعاً بالاضافة إلى بناء المنازل الحديثة وامتلاك السيارات، والتنقل الدائم بين المسكن ومكان العمل.

كان تنازع السلطة في مركبتا يقوم على ثنائية العلمانية/ الدين.. وقد تمظهرت في شكلها العملي بين نادي النهضة العلماني في توجّهه، والمؤسسة الكنسية المتمثلة بكاهن الرعية وجمعية دينية تقوم بما تقتضيه المؤسسة الدينية من خدمات. وكان بناء المدرسة الجديد لحمة هذا النزاع وسداه. عمل النادي على تهيئة الظروف المناسبة للبدء بالمشروع، بالتعاون التام بين السلطتين، ووصل الأمر إلى تسجيل أرض المشروع باسم وقف الكنيسة بالتنسيق مع مطران الطائفة وشهادة اثنين من مسلمي المدينة، دون الرجوع إلى الأهالي.

كان ذلك بداية الخلاف الذي كاد أن يوصل الضيعة إلى التقاتل.

وبعد جهود كثيرة من أعضاء النادي، وأنا منهم، ومماطلة من رأس السلطة الكنسيّة الذي وقّع على صك الملكية باسم الوقف، والتأكيد من قبله أنه موافق على أي صيغة يتوافق عليها الأهالي.. وهو يدرك تماماً، كما نحن ندرك، أن من المستحيل التوافق بدون تدخّله. وكان أن بقي سبع عشرة سنة دون أن تطأ قدمه أرض القرية.. وعند التوافق على الصيغة المقترحة، شارك في قداس يوم أحد، ورحل، ثم عاد ظهيرة اليوم نفسه للمشاركة في مأدبة غداء أقيمت على شرفه.

كان كل مطلبنا وثيقة ممهورة بختم المطرانية وتوقيع المطران تحصر إيرادات المدرسة بعد تأجيرها للدولة في الضيعة دون سواها، لتنميتها وتنفيذ المشاريع العائدة لها. كانت الوثيقة من إعدادي بعد التدقيق في كل كلمة فيها أرسلناها إلى المطرانية. وقد انتدب المطران إثنين من مجلسه الاستشاري هما رفعت سابا وشفيق حيدر للبحث فيها.. وبعد نقاش طويل ومضنٍ حصلنا على هذه الوثيقة، واستؤنف العمل في المشروع.. وكان أن تم بناء المدرسة من خلال مشروع إعماري عام في لبنان.. واستأجرته وزارة التربية.

يروي إيجار المدرسة صندوق الوقف بمئات الملايين من الليرات سنوياً، وهو اليوم بعهدة كاهن البلدة، على أن يكون تحت إشراف مجلس الرعية، هذا في حال وجوده أو انعقاده.. ولم يعد للوثيقة أي تأثير..

كانت هذه المسألة موضوع رسالتي لدبلوم الدراسات المعمقة في علم الاجتماع السياسي تحت عنوان: «في السلطة المحلية». وكانت من أهم الرسائل في معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية.. بشهادة من ناقشوها من الأساتذة. وسيكون لها ذكرٌ في صفحات لاحقة.

16

الوظيفة العامة وإمكانيات الفساد

بعـد توزيـع البطاقـات التموينيـة، إلتحـق المراقبـون المعيّنـون في مصالـح الـوزارة في المحافظـات.. انتقـل عملنـا إلى مراقبـة الأسـعار وقمـع الغـش.. في بـيروت أولاً، ومـن ثـم انتقلنـا إلى المحافظـات. كان عملنـا بسـيطاً يتعلـق فقـط بإعـلان الأسـعار عـلى البضائـع المعروضـة، مـن الخضـار والفاكهـة إلى الثيـاب والأحذيـة، وفي شـكل ظاهـر..

يتعلـق الأمـر الأسـاسي في هـذا التوجـه، عـلى وضـع سـعر محـدد عـلى السـلعة المعروضـة في الشـكل الـذي يمنـع البائـع مـن التلاعـب في السـعر، صعـوداً أو هبوطـاً إلا في حـالات الأوكازيـون أو فرصـة التصفيـة المرخّصَـين. وعـلى المشـتري أن يختـار مـا يناسـبه في تسـوّقه. ومـع ذلـك كان مـن الصعـب عـلى التجـار أن يخضعـوا لهـذا القـرار. لذلـك كنـا ننظّـم محـاضر ضبـط للمخالفـين بعـد التنبيـه لأكـثر مـن مـرة. أمـا في حـالات الأوكازيـون، فـكان عـلى التاجـر أن يقـدم طلـب تصريـح للقيـام بذلـك.. وعـلى المراقبـين أن يقومـوا بتنظيـم محـضر جـرد بالسـلع التـي سـتباع بطريقـة الأوكازيـون.. سـعرها القديـم والسـعر المخفـض. وبعـد الموافقـة والبـدء في العمـل، تراقَـب السـلع المعروضـة للتأكـد مـن مطابقتهـا لمحتويـات الجـردة، وإلا يُعتـبر التاجـر مخالفـاً ويتعـرض للعقـاب، بتنظيـم محـضر ضبـط بحقّـه.

هـذا كان كل عملنـا، بالاضافـة إلى عمـل مَـن انتمـى إلى قسـم قمـع الغـش لمراقبـة الموازيـن والمكاييـل وتركيـب المـواد والتأكـد مـن مطابقتهـا للأوصـاف المعلنـة.. والاشراف عـلى توزيـع المـواد المدعومـة مـن الدولـة كالطحـين والسـكر.

تسـنّى لي أن أتعمـق في فهـم مـا يعنيـه دعـم الدولـة للطحـين وعلاقته

بالفساد والاثراء غير المشروع، إن كان في عملية استيراد الطحين واستلامه من المرفأ، أو تخزينه في المستودعات تحت إشراف الوزارة، ومن ثم توزيعه على الأفران..

في المرحلة الأولى، كان عليّ ان أستلم الطحين القادم من المرفأ في مستودع معتمد من قبل الوزارة في طرابلس.. وكان على زميلي زياد استلام الطحين من الباخرة، ونقلها إلى الشاحنات التي عليها إيصالها إلى المستودعات التي هي بعهدتي..

تنحصر مهمتي في استلام الكميات المسجلة في الوثائق التي يحملها سائقو الشاحنات، والتأكد من مطابقتها للكميات التي عليّ استلامها على أرض المستودع.. كما على زياد أن يستلم من الباخرة ما هو موثّق في بيانها ومطابقة سجلات الشاحنات معه.. ليتم العمل على أكمل وجه. هذا يعني أن ما هو موجود في الباخرة عليه أن يكون هو نفسه في المستودعات. العمل سهل، ولكن علينا أن نتابعه بدقة، لتوفر احتمالات التهريب، إما من الباخرة قبل الشاحنات، أو على الطريق من الشاحنات إلى المستودع، أو في المستودع ذاته بعد استلام الكمية..

وضعنا أنفسنا أمام مهمة صعبة ودقيقة، إذا كان علينا أن ننجز الأمر بالشفافية اللازمة والاهتمام المطلوب. وكان أن التقيت بزياد، وهو اليوم في دنيا الحق، واتفقنا على إنجاز الأمر كما يجب مهما كانت الظروف.

كانت الباخرة محملة بـ 75 ألف شوال سعة 50 كلغ، وكان عليّ أن أستلم في المستودعات الكمية نفسها، إلا ما يمكن أن يذهب هدراً، مثل التمزق أو الوقوع في البحر، على أن لا يزيد عن 5% في كل الظروف.. كان عمل زياد سهلاً ولكن يستلزم المراقبة المستمرة والسهر الدائم من الباخرة إلى الشاحنة، من خلال بلاطة الونش

التـي تتسـع لثمانيـة شـوالات. وقعـت واحـدة منهـا في البحـر.. نظّـم فيهـا محـضر وقعـه مـع قبطـان الباخـرة. وكان عـلي أن أسـتلم مـن الشـاحنة مـا عـلي مطابقتـه مع الوثيقـة التـي يحملهـا السـائق.. هنـا يمكـن للسـائق أن يتوقـف في أي مـكان عـلى الطريـق، ويسـمح بإنـزال شـوال أو أكـثر مـن كل شـحنة.. ويتنصّـل مـن تحمـل المسـؤولية.. ورَدَ هـذا الاحتـمال لـديّ، وقـررت أن أجعـل مـن كل سـائق خفـيراً.. وهـذا يعنـي أن عـلى السـائق التأكـد مـن عـدد حمولتـه، أثنـاء التحميـل ليسـلمني إيـاه وقـت التفريـغ الـذي عـلي أن أراقـب دقتـه ومطابقتـه للوثيقـة، وفي حـال النقصـان يتحمـل السـائق المسـؤولية.. لم ينقـص شيء، وكانـت الحصيلـة 43 شـوالاً عوريـاً (ممزقـاً) و8 سـقطت في البحـر مـن أصـل 75 ألـف شـوال.. لاحظـت، مـن بعـد، أن زميـلي مـن مـلاك الـوزارة تجنّـب التعاطـي معـي، وقاطعنـي دون أن أعـرف السـبب.. وعلمـت مـن أمـين سر المصلحـة أن زميـلي هـذا قـدّم تقريـراً عـن الباخـرة المفرغـة سـابقاً وبإشرافـه، نقصـت فيـه الحمولـة 25 طنـاً.. أي 500 شـوال. وكان تعليقـه، عـلى ذمـة مَـن أبلغنـي.. «شـو بـدو يعمـل شريـف مكـة عـلى ضهـري»؟ وهـذا يعنـي أن نجاحنـا في العمـل أثبـت فشـله، أو سرقتـه، لا فـرق. أمـضى زميـلي بقيـة خدمتـه مقاطعـاً لي، وبقـي كذلـك إلى أن أخـذ اللـه وديعتـه.

كان عـليّ بعـد ذلـك، أن أشرف عـلى تسـليم الطحـين إلى أصحـاب الأفـران كل صبـاح حسـب لائحـة معـدّة مـن رئاسـة المصلحـة.. وكانت تتغـير هـذه اللائحـة كل يـوم، إمـا في زيـادة حصـة هـذا، أو نقصـان حصـة ذاك، دون أي تدخـل منـي.. وكان عـليّ تنفيذهـا كـما وردت.. هنـا ظهـر المنبـع الثـاني للفسـاد. ذلـك أن الشـوال يبـاع بــ100 لـيرة لبنانيـة، ولكـن يُسـجل عـلى المسـتلم بــ 110 لـيرات. وكنـت أواجَـه بهـذا السـؤال، ولا أدري مـاذا عـلي أن أقـول.. في الجهـة المقابلـة كان صاحـب الفـرن يبالـغ في تقديـر حاجتـه مـن الطحـين، لأنـه يسـتلم بــ 110 لـيرات ويبيـع في السـوق السـوداء بــ 170، محققـاً بذلـك ربحـاً

خيالياً.. فإذا أستلم 10 شوالات يخبز منها ثلاثة أو أربعة، ويبيع الباقي، ما يعني أن بيع ستة شوالات تؤمّن له مردوداً يومياً يقدّر بـ360 ليرة في الوقت الذي كان راتبي لا يتعدى الـ850 ليرة في الشهر. وكانت النتيجة أن امتلك أصحاب الأفران ليس فقط منازلهم بل شاليهات أيضاً، في أرقى المنتجعات السياحية، بالإضافة إلى تحسين أوضاع أفرانهم، دون التخلص من جمهرة أعداد متزايدة من الزبائن في انتظار حصولهم على الخبز.

من جملة ما حصّلته من هذه التجربة المطلّة مباشرة على مزاريب الهدر، ما قاله لي صاحب المستودعات والمطاحن التي اعتمدتها الوزارة في الشمال، عندما تأبط يدي ودعاني إلى مشوار قصير في المستودعات، ليدلّني على مكان يقلقه في السقف حيث تتساقط نقاط من الماء. ولا شيء على الأرض يمكن أن يُتلف.

- أنظر يا أستاذ.. في المستودع احتمال تلف بعض الشوالات من الطحين، وعلى المدى البعيد يمكن أن يصل العدد إلى المئات.

- ولكن لا وجود للطحين هنا..

- سيصل عما قريب.. سيمتلئ المستودع في أيام..

- ما هو المطلوب؟؟

- أن ينقص العدد 500 شوال باعتبارها عورية سلفاً، وسنكون عند حسن الظن..

استفزّني طلبه، وأحسست بالمهانة، وتخيلت الموقع الذي من خلاله يتوجه إليّ بهذا الطلب. قلت:

- أنا أقرّ بقصر يدي وبراتبي الضئيل.. ولكن انظر إلى كل

ما تملك وحدّدها بذهنك.. إنها لا تساوي شيئاً في نظري..

أحسست بهذا الرد بأن كرامتي رُدّت إلي.. أفلتّ منه وانصرفت..

حكيت ما حصل معي إلى رئيس المصلحة وأنا عائد معه إلى مقرنا في السراي.. ابتسم بصمت.. ولم يقل كلمة واحدة.. أدركت أن الذي حدث كان بعلمه وبموافقته.. هنا، كانت مناسبة لسؤاله:

– علمت من البعض أن شوال الطحين يصل إلى الفرن بـ110 ليرات مع أن تسعيرته 100، هل هذا صحيح؟؟

– قل لي من أبلغك بذلك، وسأقطع عنه حصّته من الطحين..!

لم أحظ بغير هذه الإجابة. طالبته بعد ذلك بإعفائي من المهمة.. ففعل .

قمت بعملي على أفضل ما يمكن، ونفذت المهام التي كلّفت بها بدقة.. وكنت أنتهي منها في الثانية عشرة ظهراً، ما سمح لي بالتعليم في ثانوية طرابلس المجاورة لمركز عملي.. بعد الحصول على الموافقة بالتدريس خارج أوقات الدوام الرسمي.. أمّن ذلك لي دخلاً إضافياً كان أكثر من راتبي الشهري..

كان عدد المراقبين في طرابلس حوالي 45 مراقباً.. الحضور اليومي لا يتعدى الثمانية، وثمانية آخرون كانوا يحضرون مرة واحدة في الأسبوع، وآخرون كل أسبوعين، ويكتمل العدد في أول كل شهر لقبض الرواتب.. ومن ثم انتقل بعضهم إلى مراكز أخرى، ربما لأنها أكثر تسامحاً في مسألة الدوام والعمل.

أطرف ما كان يحصل، المحاضرة التي يلقيها علينا رئيس المصلحة ليحذّرنا من خطورة الغياب وأهمية الدوام، وليعبّر لنا عن نواياه

بمعاقبـة الغائبـين.. وكان هـو واحـداً منـا التحـق بمعهـد الإدارة وصـار رئيسـاً للمصلحـة.. وكنـت متعـوّداً عـلى مصارحتـه، إذ كان أحـد ثلاثتنا في توزيـع البطاقـة التموينيـة في كـسروان..

– يـا ريـس تقـول هـذا الـكلام للمداومـين، وهـو لا يَلزمهـم.. عليـك أن تقولـه للغائبـين ولـو بالمراسـلة، ومـن ثـم عقـاب المتخلفـين..

– إيه ماني عم شوفن لقللن.. بلغوهم هالكلام..

وكان أن ضجّ الحاضرون بالضحك..

عنـد حصـولي عـلى الدكتـوراه، أراد رئيـس المصلحـة الجديـد أن يكرمنـي. فخصّنـي بمهمـة واحـدة أقـوم بهـا عـلى مـدى أسـبوع، تتلخـص بجلـب الأسـعار مـن خمـس سـوبر ماركـت، حسـب لائحـة مطبوعـة مسـبقاً بأهـم المـواد والسـلع الاسـتهلاكية، للمقارنـة فيـما بينهـا وإظهـار تطـور الأسـعار وتغيرهـا أسـبوعياً، بغيـة وضعهـا في نـشرات للمسـتهلكين.. وكنـت أقـوم بهـذه المهمـة عـلى أكمـل وجـه.. هـذا مـع تعاقـدي للتدريـس في معهـد العلـوم الاجتماعيـة بـدءاً مـن شـباط 1992، وبقيـت عـلى هـذه الحـال إلى الأول مـن نيسـان 1996، يـوم تفرّغـي للتدريـس في الجامعـة اللبنانيـة.

لم يكـن قانـون التفـرغ صارمـاً في تلـك الأيـام. بقيـت مدرسـاً لصـف الفلسـفة قـي ثانويـة طرابلـس بعـد انتقالهـا إلى الكـورة في 1991، تحـت اسـم مركـز داود كـرم التربـوي، ومـن ثـم النـورث ليبانـون كولـدج في زغرتـا، وبعـد ذلـك معهـد الفريـر في كفرياشـيت.. كل ذلـك عـلى مـدى يـوم تعليمـي واحـد يبـدأ مـن الثامنـة وينتهـي في الثالثـة.. كنـت أنتقـل مـن مركـز إلى آخـر مـع حسـاب كل دقيقـة.. ومـن النادر مـا كنـت أتأخـر عـن الصـف لدقائـق معـدودات.

بقيـت عـلى هـذه الحـال مـا يقـارب مـن العـشر سـنوات.. ولم أبـق في

فرير كفرياشيت لأكثر من سنة واحدة..

وفي كانون الأول 2006 أجريت عملية جراحية أبقتني في المستشفى ليومين، فيها تبلّغت قرار رئيس الجامعة بتكليفي إدارة معهد العلوم الاجتماعية في طرابلس. وكانت هذه السنة، وبالصدفة، خالية من التعاقد مع أي مدرسة، إذ سلمت إبني شوقي مكاني في مركز كرم، وقدمت ساعتين بالمجان أسبوعياً لمدرسة النورث تعبيراً عن تقديري لرئيس الدير والمدرسة الأب أنطوان سليمان، طيّب الله ثراه.

وكان لإدارتي معهد العلوم الاجتماعية مسرى آخر في حياتي الوظيفية، أنهيت فيها خدماتي وعدت إلى منزلي سالماً لأتفرغ للبحث والكتابة.. كان ذلك في 2014. وقد أنتجت خلال خمس سنوات أربعة مؤلفات تحت عنوان مدوّنة الثقافة الشعبية العربية، بالاضافة إلى كتاب مشترك مع ابني شوقي، جغرافية السكان. هذا طبعاً بالاضافة إلى متابعة إشرافي على الأطاريح الجامعية، وكتابة المقالات التي نشرت في دوريات لبنانية وعربية، والنشاطات التي قمت بها من ضمن فعاليات المجلس الثقافي للبنان الشمالي والندوات والمؤتمرات التي شاركت في تنظيمها وفي تقديم الأوراق فيها. ولا أزال في صدد البحث والكتابة.. وسأبقى إلى أن أعجز عن القيام بذلك.

17

من بيت إلى بيت

كان عـليّ أن أقطـن في المدينـة بعـد الـزواج، لضيـق المنـزل وعـدم قدرتـه عـلى تحمـل أسرة جديـدة، أولاً؛ ولـضرورات العمـل، بعـد أن ثبـت مركـز عمـلي في سراي المدينـة، ثانيـاً. وكان مـن السـهل إيجـاد المنـزل الصغـير بإيجـاره الـذي بقـي عـلى قـدّ الحـال، وإن تجـاوز الـ 40% مـن الراتـب الشـهري.. وللـضرورات أحـكام.

عشـت في هـذا البيـت وأسرتي أصعـب أيـام حيـاتي وأمرّهـا تحـت إمرة حـرب أهليـة طالـت المدينـة بأسرهـا حـين تتوسـع، وتبقى ضمـن إطار مسـكني والمنطقـة المجـاورة في حـال حصرهـا.. وسـائل الحـرب كانـت عديـدة وأكثرهـا خطـراً ورعبـاً القذائـف الصاروخيـة التـي تسـقط عـلى المنـازل تدمّـر وتقتـل أو تجـرح.. ميـزة بيتنـا أنـه كان آمنـاً، عـلى صغـره، مُحاطـاً بأبنيـة عاليـة لا تصلـه القذائـف، وإن كان صـوت دويّهـا مخيفـاً. كان ملجـأ لنـا وللجـيران في لحظـات اشـتداد القصـف. ومـكان بقـاء الرفـاق في حـال تحلقنـا حـول عشـاء ومـشروب، إذا بـدأ التوتـر والقصـف.. وأكـثر مـا قدّمـه لنـا البيـت، بموقعـه، صداقـات مـع الجـيران نشـأت عـن هـذه المواجهـات الداميـة، ومـا زالـت حتـى اليـوم، رغـم تفـرّق هـؤلاء في داخـل المدينـة وفي أنحـاء متعـددة مـن العـالم. ولا أزال أذكـر، وكان لي مـن الأبنـاء شـوقي، أن سـقطت قذيفـة عـلى زاويـة المبنـى الـذي نقيـم فيـه، ونحـن نختبـئ في الردهـة الأكـثر أمانـاً، فـما كان مـن شـوقي، وهـو ابـن السـنتين، إلا أن قفـز مـن مـكان نومـه عـلى الصوفـا، وجـاء ممـدّداً في منتصـف الصالـون مـع بقائـه مسـتغرقاً في النـوم.. منظـر أرعبنـي وجعلنـي أهـمّ بمغـادرة المنـزل في منتصـف الليـل، لـولا تمنّـع زوجتـي. ومـا زال شـوقي حتـى اليـوم ينهـض جالسـاً في سريـره، عنـد حـدوث أي صـوت، حتـى ولـو مـرّت نملـة بقربـه.

كان حلمـي الملحّ في تلـك الفـترة العصيبـة والمخيفـة مـن تاريـخ المدينـة، وهـي بدايـة الثمانينيـات، الخـروج مـن منطقـة الاشـتباكات الصاروخيـة، إلى مـكان أكـثر أمانـاً، ولـو كلفنـي الأمـر الاقامـة خـارج المدينـة. حصـل ذلـك مرتـين بإلحـاح؛ الأولى أوجدتهـا المواجهـة الدمويـة بـين الفصائـل الفلسـطينية، وكان يقطـن بجوارنـا في المبنـى المقابـل أبـو عـمار في مركـز ماليـة فتـح. في تلـك الفـترة ولـد ابنـي وسـام وتركنـا المدينـة وأقمنـا عنـد زميـل لي في عـكار. بعـد ذلـك، صـارت منطقتنـا عسـكرية، تفتيـش في الدخـول والخـروج، منـع السـيارات مـن الدخـول إلى الشـارع، ولكـن.. والحـق يقـال، لم يُمـسّ أي بيـت في المنطقـة كلهـا، كان ذلـك في أواخـر 1983. والثانيـة، لحظـة انـدلاع الحـرب لاحتـلال المدينـة والقضـاء عـلى موجـة التطـرف فيهـا، كان ذلـك في 24 أيلـول 1985، اليـوم الـذي ولـدت فيـه ابنتـي زينـة في مستشـفى الـرازي في حلبـا، لاسـتحالة الوصـول إلى طرابلـس.

هـدأت الأمـور في المنطقـة، بعـد 1985، ولكـن لم يهـدأ بـالي، ولا نسـيت التفكـير في المغـادرة، بانتظـار الفرصـة المناسـبة.

في مسـاء صيفـي، أتـاني شـوقي بمجلـة ترويجيـة كانـت تـوزّع مجانـاً، يزيّـن صفحتَهـا الأولى إعـلانٌ لمـشروع سـكني بمواصفـات متطـورة، وبتسـهيلات شـبيهة بتلـك الموجـودة في المنتجعـات السـياحية، وقـال لي: «ليـك شـو حلـو»، وهـو كان مـدركاً بـأن مـا يقولـه مجـرد حلـم. إلا أن الموضـوع بقـي عالقـاً في ذهنـي، إلى أن طرحتـه مـرة بالصدفـة أمـام صديقـي محمـد المـصري الـذي فاجـأني بأنـه يعـرف صاحـب المـشروع معرفـة وثيقـة، وبأنـه سـيتكفّل شـخصياً بالموضـوع. وكان أن وقّعـت عـلى عقـد بـشروط ميـسّرة بشـفاعة صديقـي وكفالتـه. كان عـليّ أن أدفـع مقدّمـاً مبلغـاً ليـس بحـوزتي كامـلاً، ولكـن مـن السـهل تدبّـره.. عـرف الجميـع بقصـة العقـد، ولم يسـألني أحـد عـما هـو متوفـر لـدي، ومـا إذا كنـت بحاجـة لإكـمال المبلـغ.. مجـرد السـؤال يعنـي إمكانيـة الطلـب.. لا هـم سـألوا ولا أنـا طلبـت. عرفـت زوجتـي بحالتـي في الضيعـة وبـين أهـلي، ولم تقـل شـيئاً. في المسـاء، بعـد عودتنـا، وضعـت

بـين يـدي علبـة مجوهراتهـا، قائلـة تـصرّف.. هـذا العقـد مـن أبي أحـب أن يبقـى ذكـرى منـه، ولكـن إذا احتـاج الأمـر بِعـه. لم أتطلّـع إليهـا، ولا هـي انتظـرت التطلـع.. تركتنـي لتحـضّر القهـوة، عـلى أمـل هـدوء الخواطـر.

بِعـتُ وأبقيـت عـلى العقـد، واقـترب المبلـغ مـن آخـره.. بقـي سـتة آلاف. وفي إحـدى زيـاراتي اليوميـة إلى متجـر صديـق العمـر جوزيـف (الأرمنـي)، وهـو عـلى معرفـة تامـة بإجـراءات التحضـير للـشراء، سـألني:

– وقّعت العقد؟ دفعت الرعبون؟؟

– لم يكتمل بعد..

– شو الناقص؟؟

– ستة آلاف..

أخـرج دفـتر الشـيكات مـن درج مكتبـه وحـرّر شـيكاً بسـتة آلاف. وقـال:

– إذهـب الآن.. وقّـع العقـد وآتنـي بالمفتـاح حـال اسـتلام الشـقة. وانـسَ أني أعطيتـك مـالاً، إلى حـين تنتهـي مـن كل ديونـك، فتدفـع لي عـلى راحتـك..!

في تلـك اللحظـة أحسسـت أني امتلكـت منـزلي الخـاص، وإن كان القسـط الشـهري مُتعبـاً.. تملّكنـي شـعور غريـب، وكأن مصـيري كلـه كان متعلقـاً بإنجـاز هـذا الفعـل. وحفـر فضـلُ جوزيـف في ذاكـرتي دَينـاً لـن أنسـاه، ولـو عوّضتـه أضعافـاً مضاعفـة.

بعـد أقـل مـن سـنة اسـتلمت مفتـاح المنـزل.. و.. إلى جوزيـف. أعطيتـه لـه..

– ممنوع تفوت عالشقة إلا عندما أسلّمك إياها بنفسي..

كنـا قبـل هـذه الفـترة ننتقـي سـوية شـكل المفروشـات ونوعيتهـا وألوانهـا دون أن أدفـع قرشـاً واحـداً. وفي فـترة أقـل مـن شـهر، هاتفني جوزيـف لمعاينـة المنـزل.. فـإذا بـه عـلى أجمـل وجـه وأحـدث طـراز.. الصالـون.. غـرف النـوم، الخزائـن.. المطبـخ.. لم تنقـص إلا غرفـة الجلـوس التـي علينـا أن ننقلهـا مـن بيتنـا القديـم.. وكثـيراً مـا كنـت أردد ممازحـاً أمـام أصحـابي حـول بيتنـا الجديـد، أن كل شيء فيـه جديـد إلا الزوجـة والأولاد وغرفـة الجلـوس، وشيء آخـر لـن أفصـح عنـه..

كان منـزلاً رائعـاً في موقعـه المطـل عـلى البحـر والمفتـوح عـلى كل الجهـات.. سِـعته، وتقسـيمه، وملحقاتـه كمجمّـع حديـث يضـم الحديقـة الشاسـعة والمسـبح والملعـب الريـاضي مـع البوابـة الرئيسـة والحاجـب المسـؤول عـن المـشروع.. فـرقٌ شاسـع بـين مـا كنـا عليـه، ومـا صرنـا فيـه، سـعادة مضيئـة في وجـوه الأبنـاء ظهـرت أكـثر مـما ظهـرت عـلى وجهـي ووجـه زوجتـي، وخصوصـاً عندمـا يخرجـون مـن المسـبح بأجسـامهم المبللـة وضحكاتهـم الصاخبـة رغـم صيـاح الوالـدة وانزعاجهـا مـن البلـل القـادم معهـم، والعـودة إلى العمـل مـن جديـد. كان ذلـك بـدءاً مـن العـام 1996. في تلـك اللحظـات شـعرت بسـعادة الاكتفـاء.

بقـي المـشروع السـكني عـلى أفضـل حـال مـدة خمـس سـنوات، ومـن ثـم بـدأ بالتراجـع التدريجـي للتقـادم والفـوضى وبعـض الخلل الناشـئ عـن الدلـف مـن سـقف الحديقـة وتخلّـف المشـاركين عـن الإيفـاء بمسـتلزمات الملكيـة المشـتركة.. ثمـاني سـنوات.. أحسسـت بعدهـا بـأن المنـزل لم يعـد مناسـباً لنـا، إن كان بالنسـبة لوسعه، وأبنـائي صـاروا في الجامعـات، أو بالنسـبة لموقعـه وحالتـه العموميـة. بقيـت عـلى هـذه الحـال إلى أن أخـبرني شـوقي، بـأن ثمـة منـزلاً قيـد الانشـاء في منطقـة الفلـل في السـامرية، وهـو معـروض للبيـع. كان ذلـك ظهـر نهـار

صيفـي. توجهنـا إلى المنطقـة، بعـد أن قلـت لنفـسي، لا بـأس.. لـنرَ.. في كل حـال كانـت فكـرة تغيـير المنـزل واردة، ولكـن بـدون اسـتعجال.. إلتقينـا صديقـي جـان عنـد المبنـى الملاصـق لمـكان سـكنه.

عاينــت المــكان، فـإذا هــو غــير مناســب ويلزمــه عمــل كثــير، مــع أن مغرياتــه متعــددة، ولكنهـا لا تناسـبي.. شـكرته لأعـود أدراجـي.. سـمعته يقـول:

– طيب تعا شوف هالفيلا، معروضة للبيع..

مشيت معه وإذا ببناء ضخم من ثلاث طبقات أمامنا..

– يا جان.. أنا هلأ فيني اشتري بناية بتلات طبقات؟؟

– طيــب إنــت شــو رح تخــسر؟؟ شــوف.. والمفتــاح مــع أبــو ســحر منفــوت نشــوفها..

أتى بالمفتـاح، وجـاء معـه أبـو سـحر ودخلنـا المبنـى، فـإذا نحـن في فسـحة واسـعة جـداً، في صدرهـا سـلّم يـؤدي إلى الأعـلى، وفي الخلـف غرفتـان ومطبـخ وحمامـان وغرفـة واسـعة جـداً تبيـت فيهـا السـيارة، هـذا بالاضافـة إلى حديقـة مزروعـة بمختلـف الأشـجار المثمـرة مـع بـئر مـاء. صعدنـا إلى الأعـلى، طابقـان، كل منهـما منـزل مكتمـل العنـاصر وشرفـات وحمامـات فيهـا مبالغـة في المسـاحات. فيـلا في ثـلاث طبقات مفتوحـة تريبلكـس.. لا جـدران تفصـل السـلّم عـن صالـون كل طبقـة.

فيلا ممتازة.. ولكن هيهات..

انتقلنا إلى منزل أبو سحر المقابل لنعرف المزيد عن أحوال الفيلا..

– يطلـب صاحبهـا 400 ألـف وهـو في أسـتراليا.. وعرضهـا للبيـع منــذ ســنة، ولــداه لا ينويــان الاقامــة في لبنــان. بناهــا لــه ولهــما وليســت بنــاء للتجــارة. ويمكــن تنزيــل الســعر إذا نويتــم الــشراء..

قال أبو سحر، الجار الطيب، هذا الكلام والتفت إلي.

- ممكن مقابلة صاحبها..؟
- هو في أستراليا.. على كل حال لنجرّب، ربما هو هنا..

هاتفه وإذا به يردّ.. طلب منه الحضور للبحث في بيع الفيلا..

- نصف ساعة ويكون هنا.

في أقل من نصف ساعة كان عمر قاسم بيننا.. وجرى الاتفاق على الشراء في مدة لا تتجاوز الخمس دقائق..

- آخر كلام يا أبو سحر 350 ألف. و330 ماشي الحال كرمالك.

يا الله.. سأمتلك المنزل.. المبلغ قريب.

وافقت على الشراء واتفقنا على كيفية الدفع مع القرض الذي سأحصل عليه من المصرف.

طلبت الافادة العقارية مع وعد بالبيع لاستكمال الاجراءات العقارية. وعدني بإحضارهما في الغد..

قبل الغد عرفت أن العقار لا يزال رسمياً أرضاً سليخاً ولا بناء عليه. راعني الخبر واتصلت بالمالك فوعدني بتسوية الأمر. خفت أن تلغى الصفقة لأن لا شيء مكتوباً بيننا. أبلغته بوجوب كتابة شيء ودفع رعبون الشراء.. قال ما أخجلني في لهجة طرابلسية تعود إلى نصف قرن:

- نحنا يا عمو أصلنا ولاد ضيعة وأصحاب قول.. نحنا ما منربط بأوراق ومصاري.. نحنا منربط بقولنا.. لو إجاني مليون دولار، أنا بعتك..

خرجت الكلمة الأخيرة باللهجة الطرابلسية المحبّبة.

بعد طول انتظار ومحطات أوحت لي بأن المنزل من نصيبي في

أكثر من صدفة، هاتفني في 15 كانون الأول 2009، وهو تاريخ لا يمكن أن أنساه، لأنه مرتبط مباشرة بنجاحي في شراء المنزل.. كنت مع الثلة المعتادة حول طاولة في البان دور، المكان المعتاد للقائنا عصر كل يوم.. وإذا بهاتفي يدق:

– أنا عمر قاسم، أنهيت المعاملة وسند الملكية في يدي.. علينا أن ننهي الأمر بسرعة، ولم يبق لي هنا سوى أسبوعين..

– ولو يا حاج..؟ لا أستطيع فعل شيء في أسبوعين.. الموافقة على معاملة القرض في المصرف تحتاج إلى شهر على الأقل، قبل دفع المبلغ.

– أولادي يلحّون علي، وأنا مريض بالسكري وعمري كبير لا أستطيع البقاء. أريد ان أنتهي بسرعة، وإذا لم تقدر لا نصيب لي في البيع..

استفزّني كلامه، وأحسست بأن هذه الصفقة المربحة لي، ونحن على أعتاب غلاء سريع ومتوحش للمنازل والعقارات، ستختفي بسبب الفرق في أيام معدودة.. أحسست بفقدان الأمل، وقلت له بأعصاب مشدودة:

– يا حاج.. أنا ماني قاعد بالشارع.. عندي بيتي.. وإذا ما إلي نصيب ببيتك بيعوّض الله.. وأقفلت الخط بغضب ظاهر.

كان هذا الحديث المتوتر على مسمع الشباب المتحلّقين حولي.. سألني عدنان وهو أوثقهم علاقةً معي:

– شو صاير.. شو القصة؟؟

– سيسافر الرجل ولن ينتظر.. معي 15 يوماً لإنهاء الصفقة وإلا.. راحت..

– لأ ما رح تروح.. شو ناقصك؟؟

– ناقصنـي كتـير ولا يحـلّ الأمـر سـوى القـرض.. والقـرض بعيـد.. يلزمنـي 75 ألـف دولار..

– ولا يهمّك، بكرا بيكونوا معك على الساعة عشرة.

لم أصدّق مـا سـمعت، وتخيّلـت في تلـك اللحظـة، عـما يمكـن أن يحصـل لـو لم يجـرِ هـذا الحـوار أمـام السـامعين. مـاذا كان عـليّ أن أفعـل..؟ ومـن أيـن سـآتي بالمبلغ لـو كنـت وحـدي في الحديـث معـه؟ ردّني إلى واقعـي فرنسـوا حـين قـال، موجّهـاً الـكلام إلى عدنـان:

– عليك بالخمسين وعليّ بالباقي..

لم أسـتوعب مـا سـمعت، ولم أسـتطع الـرد بكلمـة واحـدة، فتلقفـت عينـاي الـرد غصبـاً عنـي بتجميـع الدمـوع فيهـما ومـن ثـم هبوطهـا نقطـة.. نقطـة عـلى خـديّ وصـدري، مـا اسـتجرّ عاطفـة المتحلقـين حـولي، ودمـوع بعضهـم. أفصّـل هـذا الـكلام لأبـين إلى أي مـدى يمكـن أن يتأثـر الواحـد منـا أمـام فعـل إنسـاني كهـذا، مـن المسـتحيل أن ينتظـره، لذلـك ينـزل عليـه بـرداً وسـلاماً وكأنـه اسـتجابة لدعـاء في ليلـة القـدر. وأنـا عـلى يقـين أن لا يحـسّ بهـذا الشـعور إلا مـن أصابـه بمثـل مـا أصابنـي.

مـا قدمـه لي كل مـن جوزيـف وعدنـان وفرنسـوا، أكـبر بكثـير مـما يحيـط بـه شـكري. وسـيبقى ذلـك دَينـاً في عنقـي مـا حييـت..

وكان أن تمّـت الصفقـة بنجـاح بإحضـار مـا وعـد بـه عدنـان وفرنسـوا، وأضيـف إليـه بعـضٌ مـما جمعـه شـوقي بعـد خمـس سـنوات مـن التدريـس.. وطلبـت مـن الكاتـب العـدل أن يسـجّل المنـزل باسـم عدنـان ليحوّلـه، مـن بعـد، إلى اسـم ابنـي شـوقي، لحظـة الحصـول عـلى القـرض مـن المـصرف ليصـير ملـكاً لـه، لأن المـصرف لا يقـدم قرضـاً إلى موظـف مثـلي عـلى مشـارف التقاعـد. ومـن حسـن الحـظ أن القـرض كان بالليـرة اللبنانيـة.

في مـدى شـهر حصلنـا عـلى القـرض، وطلبـت مـن مديـر المـصرف،

وهـو صديـق مشـترك، أن يحسـب مقـدار الفائـدة التـي خسرهـا عدنـان، نتيجـة إقـراضي المبلـغ عـلى الشـكل الـذي يبـين بـأن المبلـغ لم يخـرج مـن حسـابه.

– لكـن عدنـان لـن يـرضى، وأنـا لا أسـتطيع أن أتحمّـل خصومتـه..

– لا عليك.. كم حساب الفائدة التي خسرها من رصيده؟؟

بعد إجراء عملية حسابية بسيطة.. قال:

– أربع مئة وخمسون ألف ليرة.

– خـذ.. ضعهـا في حسـابه إذا أمـرت.. وإذا احتـجّ، أتـرك الأمـر لي..

في الليلـة نفسـها، حـضر عدنـان إلى مكاننـا المعتـاد، ورأسـه يسـبق جسـمه في وجهـه المحمـرّ وعينيـه الجامدتـين، وحـال وصولـه، قـال:

– مين قلّك انو أنا بديّن بالفايدة؟؟

قمت بجهد كبير لاسترضائه، ورضي على مضض.

لم أقـدر عـلى تجـاوز هـذه المبـادرة دون إظهـار قيمتهـا الأخلاقيـة والانسـانية، قبـل قيمتهـا الماديـة، أمـام أصدقـائي وأصدقـاء عدنـان. دعـوت الجميـع إلى مأدبـة عشـاء في الشـاطر حسـن، المطعـم المرمـوق الرابـض عـلى مشـارف المدينـة.. ثلاثـة وعـشرون شـخصاً بالاضافـة إليّ وإلى زوجتـي وشـوقي.. كان لا بـد مـن اسـتهلالها بروايـة الحكايـة التـي حصلـت معـي بالمشـاركة مـع عدنـان وفرنسـوا.. تقطّعـت كلمتـي بغصـات متتاليـة كادت تمنعنـي مـن اسـتكمال حديثـي مـع تجمّـع مثقـل للدمـوع في مقلتـيّ.. لم أسـتطع إيقافهـا إلا بالجهـد أمـام الحاضريـن.. وانشـغالي بحبـس دموعـي، لم يمنعنـي مـن لحـظ الدمـوع في عيـون الكثيريـن حـولي.

أخلُص من هذا الكلام لأقول، إن الفعل الانساني الراقي، مهما كانت قيمته، له التأثير الكبير، ليس فقط باعتباره فعلاً مادياً، ولا باعتباره أنقاذاً من مأزق معقّد، بل أيضاً، وقبل كل شيء، باعتباره فعلاً إنسانياً ناشئاً عن صديق صدوق. هنا تكمن قيمة الصداقة.. الصداقة التي لا تستطيع أن تتخلصَ منها، مهما فعلت، هذا إذا أردتَ التخلص.

إنتقلنا إلى منزلنا الجديد بعد إجراء التعديلات عليه، لشوقي منزل يعيش فيه مع أسرته، مع طلعات ونزلات متعددة مع الحفيد الصغير، ومثله لوسام لا نراه إلا في أوقات الأكل.. وزينة معنا حاضرة لتلبية الطلبات..

ما تميز به منزلنا عما سبقه، جنينته الواسعة والغنية باهتمام الزوجة المحبّة، ورعايتها، باعتبارها جنّتها الصغيرة.. تزرع وتهتم وتطعمنا كل ما يخطر في البال من الخضار بالاضافة إلى ما فيها من الفواكه.

جديد المنزل، حصول شوقي على الدكتوراه في كنفه، وانتماؤه إلى معهد العلوم الاجتماعية ليرث أباه في مقعد استحقّه عن جدارة، وعلى غير عادة الورثة الذين نعرفهم، وزواجه من فرنسواز، وتقديم أغلى هدية يمكن أن يحظى بها إنسان، حفيدي عاطف الثاني الذي ملأ قلبي بنوع جديد من الحب لم أعرفه سابقاً. كذلك ما حظي به وسام في وضعه الوظيفي كمدرب في الجامعة اللبنانية، واستقرار إبنتي زينة كأستاذة للرياضيات في ثانوية البداوي، واستراحتها التي طالت للتسجيل، من بعد، لإعداد أطروحتها في الرياضيات بعد حصولها على دبلوم الدراسات المعمقة في اختصاصها من كلية التربية في الجامعة اللبنانية..

إكتملت أسرتي على هذا الأساس، الوجودي ومن ثم العلمي والعملي، ولم تكتمل بعد على صعيد الأحفاد.. أرجو أن يكونوا كثيرين.. ولكن الرجاء وحده لا يكفي.

18
الدراسات العليا

لم أخطط التخطيط الواعي لدراساتي الجامعية العليا.. بل إنطلاقاً من استراتيجيتي العامة في رسم مستقبلي، من اللحظة التي أنا فيها.. أنظر إلى الغد وكأنه نهاية العالم، وفي إطلالة كل غد يتجدّد النظر إلى الغد الذي يليه. هكذا سارت مجريات حياتي منذ أن قُدّرَ لي دخول المدرسة التي أتت إلي، بدل ذهابي إليها، وأنا في السابعة.. مروراً بالتعليم بعد الثانوية العامة، والوظيفة المتقدمة بعد حصولي على الاجازة الجامعية، وصولاً إلى الدكتوراه بعد حصولي على الدبلوم، وانتمائي إلى سلك التعليم الجامعي.

لم يكن الوصول إلى بيروت متيسّراً إبان الحرب الأهلية وتقطيع أوصال المناطق في نهاية السبعينيات.. التسجيل في الدبلوم، ومن ثم الحضور الإلزامي عرقلا استمراري في التحصيل الأكاديمي.. وكان من جميل الصدف وأحسنها أن التقيت ببعض الأصدقاء من ضمن ثلة انتميت إليها، كانوا على معرفة وثيقة بأستاذ من المعهد، كان معروفاً بنشاطه السياسي ضمن اللجان الأهلية والأحياء، بعد ملله من العمل الحزبي التقليدي..

كان وضاح شرارة معروفاً بصرامته الأكاديمية، وحزمه في التعاطي مع الطلاب، وقساوته في النقد على كل صعيد، ما أكسبه خصومة عامة من قبل أكثرية المحتكّين به، أساتذة كانوا أو طلاباً أو موظفين. وكان أن اقترح أحدهم علي أن أنتمي إلى صفه في الدبلوم، على شرط أن أكون على قدّ الحال. تمنيت ذلك بعمق، ورجوته أن يبحث في شأني معه، بعد عرض المعطيات عليه، وخصوصاً مسألة الدوام..

هاتفنـي بسـام مـن بـيروت، وأبلغنـي موافقـة د. وضـاح، عـلى أن أحـضّر تصميـماً عامـاً بالموضـوع الـذي أقترحـه وأعرضـه عليـه.. إذا وافـق، يمكـن أن أنتمـي إلى صفـه.. وحـدّد لي موعـداً لمقابلتـه في معهد الانمـاء العـربي، الرملـة البيضـاء، السـاعة الحاديـة عـشرة مـن يـوم الجمعـة، مـع التصميـم المقـترح.... وكان الموعـد بعـد خمسـة أيـام مـن اتصالـه بي.

في الموعـد المحـدّد، وبعـد أن كلفتنـي طريـق الأرز عيناتـا إحـدى عشرة سـاعة في طقـس عاصـف ومثلـج، قبـل يـوم مـن المقابلـة، ومبيتـي في بـيروت، وصلـت إلى معهـد الانمـاء العـربي، بعـد جهـد، ودخلـت إلى مكتـب أرشـدتني إليـه موظفـة الاسـتقبال.. كان فيـه إثنـان.. لا أعـرف أيـاً منهـما..

- الدكتور وضاح شرارة؟

إلتفت أحدهما إلي، وقال؟

- نعم؟؟
- أنا عاطف عطيه..
- أهلاً.. أهلاً.

وقف ومد يده إلي، فصافحته..

- حضّرت ما طلبته منك؟
- نعم.. هذا هو.. وأعطيته ما كتبت..
- تفضل اجلس..

جلسـت، وبقـي هـو واقفـاً يتأمـل الأوراق بـين يديـه.. طالـت الوقفـة، وطـال انتظـاري.. وقفـت..

- خليك قاعد.. قال ولا تزال عيناه على الأوراق ويقلّبها..

كنت في وضع أصعب من امتحان قدمته، أو مقابلة واجهتها.. يقرأ ووجهه لوح زجاج.. لا أعرف ما يضمر، أو ما يحضّر لمواجهتي بناء على ما كتبت.. دقائق حسبتها ساعات.. ما عدت قادراً على التطلع إلى وجهه، والشخص الآخر مشغول بالكتابة.. أحسست أنه أنزل الأوراق من مستوى وجهه، وتدلّت يده.. تطلّعت إليه.. تأملني جيداً، وقال:

- معك مصاري؟؟ وبطاقة الهوية معك؟؟ وطابع أميري؟؟
- معي.. بس طابع ما معي..
- عطيني رسم التسجيل وبطاقة الهوية، والطابع أنا بدبّره، ورح سجّلك يوم الاثنين.. والهوية ببعتلك ياها مع بسام.

أعطيته بطاقة الهوية و250 ليرة رسم التسجيل.. في تلك اللحظة التفت إلى الشخص المشغول بالكتابة وقال له:

- هيدا عاطف عطيه ويبدو أنه طالب بيعرف.. صافحته وقدّم نفسه: أحمد بيضون..

أصبح د. أحمد، من بعد، صديقاً لي، وصرت زميلاً له في المعهد، وهو من ألمع أساتذته وأكثرهم إنتاجاً، عُرف باسمه الثلاثي أحمد عبد اللطيف بيضون، تمييزاً عن أستاذ آخر يحمل الاسم نفسه، والكنية أيضاً.

خرجت من المكتب والفرحة تلتهمني، وانزاح شعور الخوف من قساوة الأستاذ ولؤمه، وأنا لم أجد إلا كل مودّة واحترام، وإن كانا مجبولين بصرامة غير معهودة. وبدأت العمل يحدوني هاجس الفشل، وتحفزني إرادة النجاح، والخوف مما سأنتجه في رسالتي، وردة الفعل عليه، وعليّ أيضاً.. وقد لمست ذلك في تعامله مع أحد الطلاب في المرات القليلة التي استطعت الحضور إلى المعهد.

كان في الصف عشرة طلاب، لا أعرف منهم أحداً، ولا أحد منهم

يعرفنــي.. وكان قـد طلـب مـن أحدهـم، عرفـت بعـد ذلـك أنـه ضابـط في الجيـش اللبنـاني وملقـب بالسـلطان، تحضـير ورقـة في مفهـوم السـلطة وتطـوره، مـن ضمـن أبحـاث يعقدهـا الطـلاب في مـادة علـم الاجتـماع السـياسي التطبيقـي.. قـدم السـلطان ورقـة مـن ثـلاث صفحـات، وتوقـف.. ونظـر إلى الأسـتاذ، ليقـدّر ردة فعلـه قبـل إبـداء الـرأي.. قـال الأسـتاذ:

- شو يا سلطان؟؟ هيدي ورقتك؟
- نعم دكتور..
- حاضر شي مرة سباق خيل يا سلطان؟؟
- نعم يا أستاذ..
- قبـل السـباق بيحـضّروا الخيـل للسـبق بـشي أسـمو تحمايـة.. بتعـرف شـو يعنـي تحمايـة؟؟

هنا توقفت أنفاسنا بانتظار الآتي.. ولم يجب سلطان..

- التحمايـة يـا سـلطان يعنـي بيركّضـوا الخيـل لتعـرق ويلـين جسـمها، حتـى تصـير مسـتعدة للسـبق.. وأنـت هيـك هـلأ.. إنـت عـم تتحمّـى.. يـا سـلطان.. وإسـا بكـير عليـك الكتابـة..

يـا اللّـه.. اصفـرت وجوهنـا قبـل أن يصفـرّ وجه السـلطان.. أي سـلطان سـيبقى سـلطاناً بعـد هـذا الـكلام؟؟ كانـت آخـر جلسـة حضرتهـا، ولم أعـرف مـا حـلّ بالسـلطان. مـا أعرفـه أن لـو حـل بي مـا حـلّ بـه، لأوقفـت دراسـتي في تلـك اللحظـة، وتخلّيـت عـن شـهادة الدبلـوم، وعـن كل مـا سـيأتي بعدهـا.

اتفقنـا في ذلـك اليـوم أن أرسـل مـا أكتـب مـع الصحافيـة في جريـدة السـفير كاتيـا سرور الطرابلسـية، بنـاء عـلى أشـارة مـن بسـام، لأنهـا عـلى معرفـة وثيقـة بوضـاح، وهـو دائـم الـتردد عـلى جريـدة السـفير.. أشرت عليـه بذلـك فرحّـب بالفكـرة..

كان موضوعــي عــن اشــتغال الســلطة عمليــاً في ضيعتــي. وكنــت كلــما كتبــت فصــلاً أرســله مــع كاتيــا، وتــردّ لي الملاحظــات عليــه في الأســبوع التــالي.. كانــت الملاحظــات بأكثريتهــا تــدور حــول التوســيع في هــذه النقطــة، أو مــا يمكــن أن توحيــه هــذه الفكــرة للتوســيع فيهــا.. ملاحظــة واحــدة أدت إلى تمزيــق الورقــة مــن شــدة تحويطهــا بالقلــم مــع عبــارة كيــف يمكنــك تجزيــر هــذه الفكــرة؟؟ فعــلاً أدى التأمــل في هــذه الفكــرة وتوســيعها وربطهــا بمســبباتها مــن أهــم مــا جــاءت بــه هــذه الرســالة. في مرحلــة مــن المراســلات، أدى تــأزم الأوضــاع إلى عــدم قــدرتي عــلى التواصــل لمــدة شــهرين مــع الأســتاذ.. ســألت كاتيــا عــن ســبب عــدم رد د. وضــاح عــلى مــا يقــارب الثمانــين صفحــة مــن البحــث في ثلاثــة فصــول.. أكــدت لي أن الأوراق وصلــت إلى الأســتاذ عــن طريــق حســن داوود الــروائي العامــل في الصفحــة الثقافيــة لجريــدة الســفير.. في الأســبوع التــالي علمــت أن الأوراق لم تصــل إلى الأســتاذ.. حملــت النســخة الثانيــة الكربونيّــة وتوجهــت إلى بــيروت بالطريقــة المعتــادة.. وإلى جريــدة الســفير مبــاشرة لمعرفــة مــا حصــل.. لم يذكــر حســن داوود شــيئاً عــن الأوراق، ولا هــي بحوزتــه.. رجوتــه أن يفتــش جيــداً بعــد أن أكّــدت لــه كاتيــا بأنهــا ســلّمته إياهــا.. بعــد جهــد حظــي بــالأوراق، وبعنــاق شــديد منــي.. توجهــت بهــا إلى مكتبــة الجامعــة الاميركيــة، مقــر وضــاح النهــاري. وســلّمته مــا بيــدي، وخــفّ حنقــه عــلي بعــد أن عــرف مــا حصــل..

لم أحــظ بمقابلــة وضــاح شرارة أكــثر مــن أربــع مــرات، والخامســة عشــية مناقشــة الرســالة.. كان طيلــة هــذه اللقــاءات مثــال الأســتاذ الطيــب والهــادئ والمضيــاف.. لم يســمح لي بدفــع أي فاتورة في اســتراحة الجامعــة الأميركيــة. وكان يرفــض إلا أن يقــدم القهــوة بعــد تحضيرهــا بيــده. أحسســت بالقــرب منــه إلى درجــة التماهــي.. أمــا عنــد بــدء المناقشــة في المعطيــات، وفي مــا كتبــت، أشــعر وكأن مســافة بعيــدة ارتســمت بلحظــة بيننــا.. كان أســتاذا فــذاً بحســن رعايتــه واهتمامــه، وثقافتــه الواســعة، وســعة صــدره في النقــاش وشرح النقــاط الملتبســة.

عشـية جلسـة المناقشـة، قابلتـه في اسـتراحة الجامعـة الأميركيـة، بنـاء عـلى طلـب منـه، وأرشـدني إلى مـا عـليّ فعلـه، ولفتنـي إلى أهميـة الـرد عـلى الملاحظـات التـي يمكـن أن يبديهـا الأسـاتذة.. وكان حتـى تلـك اللحظـة لم يبـد أي رأي أو ملاحظـة حـول العمـل في شـكل عـام.. ولم أجـرؤ عـلى سـؤاله.. وفي لحظـة فراقـي لـه تجـرأت وسـألته..

– ما بتطمّني وبتعطيني رأيك بالشغل حتى نام مرتاح..؟

– مـع ضحكـة خاطفـة تبعتهـا بسـمة قلـما رأيتهـا عـلى وجهـه، قال:

– ليـش مسـتعجل..؟ بكـرا رح تعـرف كل شي.. لم يـزد كلمـة واحـدة عـن ذلـك.. ومشـيت.

حصلـت المناقشـة يـوم الجمعـة في 5 تشريـن الثـاني 1981، في مبنـى المعهـد في بـيروت أمـام لجنـة مؤلفـة مـن وضـاح شرارة وسـهيل القـش وحسـين كنعـان. وقـد نلـت عـلى أثرهـا علامـة 20/17 عـلى البحـث و17/ 20 عـلى المناقشـة مـع تهنئـة أعضـاء اللجنـة والتوصيـة بالنـشر. ولمـا أنهيـت المناقشـة، خرجـت وبقـي الأعضـاء لكتابـة التقريـر وتسـليمه لـلإدارة.. وإذا بصـوت ينـادي.. وضـاح.

– تمهل..

توقفت وانتظرته، وصل ليسألني:

– انـت مـشروع باحـث جيـد. قـادر تسـكن ببـيروت وتعمـل معـي في مركـز للأبحـاث، والراتـب مغـري؟

أحسسـت بالفخـر.. واعتـذرت.. العائلـة ومركـز العمـل يمنعـاني مـن الانتقـال إلى بـيروت..

إلتقيـت بوضـاح شرارة بعـد أكـثر مـن عشريـن عامـاً عـلى مدخـل مبنـى المعهـد في بـيروت.. غمرتـه وقبّلتـه، مـع دهشـة ظهـرت عـلى

محياه.. زالت بعدما ذكّرته باسمي.. قال معقّباً بوقاره المعهود:

– إنت من الطلاب القلائل اللي مرّوا عندي. وسألني عن أحوالي.. وعقّب بعد جوابي:

– ما قلتلك كنت مشروع باحث جيد، وهلأ صرت باحث جيد..

تحية وفاء ومحبة إلى وضاح شرارة.

انتظرت خمس سنوات للبدء بتحضير أطروحة الدكتوراه، بعد أن حاولت الانتساب إلى جامعة دمشق لتحضيرها.. كان عميد كلية الفلسفة حينذاك د. عادل العّوا المثقف المتواضع بدماثة واضحة في الخلق، وقد استقبلني في مكتبه شارحاً لي عقبات التسجيل، منها أن لا كلية منفصلة في علم الاجتماع، ولا تبادل أكاديمياً بين لبنان وسورية يتيح الاعتراف بالشهادة اللبنانية في سورية والشهادة السورية في لبنان.. وعبّر عن استعداده لقبول تسجيلي في كلية الفلسفة. شكرته وخرجت..

بدأ المعهد التسجيل لتحضير شهادة الدكتوراه في العام الجامعي 1985 - 1986. وجاء التسجيل إلينا في طرابلس مع د. فردريك معتوق مدير الفرع الثالث، بعدما أجيز له الإشراف على أطاريح الدكتوراه.. وهكذا كان..

كان د. معتوق جادّاً في إشرافه، ومتابعته للطلاب.. ولم يتوان عن توقيف الإشراف على أي طالب إذا توسّم فيه عدم الجدية أو الإهمال أو عدم القدرة على المتابعة في التحضير والتحصيل. رفض بعض الطلاب في بداية إشرافه في طرابلس، وبقي لديه أربعة تخرجوا، كما مر سابقاً، قبل أن ينتقل مركز الاشراف ومتابعة المحاضرات التمهيدية إلى بيروت.

في الموعد المحدد لمقابلة الأستاذ المشرف، كان يجد الواحد منا د.

معتـوق بانتظـاره، والأوراق المقدمـة إليـه لإبـداء الملاحظـات مرتبـة عـلى المكتـب بـين يديـه بانتظـار النقـاش والـشرح. ولأنـه المديـر، كان يعطـي الاشـارة للموظـف المسـؤول أن لا يسـمح بدخـول أحـد عليـه طيلـة وجـود أحدنـا في مكتبـه. وكان يتابـع الانتـاج البحثـي كلمـة كلمـة وفكـرة فكـرة، مـع فـرض التعديـل هنـا، أو اقتراحـه هنـاك، بتواضـع الباحـث وجدّيـة الأكاديمـي. وكانـت الدفعـة الأولى مـن إشرافـه الأكـثر انتاجـاً، ومـن الأكـثر نجاحـاً في التعليـم الجامعـي، ومـن الأكـثر جديـة في الإشراف عـلى الرسـائل والأطاريـح الجامعيـة.. وقـد ذكـرت في صفحـات سـابقة مـا فعـل د. معتـوق مـن أجـلي بعـد حصـولي عـلى شـهادة الدكتـوراه.. والوفـاء يقـضي مـرة أخـرى بشـكره.

بعـد تفرغـي في الجامعـة واسـتقالتي مـن وزارة الاقتصـاد، عملـت على إثبـات وجـودي في المعهـد مـن خـلال الجديـة في تحضـير المحـاضرات وإلقائهـا في الطريقـة التـي تسـتهوي الطـلاب بعيـداً عـن جـو الحشـو والتلقـين، وكنـت غالبـاً مـا أُشرك الطـلاب في النقـاش وأشـجّعهم عـلى طـرح الأسـئلة.. كان لذلـك، الأثـر الطيـب لـدى الطـلاب والادارة وبعـض الزمـلاء الأسـاتذة، والتأفـف مـن بعضهـم الآخـر بعد شـعورهم بالتقصـير في إدارة شـؤون الصفـوف. ووصـل الأمـر إلى بدايـات تنظيـم النـدوات والمؤتمـرات في المعهـد بعـد الأخـذ بمقترحـاتي ومقترحـات بعـض الزمـلاء، فأقمنـا نـدوة عـلى مـدي يومـين حـول الحـس المـدني بـين الوعـي والممارسـة، ونـدوة مـع المفكـر الفلسـطيني الأمـيركي هشـام شرابي، ومحـاضرات لفنانـين لبنانيـين، وتُوّجـت هـذه النشـاطات بنـدوات وورش عمـل قمـت بتنظيمهـا مـع مؤسسـات مدنيـة دوليـة امتـدت مـن طرابلـس إلى بـيروت وصيـدا. كذلـك مـا قمـت به مـع مها كيـال في معهدنـا مـن نشـاطات ومؤتمـرات ثبّتـت أقدامـه وجعلتـه في طليعـة الفـروع عـلى امتـداد الوطـن. وكان أن منحنـا رئيـس الجامعـة، أنـا ومهـا، كتـابَي تقديـر عـلى جهودنـا في تنظيـم وإنجـاح أحـد هـذه المؤتمـرات.

هذا كله مجرد اختصار لما تقدّم عرضه في صفحات سابقة.

19
مؤتمرات ورحلات

لم أحب السفر والرحلات خارج البلاد. ربما لأنني لم أتعوّد على ذلك، أو لأنني أخاف من ركوب الطائرة، أو لأن السياحة لا تستهويني. أول ركوبي للطائرة كان في السابعة والأربعين من سنوات عمري، في رحلة إلى الأردن للمشاركة في مؤتمر علمي نظّمه الاتحاد الفلسفي العربي. كان ذلك في 1997.. والرحلة الثانية إلى ليبيا للمشاركة في النشاطات الثقافية في جامعة الفاتح في طرابلس. وتوالت بعدها الرحلات العلمية، والترفيهية على قلّتها، شملت القاهرة والبحرين ودبي وتونس وتركيا وأستراليا، بالاضافة طبعاً إلى سورية.

كانت اللقاءات الثقافية على هوامش جلسات المؤتمرات أكثر ما يهمني، باعتبارها مناسبات للتعرف على القادمين من بلدان عربية متعددة.. نعقد الجلسات لمناقشة أعمال المؤتمرات، ونبين ما نقص من الاهتمامات فيها، ومضمون ما قيل والتعليق عليها.. أكثر ما لفتني في هذه الجلسات في ليبيا، الثقافة العالية التي يتمتع بها الموريتانيون وهم في بدايات نشاطاتهم الفكرية، والعراقيون الذين أثروا فيّ إبان الحصار الشرس الذي عانى منه العراقيون.. للدرجة التي أذهلتني وأبكتني.. لا أزال أذكر اسم عائلتها الحديدي، تلك التي حدثتني عن المأساة التي يعيشها العراقيون.. أبلغتني بعد السؤال، أن راتبها، وهي برتبة أستاذ في كلية الحقوق في جامعة بغداد..

– أربعون ألف دينار..

– ممتاز.. كانت ردة فعلي المفاجئة لها..

ضحكت بأسى، وقالت:

– هـذا كان مـن زمـان، ولتقريـب المسـألة إلى ذهنـك أقـول، إن كرتونـة البيـض بأربعـة آلاف دينـار، وكيلـو اللحـم بعشريـن..

صُدمت ولم أعد أعرف ما عليّ قوله..

– ولأعطيـك مثـالاً عـن معاناتنـا، سـأروي لـك قصـة عـن صديـق عزيـز رواهـا لي شـخصياً عندمـا سـألته عـن أحـوال زوجتـه، وأخـبرني بأنهـا تركتـه.

كان عميـداً لكليـة الطـب في جامعـة بغـداد.. وفي العـادة، يكـون السـاعة الثامنـة في مكتبـه.. هاتفتـه سـكرتيرته يومـاً لتأخـره.. ردّت عليهـا الزوجـة.. العميـد لم يصـل إلى المكتـب.. كانـت السـاعة العاشرة. خـرج مـن الثامنـة. فجـوة زمنيـة بمقـدار سـاعتين أرعبتـا الزوجـة.. لعـب الفـأر في عبّهـا.. لم تقـل شـيئاً.. ولم تفاتـح زوجهـا بالموضـوع.. بقـي يخـرج في الثامنـة، وسـكتت الاتصـالات للسـؤال عليـه. حاصـت الزوجـة وقـرّرت الاتصـال بالمكتـب.. ردت السـكرتيرة، أخبرتهـا أنـه في اجتـماع.. مـرة ثانيـة.. في اجتـماع.. عـلى العـاشرة ردّ عليهـا هو بنفسـه. أسرع الفـأر في الحركـة واللعـب. عرفـت أخـيراً، بعـد ذهابهـا إلى الكلية لمعاينـة الأمـر عـلى الأرض.. إنتظرتـه.. وصـل في العـاشرة.. والسـكرتيرة اختفـت.. بعـد جهـد وإلحـاح في السـؤال. أجابهـا بمـرارة:

– إريـد أن أحافـظ عـلى مسـتوى معيشـتك حتـى لا تحـسّي بالفـرق.. أنـا أشـتغل سـائق تاكـسي سـاعتين في اليـوم مـن أجلـك..

– ولكنني تزوجت عميداً في الجامعة لا سائق تاكسي..

تركـت المكتـب بغضـب ظاهـر، وفي اليـوم التـالي طلبـت منـه الطـلاق.. فلـم يتأخـر ثانيـة واحـدة عـن تنفيـذ طلبهـا..

شـعور غريـب انتابنـي وأنـا أسـمع هـذه القصـة المحزنـة المتأتّيـة مـن الحصـار المجـرم عـلى العـراق. ومـا يحـضرني وأنـا أسـتذكر مـا حصـل معـي في ليبيـا، وقائـع جلسـة طريفـة في مطـار مالطـة، ونحـن في

طريق العودة.. كان علينا أن ننتظر سبع ساعات لنحظى بالطائرة التي ستقلّنا إلى بيروت. وكان علينا أن نتسلّى لتمرير الوقت.. تجولنا في القاعات.. تعبنا، فجلسنا في قاعة الانتظار.. كان قد مرّ عشرة أيام على إقامتنا في جامعة الفاتح والفندق الكبير، مع كل محادثاتنا ومشاركاتنا في المحاضرات ومناقشات أبحاث الطلاب..

بدأ الحديث عن الوضع في ليبيا وفي لبنان، مع مقارنة ما يحصل في كل من البلدين.. وإذا بأحد رفاق الرحلة الذي تعرفت عليه في هذه المناسبة، وهو أستاذ جامعي، يقول:

– الحل في لبنان هو كما قال الأخ معمر القذافي..

– وماذا قال..؟ سأله أحدنا..

– أن يصير كل سكان لبنان مسلمين..! هكذا تنتهي مشكلة لبنان..!

ضج بعض الحاضرين بالضحك؛ وهم الذين يعرفون أنني غير مسلم.. لم يعرف لماذا ضحكوا، وأنا عرفت. وانتظروا مني رداً على ما يقول..

– جيد، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو، تحت أي اسم طائفة سيتحول المسيحيون؟؟ قلت له بهدوء.. لم يجب.. أكملت:

– لنفترض أنهم تحوّلوا إلى السنّة، بالجبر دون غيرهم، ألا تقوم الحرب بين السنّة والشيعة باسم اختلال التوازن؟؟ وإذا تحوّلوا إلى الشيعة، وبالجبر أيضاً، ألن يحصل الأمر نفسه بالنسبة للسنّة. يا أخي في الحالتين أين نذهب بالدروز.. لنفترض أن الجميع قبلوا.. فعلى أي مذهب سيكونون؟؟ الشافعي أو المالكي أو الحنبلي أو الحنفي.. أو الجعفري؟؟ إعمل، يا صديقي، على أن يكون المسلمون كلهم ديناً واحد ومن ثم إلتفت أنت وأخوك

معمّـر إلى المسـيحيين..

عـلا ضجيـج الحاضريـن بضحكاتهـم، وعـرف أننـي مسـيحي.. لم أتخلّـص مـن اعتذاراتـه طيلـة الوقـت في المطـار، ومـن ثـم عندمـا اختـار الجلـوس إلى جانبـي في الطائـرة ليكمـل اعتذاراتـه.. إنـسَ قلـت لـه.. ولكـن أنـا لم أنـسَ.. وأسـوق هـذا الحـوار لأخـذ العـبرة.

في رحلتـي مـع زوجتـي وشـقيقي ملحـم إلى أسـتراليا، ذقنـا الأمرّيـن. ثمـاني عـشرة سـاعة في الفضـاء، جلوسـاً ونومـاً. أيقظتنـي زوجتـي..

– شو في؟

– قربنا نوصل.. شوف الطيارة صارت فوق أستراليا..!

نظـرت إلى الشاشـة فـإذا بمجسّـم الطائـرة فـوق شـمالي أسـتراليا.. إنتظرنـا الوصـول القريـب. دام هـذا الانتظـار سـت سـاعات حتـى وصلنـا إلى جنوبيّهـا. سـت سـاعات ونحـن فـوق الأرض الأسـتراليّة.. وصلنـا والتقينـا بالأحبـاب، بيـت أخـي نافـذ والأصحـاب والأقربـاء بانتظارنـا.. فرحـت بلقائهـم. سـاعدونا بحمـل الأغـراض ومنهـا الطبـل لحفلـة زواج ابـن أخـي عـلي مقصـد الرحلـة وغايتهـا. والغريـب أنهـم أخـذوا في المطـار القضيـب الرفيـع للطبـل بحجـة أنـه لا يـزال أخـضر.. شـعب يعـرف كيـف يحافـظ عـلى بلـده.

بقينـا في ملبـورن خمسـين يومـاً قضينـا منهـا عـشرة في ضيافـة ابـن أختـي نبيـل.. في سـيدني. كانـت مناسـبة لزيـارة أبنـاء الضيعـة والأقربـاء في المدينتـين.. وقـد مـرّت سـنوات عديـدة عـلى وجودهـم هنـاك.. وكان علينـا أن نلبـي دعواتهـم إلى غـداء أو عشـاء، مـا أصابنـا بالتخمـة والتضجـر مـن المزيـد مـن المـآكل، ولكـن لا بـدّ مـن التلبيـة. زرنـا معـالم المدينتـين وأهـم مـا تتميّـزان بـه مـن منشـآت عمرانيـة ومعـالم سـياحية. وكان أن خصّـص صديقـي نقـولا داود يومـاً كامـلاً لقضائـه في ضواحـي سـيدني والمناطـق المجـاورة التـي كثـيراً مـا تشـبه خليـج جونيـة وجبـل حريصـا في لبنـان. كان يومـاً جميـلاً قضينـاه

في ريـف أخـضر وشـواطئ نظيفـة ومـيـاه صافيـة.. وأكـثر مـا لفـت نظرنـا في تلـك النواحـي، نافـورة مـاء طبيعيـة تطلـع مـن بـين الصخـور مرتفعـة عـشرات الأمتـار، ثـم تهـدأ لترتفـع مـن جديـد.

مـا لفتنـي في المجتمـع اللبنـاني - الأسـترالي الاهتـمام إمـا بالعمـل المتواصـل، بحيـث لا يبقـى إلا الليـل للراحـة، أو البقـاء المتواصـل في البيـت مدعومـاً ببرنامـج الرعايـة الاجتماعيـة الـذي يقـدم المعونـة للمتبطلـين أو المصابـين بـأضرار العمـل. ومـا لفتنـي لـدى زيارتنـا منـزل ابـن عمـي أحمـد زريقـة، هاشـم ، وجدنـاه يـؤركل في الباحـة وبالشـورت.

استقبلنا وزوجتـه بحفـاوة بالغـة، وكان قـد مـضى عـلى غيابـه عنـا أكـثر مـن ثلاثـين سـنة. وبعـد السـلام والترحيـب، سـألته:

– يبدو أنك في البيت والوقت وقت عمل، ما القصة؟

قلت هذا الكلام، ونحن محاطون بالأزهار المصنّعة مالئةً الباحة.

– كـما تـرى أجلـس أمـام الـدار الأركيلـة في فمـي، القهـوة إلى جانبـي.. والمعـاش الأسـبوعي يصـل إلى المنـزل.. وامـرأتي تخـرج هـذه الغابـة مـن الأزهـار مـن الصالـون، تغسـلها وتردّهـا إلى مكانهـا يوميـاً.. ويصـل معاشـها الأسـبوعي إلى المنـزل.. والأولاد بالمـدارس.. شـو في ورانـا؟؟

وصـل أبنـاؤه مـن المدرسـة ونحـن في وسـط الـكلام. صبـي لم يتجـاوز العـاشرة وثـلاث بنـات، الكـبرى قريبـة مـن الثانيـة عـشرة، والصغـرى مـن السادسـة. سـمعنا عبـارة واحـدة صـادرة مـن الجميـع: السـلام عليكـم.. اقـترب الصبـي منـي بعـد دعوتـه وسـألته عـن أحوالـه في المدرسـة.. لم يسـتطع الجـواب لأنـه لم يفهـم مـا قلتـه..

– شو يا هاشم، ما بيعرفوا ولادك عربي؟

– فقط السلام عليكم.. قال ضاحكاً..

– معقول.. وأنت وزوجتك عرب؟

– يا صاحبي.. تعرف الحكومة ماذا نفعل نحن معها.. تشتري أبناءنا بالتقسيط الأسبوعي، طامعة في كسبهم، إذا لم يكن في هذا الجيل، فبالتأكيد في الجيل الذي يلي.

جوابه وضعني في مكان آخر..

لأن أقرباءنا ومعارفنا في عمل دائم، إلا من أراح نفسه وقعدَ في البيت.. لعطل شبه دائم أو اختيار التبطل، صار من الصعب تنقّلنا في النهار في غياب مَن يساعدنا على ذلك.. وعلى امتداد الفترة أحسسنا بنوع من الضجر الثقيل نتيجة قعدتنا في البيت.. وصرنا نعدّ الساعات والدقائق للعودة.

كانت عودتنا من مطار ملبورن في العاشرة والنصف من مساء 10 أيلول 2001. وصلنا إلى مطار سنغافورة في الواحدة والنصف لاستراحة لا تتعدى الساعة والنصف.. كانت قاعة المطار الواسعة شبه فارغة.. تجوّلنا وحظينا بركن يشبه مدخل غابة مع شلال من المياه بديع.. وقفنا نتأمله ولنعرف ما إذا كانت الأشجار طبيعية أم لا.. اختلفنا في ذلك حتى بعد الملمس.. وكاد أخي أن يقتلع ورقة.. بعد أن ترك مسبحته على الركن ليلمس، فمنعته. عدنا.. تفقّد المسبحة.. لم يجدها.. نسيها هناك.. داهمنا الوقت، أسرعنا لم نستطع الوصول.. صدح صوت بأسمائنا عدنا جرياً لنلمس اضطراب زوجتي، وانتظار الطائرة برمّتها لنا. دخلنا متن الطائرة بدون المسبحة مع التأفف المحبب من فم أخي: تسئ.. تسئ.. تسئ.

في السادسة صباحاً من يوم 11 أيلول، وصلنا إلى مطار دبي.. انتقلنا مباشرة إلى فندق المطار، بعد أن لفحنا هواء المدينة اللاهب.. دخلنا غرفتنا لنستريح من عناء الرحلة.. لم يأتني نوم.. نامت زوجتي لتعب حلّ بها بعد تعرّضها لوعكة في الطائرة.. نزلت إلى

صالـة الفنـدق، وإذا بهـرج ومـرج لم أعـرف سـببه إلا عندمـا سـألت أحدهـم عـما يجـري.. وإذا بشـقيقي يصـل.

- هجـوم بالطائـرات وبمـن فيهـا عـلى مناطـق في أمـيركا.. يدمّـر برجـي مركـز التجـارة العالمـي ويصيـب وزارة الدفـاع، والضحايـا بـالآلاف.. اللـه يسـتر..

لم أسـتوعب مـا سـمعت.. قمـت وشـقيقي مسرعـين إلى غرفـة الفنـدق.. وأشـعلت التلفزيـون وإذا بمنظـر الطائـرة يـضرب أحـد البرجـين، ومـن ثـم طائـرة أخـرى تدخـل في الـبرج الثـاني، في عـرض مكـرّر ومتواصـل، مـع تعليقـات بلغـة لا أفهمهـا.. في هـذه اللحظـات فتـح شـقيقي المحفظـة التـي حملهـا بيـده منـذ خروجنـا مـن مطـار ملبـورن.. وهـو في حالـة اضطـراب مفاجـئ.. أنظـر قـال لي.. وإذا في داخلهـا مـوس الحلاقـة وماكينتهـا وأغـراض أخـرى اسـتعملها في حفـل الحلاقـة للعريـس؛ وهـو الطقـس التقليـدي الـذي كنـا نمارسـه في الضيعـة عـلى تمايـل الأجسـاد بالرقـص، ووقـع دقـة الطبـل وصـوت المزمـار.. رجـف جسـمي مـن هـذا المنظـر.. وتذكـرت أني كنـت أحمـل في يـدي أيضـاً علبـة فخمـة تحتـوي عـلى تجويـد مرتّـل للقـرآن الكريم بصـوت المنشـاوي في ثمانيـة وعشريـن شريطـاً.. هنـا داهمتنـي فكـرة أرعبتنـي.. مـاذا لـو فتّـش رجـل الأمـن حقائبنـا اليدويـة لتأخّرنـا عـن ركـوب الطائـرة، ووجـد هـذه الأغـراض معنـا..؟ مـا سـيكون مصيرنـا.. ونحـن الثلاثـة لا نعـرف الإنكليزيـة، ولا شيء يـدل عـلى أننـا غـير مسـلمين؟؟ كان حسـن الحـظ وحـده هـو الـذي أنقذنـا مـن هـذه الورطـة.. هنـا.. خـاف أخـي وأراد أن يتخلّـص مـما معـه في الفنـدق.. منعتـه.. صرنـا في مأمـن، ولا داع لخسـارة عدّتـه.. ولم نحـسّ بالأمـان فعـلاً، إلا بعـد خروجنـا مـن مطـار بـيروت، ودخولنـا السـيارة التـي أعادتنـا إلى الديـار.. كانـت الرحلـة الأولى لأسـتراليا، ولـن تتبعهـا رحلـة أخـرى، مـع محبتـي لجميـع المقيمـين فيهـا.

20
نهاية الخدمة العامة

كان علـي أن أنهـي خدمـاتي في الادارة والتعليـم في 17 شـباط 2014. في هـذا اليـوم قـدم لي د. غسـان قـرار تعيينـه مديـراً للمعهـد بعـد أن قضيـت في إدارتـه سـبع سـنوات وشـهرين.. خـبرت فيهـا مـا لم يكـن بمقـدور أي أسـتاذ أن يعرفـه، إن كان في علاقاتـه مـع الادارة أو مـع زملائـه والموظفـين والطـلاب، بالاضافـة إلى العلاقـة مـع الادارة المركزيـة، رئيسـاً وأمنـاء سر وموظفـين. وحملـت معـي انطباعـات خاصـة لا يمكـن أن يحملهـا إلا مـن يتعاطـى بمهـام الادارة، إي إدارة.. كشـفت فيهـا معـادن الأسـاتذة ونواياهـم الخـيّرة منهـا والشريـرة، الطيبـة والخبـث، الواقعيـة والانتهازيـة ونزعـة التسـلق والمداهنـة، كـما شراسـة الطبـع وغريبـه، والمزاجيـة التـي توصـل إلى حـد الانفصام، ومنهـا مـا يتعـداه.. احتفظـت بصداقـات الكثيريـن منهـم، وأهملـت بعضهـم، وأحـاول أن أزيـل البعـض الآخـر مـن ذاكـرتي، وإن كنـت أعتـبر أن مَـن كان عـلى خصـام معـي، يمكـن أن يكـون عـلى وئـام مـع غـيري، مـع التأكيـد عـلى أن أي خصومـة مصدرهـا الآخـر الـذي دائمـاً مـا يتلاعـب لتأمـين الصالـح الخـاص عـلى حسـاب الآخـر إن كان فـرداً، أو عامـاً.

لم أقبـل الدخـول في محـاولات تعليـم في الجامعـات الخاصـة، واكتفيت بقبـول مناقشـات رسـائل وأطاريح طـلاب في بعض الجامعـات الخاصة، بالاضافـة إلى اسـتمرار إشرافي عـلى أطاريـح طـلاب في المعهـد العـالي للدكتـوراه في الآداب والعلـوم الانسـانية والاجتماعيـة، ومشـاركتي في لجـان مناقشـة أطاريـح الدكتـوراه بـإشراف أسـاتذة آخريـن.

إنصرفـت إلى أبحـاثي في مجـال العلـوم الاجتماعيـة، وقمـت بإعـداد دراسـة معمقـة في سوسـيولوجيا الـتراث، تحـت عنـوان مدوّنـة الثقافـة الشـعبية العربيـة ظهـر منهـا أربعة كتب، وكتـاب في جغرافية السـكان

بالمشاركة مع ابني شوقي في مدى أربع سنين.. كما أعددت كتاباً في التراث الشعبي المشرقي، وهو قيد النشر.. بالاضافة إلى ما في هذا الكتاب من مذكرات، تكون قد نشرت طالما اطّلع القارئ على خبرها هنا.

لم أحس فعلاً بتقاعدي، أن محيطي استنفدني.. فأنا لا أزال أعمل، وسأبقى أعمل طالما قواي تسمح لي بذلك. فالعمل والكتابة منه، على وجه الخصوص، يشعرني بأنني لا أزال حياً أسعى، وينسيني توالي السنين، ووطأة العمر.. وقد نصحني صديق عزيز بقوله.. أكتب وانتج طالما أنت قادر.. لا يطيل عمرك إلا الكتابة.. وإذا قعدت.. فإن قعودك طريق سريع للرحيل.. أجّل رحلتك قدر الإمكان..

أما غير ذلك فبيَد الله..

وإذا كان للضرر منفعة، فأن الأزمة العالمية التي تسبب بها فيروس كورونا، كانت السبب الوحيد للانصراف إلى تدوين هذه الملامح من سيرة حياة. وأشد ما أعجبني في هذه المقتطفات حضورها في الذهن وتلبيتها لعامل الكتابة والتدوين، وهي تعود في أعمق مداها إلى ما يقرب من ثلاث وستين سنة بالتمام والكمال..

تذكرت تلك الأحداث، وعشت لحظاتها، وأنا في غمرة الكتابة، كما لو كانت حصلت بالأمس. رسّخت في ذهني ذكريات لأشخاص لا يمكن أن أنساهم، وأعادت ذكرى أشخاص أعزّاء قضيت معهم أجمل أيام طفولتي وفتوتي وشبابي، خلت أنها اندثرت إلى الأبد. وأعادت لي بهجة زمن الطفولة والمراهقة مع كل ما كان يشدّ انتباهنا، ويستثير مشاعرنا، ما سمح بملاحظة الفرق بين تلك الأيام والأيام التي نعيشها مع أبنائنا وأحفادنا، مع الحنين، على الأقل من جانبنا نحن، جيل الخمسينيات، إلى تلك الأيام، رغم ما كانت تحمل من شظف العيش وشدة الفاقة، مقابل ما نعيشه اليوم من هناء حياة وبحبوحة عيش، رغم كل المصائب التي حلّت وتحل بنا، دون أن تترك لنا مجالاً للراحة والاستقرار.

المحتويات

تقديم 7
السقف والمطر والمدرسة.. 13
ضيعتي، العالم كله.. 21
ما يحبّه أبي.. وأنا.. 37
وفاء الكلب 43
قرمش 47
الضيعة والجوار.. 53
الثورة 63
في المدينة 69
معالم المدينة.. 87
التدريب والمعاناة 99
من الضيعة إلى بيروت 109
في الجامعة 161
أنا والكتاب.. 173
من الجامعة إلى الوظيفة العامة.. 181
العمل القومي والمحلي 195
الوظيفة العامة وإمكانيات الفساد 207
من بيت إلى بيت.. 215
الدراسات العليا 225
مؤتمرات ورحلات.. 233
نهاية الخدمة العامة 241